جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية



بنية الغزل في الشعر الأموي

دراسة تحليلية

رسالة لنيل درجة الماجستير
في الآداب : قسم اللغة العربية

مقدمة من

وفاء أحمد عبد الله علي المصيفرة

إشراف

الأستاذ الدكتور / ابراهيم عبد الرحمن

١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء ..

إلى أمي وأبي ..

إلى من أغدقا عليّ من الحب والحنان، مالا يضاهيهما شيء ... أقدم هذا العمل عرفانًا مني بفضلهما الدائب ..

المقدمـــــة

موضوع هذه الدراسة (بنية الغزل في الشعر الأموي ، دراســـــــة تحليلية) ومن المعروف أن الغزل يكون جزءا أساسيا من القصيدة الجاهلية ، يأتي عادة في مقدمة القصيدة ، سواء افتتحها الشاعر بالوقوف على الأطلال ، أو بدأها مباشرة بالغزل ، كما أن الأغراض الأخرى التي تتألف منهـــــــا القصيدة تخرج من هذا الغزل أيضا ، فالشاعر يقف على الأطلال من أجل المرأة ويرحل من أجلها للحاق بموكبها ، ويصف دابته التي تنقله اليها وصفـــا يجعل منها حيوانا قادرا على اللحاق بها ، ولانخطىء اذا قلنا ان الغزل هو أصل القصيدة القديمة .

ومن الملاحظ أن الغزل قد اتخذ أشكالا مختلفة في الشعر الجاهلي ، وان الشاعر في هذا العصر المبكر كان يستغله استغلالا فنيا ، فيعبر من خلاله عن قضاياه ومواقفه من أحداث الحياة ، مما جعل صورة المرأة تكاد تكون صورة لامرأة عامة غير محددة الملامح بمعنى أن صفاتها تصدق علـــى أي امرأة جميلة أخرى ، كما جعل موقف الشاعر منها يتغير تبعا لموقفه من الحياة ومعاشاته من قضاياه ، على نحو مانجده في وصف امرىء القيس للمرأة ، ووصف عنترة لها .

وقد أخذت منزلة الغزل في القصيدة الشعرية تتغير تغيرا واضحا في الشعر الأموي ، كما أخذ اعتماد الشعراء على الغزل في التعبير عن مواقفهم يزداد ، وقد تجلّى ذلك كله في شيئين جديدين :

الأول : ان الغزل قد انفصل عن القصيدة القديمة في الشعر الحجـــازي خاصة ، وعلى أيدي شعراء من أمثال عمر بن أبي ربيعة ، والأحوص ، وجميل بثينة ، وكثيّر عزّة ، والمجنون .

والثانى : ان القيمة الرمزية للغزل قد اتسعت ، ليصبح رمزا عن قضايا سياسية واجتماعية ودينية ، كان الشاعر الأموي يواجهها في هذه الفترة المتطورة من تاريخ المسلمين.

وتدور الدراسة حول أشكال الغزل في صورته الجديدة ، وبيئته المتطورة ، وقد انقسم البحث لذلك الى بابين :-

الأول منهما مخصص لدراسة الغزل في البيئة الحجازية ، الذي استخدمه الشعراء للتعبير عن مواقفهم الاجتماعية والسياسية ، بطريقة خاصة اتخذوا فيها من صيغة الغزل الصريح، وسيلة لمناقشة هذه القضايا ، وهو ماجعلني أعنون لهذا الباب بجدلية الحب والحياة ، وأعني بذلك تسجيل الغزل للعواطف والمواقف المتضاربة ، وهي جدلية اتخذت أشكالا مختلفة ، حاولت رصدها في ثنايا الدراسة .

ويتضمن هذا الباب فصلين متكاملين :-

الأول : (بين التقليد والتطور) ، وقد حرصت في هذا الفصل أن أوضح دور الغزل في القصيدة القديمة من ناحية ، وأشكاله المختلفة في هذه القصيدة من ناحية أخرى ، وقد لاحظت أن الغزل في القصيدة الجاهلية كان يجيء على ثلاثة أشكال :-

الشكل الأول مقدمة طللية ، وعلى الرغم من أن الشعراء في أكثر الأحيان لايتغزلون غزلا مباشرا في هذه المرأة الراحلة ، الا أن هناك غزلا مباشرا فى موضع آخر من القصيدة وهو النوع الثانى من الغزل ، وهذا الغزل المباشر فى أكثر الأحيان وصف لأحداث كان الشاعر يزعم أنها تقع بينه وبين المرأة ، وأكثر شعراء الجاهلية شهرة بهذا الغزل الحدثي هو امرؤ القيس وطرفة .

أما النوع الثالث ، فهو غزل يخصصه الشاعر لوصف جمال المرأة ذاته ، ومثل هذا النوع من الغزل لايعطينا آخر الأمر صورة لامرأة معينة ، بل يعطينا نموذجا للمرأة الجميلة ، أو بلغة الفن يعطينا تمثالا ،

تظهر فيه الأعضاء الأنثوية ظهورا بارزا ، وهذا النوع من الغزل ينبع في الحقيقة من معتقدات دينية ، تركز على دور المرأة في الخصوبة واستمرار الحياة .

وحين ننتقل الى العصر الاسلامي ، فاننا نلاحظ أن هذه الصيغة الجاهلية ظلت مستمرة عند بعض الشعراء الاسلاميين ، خاصة في المراحل المبكرة من هذا العصر ، وان كان الشعراء قد أخذوا يبثون في الغزل رموزا مختلفة عن رموز الغزل الجاهلي تحت تأثير الدين الجديد ، ولعل كعب بن زهير في قصيدته (بانت سعاد) ، أكثر من يمثل هؤلاء الشعراء الذين تطوروا بالغزل تحت تأثير الدين الجديد .

أما الفصل الثاني من هذا الباب فهو (الغزل الصريح ، رموزه ، وقضاياه) ويتضمن هذا الفصل دراسة الغزل الصريح في الحجاز خاصة) ، من خلال ماطرأ على القصيدة القديمة من تغير ، في الناحيتين الشكلية والموضوعية ، دراسة تحليلية لنماذج تمثل اتجاهات هذا الغزل المختلفة ، وكما أشرنا فقد انفصل الغزل عن القصيدة القديمة ليصبح موضوعا لقصيدة جديدة . كما نجد في شعر عمر بن أبي ربيعة ، الذي اتخذ من الحديث عن المرأة في مواقف الحج المختلفة وسيلة فنية ، يرمز بها الى قضايا سياسية أو اجتماعية أو دينية معاصرة كانت تؤرقه .

ومن الملاحظ أن هذا اللون من الغزل الصريح ، قد تنازعته ألوان مختلفة من الجدليات والمحاور الصراعية ، من أبرزها ، جدلية المحب / الحبيبة ، وجدلية المحب / الواشي ، وجدلية المحب / السلطة السياسية ، وجدلية المحب / السلطة الدينية .

ومن الملاحظ أن هذه الجدليات تنتهي في الغزل الصريح ، بالنجاح الحتمي الذي ينتصر فيه الشاعر على المحبوبة ، ويوثق بذلك من سلطان الحب .

أما الباب الثاني فقد جاء تحت عنوان (ثنائية الحب والحرمان)، ويقوم أساسا على دراسة الغزل العفيف ، الذي ينقسم بدوره إلى نوعين ، غزل عذري وغزل عفيف .

وقد حاولنا في الفصل الأول الذي خصصناه لدراسة : قصص الحب العفيف أصولها ونشأتها ، الفرق بين شعراء الغزل العفيف المعروفين تاريخيا ، وشعرائه المجهولين ، ونقصد بالشعراء المعروفين الذين ثبت وجودهم التاريخي ، وعرفوا بتجاربهم العاطفية ، ولم يتوقفوا في شعرهم عند الغزل ، ولكنهم كانوا مثل غيرهم من الشعراء ينظمون في أغراضه المختلفة ، ونستطيع في اختصار أن نقول أن هؤلاء الشعراء لهم سيرة حياة محددة ، ومنهم على سبيل المثال جميل بثينة وكثيّر عزّة ، ولم يختلف الشعراء - كما نعرف - حول هذين الشاعرين ، أما الشعراء المجهولون فهم هذه الطائفة من الشعراء الذين تناقضت الروايات القديمة في اثبات وجودهم ، وتشابهت لذلك قصصهم ، وتداخلت في بعضها البعض ، ويأخذ القدماء مثالا على هذه الطائفة قيس بن الملوح، الذي يعرف بالمجنون ، وكما نرى في هذا الفصل اختلف القدماء في الحديث عنه ، كما اختلفوا في تحديد اسمه ونسبه مما يجعل منه شخصية مجهوله ، كما عنينا في الفصل الثاني (الغزل العفيف: رموزه وقضاياه) برصد الظواهر الفنية والموضوعية الغالبة في الغزل العذري ، وأهم هذه الظواهر حرص الشاعر على احاطة المرأة التي يتغزل فيها بالغموض ، والاسراف في وصف بخلها في عواطفها ، وحرصها على عفتها ، كما نلاحظ حرص الشاعر على أن يجعل من الحرمان ، ثم الموت ، سمة أساسية لهذا النوع من الحب ، وهو مايجعل منه حبا يائسا وتجربة فاشلة ، تجعل الموت نتيجة حتمية لهذا النوع من الحب ، وفي هذا الفصل كذلك حرصت على رصد العناصر الفنية في اللغة والصور الشعرية .

وفي ختام هذه المقدمة لايسعني الا أن أقدم الشكر لأستاذي د٠ابراهيم عبد الرحمن ، على ما أفادني به من علم ، وما أرشدني اليه من أفكار، جعلت هذا البحث يخرج في هذه الصورة ٠

كما أشكر أستاذي الجليلين اللذين قبلا قراءة هذا البحث ، ومناقشته والحكم عليه : الأستاذ د٠ عفت الشرقاوي ، والأستاذ د٠مصطفى الشورى ٠

جزاهما الله عني خير الجزاء ٠

* * *

الباب الأول

(جدلية الحب والحياة)

الفصل الأول : بين التقليد والتطور.

الفصل الثاني : الغزل الصريح : رموزه وقضاياه.

الفصل الأول

(بين التقليد والتطور)

- الغزل في العصر الجاهلي.
- الغزل في العصر الإسلامي.
- أشكال الغزل في العصر الأموي.

(١) الغزل في الشعر الجاهلي

من المعروف أن القصيدة الجاهلية يقوم بناؤها على أساس تعدد الأغراض فيها ، وكان الشاعر تحقيقا لوحدة القصيدة يؤلف بين تلك الأغراض المختلفة ، ويكون منها بناء متكاملا يعرف بالقصيدة ، بحيث لانشعر عند قراءة القصيدة الجاهلية بالتفكك بين أغراضها بل تكون منسجمة مع بعضها البعض .

ويبدأ الشاعر الجاهلي قصيدته بمقدمة طللية يخص بها نفسه ، ويفرغ فيها عواطفه وأحاسيسه الحزينة ، لرحيل الحبيبة عن الديار ، واصفا تغير ملامح الديار بعد الرحيل ، ومادرس فيها من آثار ، متحدثا عن ذكريات حبه .

و" والواقع أن هذا الشعر الذى وقف فيه الجاهليون على الأطلال ينطوي على فيض من العاطفة ، فهو اذن فى أول صفاته شعر عاطفي ، وحسبنا من تصوير هذه العاطفة اننا لانزال حتى اليوم وبيننا وبينه مثيل هذه القرون في البعد الحضاري وفي اختلاف البيئات لانزال حتى اليوم ، على كل هذه الأبعاد والآماد ، نرى فيه ربّا لعواطفنا نحن ، وتعبيرا عن مشاعرنا نحن ، ونحس حين نقرؤه ونفهمه هذه الاستجابة له وهذا التأثير ، والأمر يعود دون ماشك الى هذه الشحنات العاطفية القوية التي تكمن فيه "(١)

واذا مافرغ من ذلك أخذ يصف لنا الرحيل والظعائن ، التي يتتبعها بنظره ، وينجذب اليها فؤاده ، وهو دائما يرحل في اثرها ، ويصف لنا دابته

---

١) د٠ شكري فيصل ، تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ، دار العلم للملايين بيروت : ٠٦١

التي تحمله بأوصاف غريبة ومعقدة ، وقد اتخذت دابته في هذا الشعر رمزا معينا ، هو رمز الأمل في أن يتغلب الشاعر على مايواجهه من مشاق ، ولعل في هذا مايفسر حرصه على أن يجعل منها كائنا انسانيا من ناحية ، وقويا قادرا على قطع الطريق وتوصيل الشاعر الى هدفه من ناحية أخرى .

ونلاحظ دائما في مقدمات القصائد **الجاهلية** نوعين من العناصر :- عناصر ثابتة ، بمعنى أنها تتكرر من قصيدة الى أخرى، مثل منظر قافلة الرحيل المتحركة ، وعناصر متغيرة ، يبثها الشاعر في وصفه للطلل ، ليجعل من المقدمة الغزلية ، على الرغم من تكرار معانيها ، مقدمة خاصة معبرة عن مواقف خاصة به ، فمن بين الشعراء الذين وقفوا على الأطلال نجد امرأ القيس والنابغة .

فيقول امروء القيس(٢) :-

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
فَتُوْضِحَ فَالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ
تَرَى بَعَرَ الآرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا ... وَقِيْعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ .

ويقول النابغة(٣) :-

عُوجُوا فَحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدَّارِ ... مَاذَا تُحَيُّونَ مِنْ نُؤيٍ وَأَحْجَارِ
أَقْوَى وَأَقْفَرَ مِنْ نُعْمٍ وَغَيَّرَهُ ... هُوجُ الرِّياحِ بِهَابِي التُّرْبِ مَوَّارِ

---

٢) السيد أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب ، موءسسة المعارف لبنان ٢:٣١٠

٣) نفسه ، ٢ : ٤١٠

فكل من الشاعرين تحدث عن هبوب الرياح على الأطلال ، لكن بطريقة مخالفة عن الآخر ، فالرياح عند امرىء القيس لم تستطع أن تغير من ملامح الديار لأنه كلما هبت ريح الجنوب المحملة بالغبار والأتربة التي تحجب ماتبقى من معالم الديار ، جاءت بعدها ريح الشمال وطيّرت تلك الأتربة ، وبذلك بقيت الديار على حالها دون تغيير .

" فقد أراد الشاعر من خلال حديثه عن الرياح أن يؤكد موقفا خاصا به وهو الانتصار الذي هو في أشد الحاجة اليه ، وقد راح ينمى هذا الشعوربانتصار ارادة الحياة ، يتمثل في كثرة قطعان الظباء وخصوبة توالدها ، وهما كثرة وخصوبة يشخصهما في كثرة بقايا هذه الحيوانات التي انتشرت على وجه الرمال البيضاء انتشار الفلفل الأسود فغطتها وحجبت بياضها ، وهاتان الصورتان تعكسان ، بما يبثه الشاعر من حركة وتغير ومقابلة ، هذا الجدل الدائب في نفس البشر بين الحياة والموت ، كما تعبران من ناحية أخرى ، عن حلم امرىء القيس بتحقيق الانتصار "(٤).

وربما أراد بحديثه هذا التعويض النفسى ، فهو يريد أن يعوّض هذه الوحشة المقفرة ، بقطعان الظباء والعين ليدلل على استمرار الحياة بها . أما الرياح في أطلال النابغة ، فقد أدت الى نتيجة مغايرة حيث غيّرت المعالم، وأصبحت الديار خالية مقفرة لهبوب تلك الرياح عليها . وبعض الشعراء أمثال زهير لم يتعرفوا على الديار الا بصعوبة ، والسبب في تغير حال الديار،

---

٤) د. ابراهيم عبدالرحمن محمد، بين القديم والجديد ، مكتبة الشباب : ١٠٦.

لايعود الى الرياح بشكل مباشر ، بل نظرا لقدم عهد الشاعر بها(٥):-

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْد عِشْرِيْنَ حُجةٍ فلأياً عَرفتُ الدارَ بَعْدَ تَوهّم.

وكما ذكرنا آنفا ان الحديث عن الطلل يجر وراءه وصف الرحلة ، ومايتعلق بها من الظعائن والهوادج أو الحدوج التي تحمل المرأة ،والحديث عن الابل ، وتعريف المناطق التي يقصدونها ، والمواضع التي يمرون بها في طريقهم ، فيظل خيال الشاعر معلقا بتلك الظعائن منذ بداية الرحيل الى نهاية المطاف ، وكأنه يخفف عن نفسه بعض أحزانها بمرافقته لظعائن الحبيبة ، وهو لاينسى أن يحدد لنا زمن الرحيل .

أما المرأة في هذا المضمار فلم تحظ الا بوصف الهودج الذي يحملها . وقد أبدع بعض الشعراء في وصف الظعائن ، وكشفوا عن مقدرتهم الفائقة في التخيّل والتمثّل ، وفي مقدمتهم زهير ، الذي أفرد في معلقته تسعة أبيات لهذا الوصف ، حتى ليخيل لنا أن بيده آلة تصوير تتبع الظعن وتلتقط لهم صورا حية ، بالحركة البطيئة أو فلنقل المتمعنة ، في سيرهم ووقوفهم . وقد تتبع بمخيلته ظعن الأحبة منذ لحظة رحيلهم من الحلياء وجرهم الى أن حطوا بوادى الرس ، ولم يفته ذكر الجبال والأودية التي مروا بها مثل (القنان ـ السوبان ـ الرس) ، وكأنه يرسم لنا خارطة دقيقة لتلك البيئة ويعرفنا بطبيعتها ، ومافيها من أرض مرتفعة ومنخفضة وغليظة .

---

٥) جواهر الأدب ، ٢ : ٤٧ .

كما انه اهتم بوصف هوادج الأحبة وصفا دقيقا متعرضا لكل شيء فيه، وباختصار فقد قدم لنا وصف الرحيل بانتظام وتسلسل محكمين ، فكان وصفه هذا أشبه بسلسلة متصلة الحلقات والوشائج بحيث لاتتقدم حلقة على أخرى.

كما أننا نستشف من وصفه بعض جوانبه النفسية تجاه المرأة عندما قال : ((عليهن دل الناعم المتنعم)) وهو جانب الاعجاب ، الذي حاول أن يقحمه اقحاما في وصفه ، ربما لأنه لم يتعرض في معلقته للتغزل في المرأة على طريقة أقرانه ، فاكتفى بأن يبرز لنا اعجابه بالمرأة.

يقول زهير في وصفه للظعائن[٦] :-

تبصّرْ خَلِيلَيْ هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ ... تَحَمَّلْنَ بِالعَلْيَاءِ منْ فَوْقِ جُرْثُمِ ١

جَعَلْنَ القنانَ عَنْ يَمِيْنٍ وحُزْنَهُ ... وكَمْ بِالقَنَانِ مِنْ مُحِلٍ ومُحْرِمِ ٢

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عتاق وكلّةٍ ... وِرَادٍ حَوَاشِيْهَا مُشَاكِهَةِ الدّمِ ٣

ظَهَرْنَ مِن السُوبَانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ ... على كُلِ قَيْنِي قَشِيْبٍ وَمُفْأَمِ ٤

وَوَرّكْنَ فيْ السّوبَانِ يَعْلُو مِتْنُهُ ... عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَاعِمِ المُتَنَعِّمِ ٥

بَكَرْنَ بُكُوراً واسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ ... فُهُنَّ وَوَادي الرّسِ كالْيَدِ لِلْفَمِ ٦

---

٦) نفسه ، ٢ : ٤٧ - ٤٨.

١- تحملن : ارتحلن . العلياء وجرثم : موضعان

٢- القنان : اسم جبل

٣- الأنماط : الثياب . عتاق : جيدة الحوك . الكلة : الستارة الناموسية

٤- السوبان : اسم واد. جزعنه : قطعنه . قشيب : جديد. مفأم : واسع

٥- ووركن : عرجن .

٦- استحرن : سرين سحرا.

وفيهنّ مَلْهى للصديقِ ومَنْظَرٌ أنِيْقٌ لعينِ الناظرِ المُتَوسِمِ

كأنّ فُتاتَ العِهْنِ في كلّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لَمْ يُحْطَمِ[١]

فَلَمّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ[٢]

أما امرؤ القيس فلم يملك يوم رحيل أحبته عنه الا أن يودعهم بدموعه الغزيرة ، مشبها نفسه بناقف الحنظل الذي تسيل دموعه ، وليس بوسع أصحابه أن يقدموا له أية مساعدة ، سوى أن يطلبوا منه التجمل بالصبر خوفا عليه من الهلاك ، وكأنهم يحسون بما يكابده من آلام وأحزان، لذلك أوقفوا مطيّهم ، وهذا التوقف يعني أنهم توقفوا عن الحياة العملية فترة من الزمن ، وهي أشبه بالوقوف حدادا على شيء انتهى من الحياة فيقول(٧) :-

كأنّي غَداةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحَمّلُوا لَدَى سمراتِ الحَيِ ناقِفُ حَنْظَلِ

وُقُوفاً بِها صَحْبِي عليّ مَطِيَّهُمْ يَقُوْلُونَ لاتَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

واذا ما انتهى الشاعر من الحديث عن الظعائن ، اتجه الى غرض آخر هو الغزل ، الذي يشكل جزءا مهما من أبنية القصيدة الجاهلية ولاتستقيم

١- العهن : الصوف . الفنا : شجر له حب أحمر وفيه نقط سود.

٢- جمام الماء : ما اجتمع منه ، والجمام الزرق : المياه الصافيه . المتخيم : المقيم.

٧) انظر ، د. عبدالحليم حفني ، معلقة امرىء القيس في ضوء جديد، الطبعة الأولى : ٣٧.

بدونه ، ولايمكن لشاعر أن يستغنى عنه ، بل قد يتناوله في ثلاثة مواضع من القصيدة : الأول ، عند حديثه عن الأطلال وماتبقى من آثار الديار والبكاء عليها ووصف الظعائن ، ثم يتعرض للغزل الحدثي ، ويعتمد على وصف الأحداث التي دارت بينه وبين حبيبته أيام اللهو والبهجة ، وهذا النوع من الغزل قاصر على حديث الذكريات واللهو والمتعة ، والدلال والتمنع من جهة الحبيبة فيحلو للشاعر أن يذكر لنا عهده ذاك وأن يطربه فهو حديث محبب الى النفس ، لأنه ينطوي على كل مايفرح الشاعر، ويستلذ به ، فكل السبل كانت مهيأة لكي يلقى حبيبته ويسعد معها ، وكانت تبادله الحب ، وكان موقف الدهر - كما سنرى ايجابيا - يبارك تلك العلاقة ويقف في صفها على نحو مانرى عند امرىء القيس من أحداث يوم دارة جلجل يقول امرىء القيس(٨) :-

أَلا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ ... وَلاسِيَّما يَوْمٍ بِدَارَةِ جُلْجُلِ

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي ... فَيَا عَجَباً مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمَّلِ

فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا ... وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الْمُفَتَّلِ .

فهو يتذكر أيام لهوه ومرحه مع حبيبته وصويحباتها في يوم دارة جلجل ، عندما نزلت عنيزة ابنة عمه وأتراب لها يستحممن في بئر ماء وقد تخلين عن ملابسهن فجلس امرؤ القيس - فيما تقص الأخبار - عليها ،

---

٨) جواهر الأدب ، ٢/٣٢٠

ورفض أن يعطي أيّ واحدة منهن ملابسها الا اذا خرجت له عارية ، فرفضت الفتيات في بداية الأمر طلبه ، ثم خفن أن تفوتهن القبيلة في سيرها ، فامتثلن لأمره ، الا عنيزة فقد أبت ورفضت ثم استسلمت وفعلت مثل صاحباتها، ثم جلس امرؤ القيس يتبادل الحديث معهن ، واحتفل بانتصاره عليهن بأن ذبح لهن ناقته السمينة ، والعذارى يلهون معه ويرتمين بلحمها.

ثم ينتقل الشاعر الى النوع الأخير من الغزل ، وهو الغزل المادي الصريح ، الذي يتعرض فيه الشاعر لوصف أعضاء المرأة الجسدية وصفا صريحا شاملا ، حتى يكاد أن يعريها أمام أعيننا دون أدنى حرج ، ويتميز هذا الوصف في كثير من الأحيان بالصراحة والجرأة .

ومما يلفت النظر أن هذا الغزل قد تشابهت مواده كثيرا،واختلفت قليلا ، فأوصاف المحبوبة عند الشاعر المحب تشاركها فيها نظيراتها عند الشعراء الآخرين في أغلب الأحيان ، فهي جميلة جمالا باهرا تستبي عقل صاحبها ، وتمتلك كل عناصر الجمال التي تبهر صاحبها ، ويظل قلب صاحبها معلقا بها هائما حولها ، يصلها ان أسعفه الوصل ، وان لم يسعفه يتبع سبيل الحيلة ليصل الى مرامه ، وكيف لا وهى بيضاء مشرقة وضّاءة ، لها خد أسيل بض ، وعين جميلة تشبه عين بقرة وحشية مطفل في نظراتها الحانية العطوف ، ولها رقبة مثل جيد الرئم في طولها ، وقوامها معتدل ، وتمتلىء فى المواضع التي يحسن فيها الامتلاء كالأرداف والسيقان ، ويبدو لحمها خفيفا في المواضع التي يستحب فيها ذلك ، ولها شعر أسود ، ورائحة عطرية ، وثغر

يكشف عن أسنان ناصعة ... الخ .

وقد يشير الشاعر الى مكانتها الاجتماعية ، فان فعل فهي امرأة تنتمي الى وسط اجتماعى رفيع ، منعّمة شريفة نوءوم الضحى ، لاتعرّض نفسها للشمس في الضحى فلها من يخدمها ، لذلك فهي بيضاء اللون ، وكذلك تبدو أصابعها لينة طرية مستديرة لم تخشن من مزاولة العمل ، كما أنها لم تنتطق مثل بقية النساء العاملات .

غير أن الشعراء يختلفون في مقدار الأخذ بتلك الأوصاف احاطة وشمولا ، كثرة وقلة ، اطالة واختصارا ، اجمالا أو تفصيلا ولكنهم بالتأكيد يلتقون عدد مجموعة من الأوصاف الحسية .فبعضهم يفتنه الثغر ومابه من أسنان ناصعة ، وبعضهم يستهويه الثدي ، وبعضهم يستثيره امتلاء الأرداف ، وآخرين يستبيهم الشعر الطويل ... الخ ، وأمثلة ذلك الغزل كثيرة نجدها عند امرىء القيس والنابغة وعنترة وغيرهم من الشعراء .

فيقول امروء القيس[٩] :-

هَصَرْتُ بِفَوْدَيْ رَأْسِهَا فَتَمَايَلَتْ ... عَلَيَّ هَضِيْمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[١]

مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ ... تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ[٢]

---

٩) جواهر الأدب ، ٢ : ٣٤ - ٣٥ .

١- فودي رأسها : جانبى الرأس . هضيم الكشح : دقيقة الخصر . ريا المخلخل : ممتلئة الساق .

٢- مهفهفة : ضامرة البطن . ترائبها : موضع القلادة من الصدر . كالسجنجل : كالمرآة .

كَبِكْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ ... غَذَاهَا نَمِيْرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ[1]

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيْلٍ وَتَتَّقِي ... بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ

وَجِيْدٍ كَجِيْدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ ... إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ

وَفَرْعٍ يَزِيْنُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ ... أَثِيْثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ[2]

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَى ... تَظَلُّ الْمَدَارَى فِيْ مُثَنًّى وَمُرْسَلِ[3]

وَكَشْحٍ لَطِيْفٍ كَالْجَدِيْلِ مُخَصَّرٍ ... وَسَاقٍ كَأُنْبُوبِ السَّقِيِّ الْمُذَلَّلِ

وَيُضْحِي فَتِيْتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا ... نَؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ[4]

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كَأَنَّهُ ... أَسَارِيْعُ ظَبْيٍ أَوْ مَسَاوِيْكُ إِسْحَلِ

تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا ... مَنَارَةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ

ومن خلال قراءة الأبيات السابقة ، تتضح لنا الصفات الجمالية المطلوبة في المرأة ، حسب ما أشاد بها الجاهليون ، فهي بيضاء مشرقة ، وجهها أملس حسن وضاء ، ممتلئة الأرداف والساقين ، ونحيفة الخصر ، وصدرها صقيل كأنه المرآة ، ولها شعر أسود كثيف يشبه عذق النخلة ، وعنقها يشبه رقبة الريم ، ولها نظرة موءثرة تشبه نظرة البقرة الوحشية الحانية على طفلها ، ولها أصابع ناعمة ليّنة كالمساويك في استدارتها ، وهي سيدة منعمة تنتمي

١- المقاناة : الخلط أي أن بياضها تشوبه صفرة كالبيضة .

٢- فرع : شعر

٣- غدائره : خصلات الشعر . مستشزرات : مرتفعات . المدارس : الأمشاط

٤- لم تنتطق : أي لم تخرم بالنطاق .

الى مستوى اجتماعى رفيع ، حيث ان فراشها تنبعث منه رائحة المسك ، ولها من يخدمها بدليل أنها لاتصحو مبكرة ، بل تنام الى ساعة الضحى ، ولاتلبس النطاق للعمل .

ويغلب على غزل امرىء القيس وغيره من الجاهليين ، بعض الخصائص التي يمكننا تلخيصها :-

١- التفصيل :- ولعل امرىء القيس كان مثالا واضحا لهذا التفصيل (١٠) ، فانه يقف عند كل هذه المفاتن، فيصف قوام صاحبته ، ولونها ، وخدها ، ونظرتها ، وجيدها ، وشعرها ، وغدائرها ، ومداريها ، ويصف كشحها ، وساقها ، وأناملها ، واشراق وجهها ، وترف عيشها .

ان تفصيله مركز يعرض لصفات صاحبته الواحدة تلو الأخرى ،دون اطالة في الجزئيات ، بل يكتفي بأن يعرض لنا الشيء واعطاء صفة من صفاته ، أوتشبيهه بصورة أو اثنتين على الأكثر .

٢- الكثرة :- ومما يشد انتباهنا في غزله كثرة النساء اللائي تعرض لهن وتنوع علاقاته معهن ، فلم يكن حبه لامرأة واحدة ، مثل غيره من الناس أو مثل نظرائه من الشعراء ، الذين يحبون امرأة ويتعلقون بها ، ويقدمون لنا أوصافها ، أو يرسمونها كنموذج جمالى .. بل انه في معلقته فقط يتحدث عن

---

١٠) انظر ، تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ، ١٧٦ - ١٧٧ .

مجموعة من النساء ذوات سلوك مختلف ، فمنهن أم الحويرث وأم الربـــاب والعذارى اللاهيات ، وابنة عمه عنيزة ، والحبلى ,والمرضع ، وفاطمة ،والمرأة الكريمة التي حرص على أن تكون ممنعة في قومها ذات مكانة اجتماعية رفيعة، تلك التي أفاض في وصفها جسديا ، وتطرق اليها اجتماعيا ، وأجمل مالديها من قوة تأثير على نفسية الرجال ، حتى أن الانسان العاقل اذا مارآهـــا عاودته الصبابة ، وأدام النظر اليها ، ولكن أعقب ذلك بقوله ان جميـــع الرجال قد تخلّصوا مما بهم من عماية وصبابة ، ولكنه لايستطيع أن يتخلص من هواها . واذا عدنا الى ديوانه(١١) فسيدهشنا كثرة علاقاته النسائية ، اذ يبلغ عددهن اثنين وعشرين اسما ، تكررت تسعا وأربعين مرة ، وسواء قلنـــا أن بعض النساء يحملن أكثر من اسم ، أو أكثر من كنية ، أو قلنا بغير ذلك فسوف تظل الكثرة قائمة لاشك فيها ، تدل على وجود علاقة خصبة متنوعة أنتجت هذا الكم الشعري ، وهيأت له وضعا خاصا في الديوان .

٣- الجرأة :- ومما يميّز غزله تلك الجرأة التي تطل علينا مـــن خلال شعره ، فلم يكتف بوصف جمال صاحبته باعتدال أو اقتصاد ، بل لجأ الى وصف خدها وشعرها وخصرها ويدها .. وجاوز ذلك فوصف خلوته بصاحبته ، بـــل وتجرأ في شعره أن يدخل على المحارم ، كما في حديثه عن المرأة المرضع :-

---

١١) انظر ، د. محمد عبدالمطلب ، قراءة ثانية في معلقة امرىء القيـــس، ١٠٢ - ١٠٣.

فيقول امروء القيس (١٢) :-

فمثلكِ حُبلى قد طَرقتُ ومُرضِعٍ ... فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحوِّلِ

اذا ما بكى من خلفِها انصرفتْ لهُ ... بشقٍ وتحتي شقُّها لم يُحوَّلِ

. . . .

تقولُ وقد مالَ الغبيطُ بنا معاً ... عقرتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانزلِ

فقلتُ لها سيري وأرخي زمامَهُ ... ولاتُبعديني من جَناكِ المُعلَّلِ

. . . .

وبيضةِ خدرٍ لايُرامُ خباؤها ... تمتَّعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعجلِ

.....

فجئتُ وقد نضتْ لنومٍ ثيابَها ... لدى السترِ إلا لبسةَ المُتفضِّلِ

.....

فقالتْ يمينَ اللهِ مالكَ حيلةٌ ... وما إنْ أرى عنكَ الغوايةَ تنجلي

هصرتُ بفودَي رأسِها فتمايلتْ ... عليَّ هضيمَ الكشحِ ريَّا المُخلخلِ .

فهوءلاء الشعراء الجاهليون اذن لم يقفوا عند هذه المظاهر الخارجية القريبة من صور أحبتهم ولكنهم تجاوزوها ، ومن هنا كان لنا أن نصف هذا النوع من الغزل بأنه جريء - وقد يكون مفهوم الجرأة مختلفا بين جيل من الناس وجيل ، وبين عهد من الزمان وعهد ، ولكننا حين نقايس بين هوءلاء الشعراء أنفسهم ندرك في وضوح أنه كانت هناك حدود اجتماعية تواضع عليها الناس كما تواضع عليها الشعراء ،حدود كان بعضهم يلتزمها وكان بعضهم الآخر يتجاوزها (١٣)

---

١٢) جواهر الأدب ، ٢ : ٣٢ - ٣٤.

١٣) تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ، : ١٧٤.

ويتضح لنا على هذا النحو أن الغزل جزء رئيسي في بناء القصيدة القديمة ، مثل غيره من الأغراض الأخرى ، ومعنى ذلك أنه يدخل في بناء القصيدة ، ولايصح تفسيره أو فهمه فهما دقيقا بمعزل عن البناء المتكامل.

- وأن الغزل الجاهلي أشبه بالصنعة التي يجيدها صاحبها ويتقنها ، أكثر منها احساسا نابعا من نفس صاحبه ، فليس من المعقول أن تتشابه المحبوبات في الصفات الجمالية كل هذا التشابه ، فكل محبوبة بيضاء مشرقة لها عينان جميلتان أشبه بعين البقرة الوحشية المطفل ، وجيد أشبه بالريم ، وخد أسيل ، ممتلئة الأرداف ، وضامرة الخصر ، ولها شعر أسود كثيف كعذق النخلة ، تفوح منها الروائح الطيبة(١٤). وتفسير ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يكن يقصد امرأة بعينها ، بل كان يصف المرأة المثال المعبود ، التي تتوافر فيها صفات الخصوبة الجنسية التي توءدي الى الأمومة التي هي الوظيفة الأساسية لالهة الأم ، واهبة الحياة ، وضامنة استمرار النوع ، فهو يركز على تصوير الأعضاء الأنثوية التي توءدى وظيفة الخصوبة ، تاركا الوجه بلا ملامح محددة اذ يربطه بالشمس مباشرة ، اذ أن الشمس كانت أظهر مافي حياة الصحراء لذلك خلع عليها العرب القدماء صفة الأمومة ، فاعتبروها الربة والالهة الأم ، ولعل هذا هو مايفسر سر تأنيث الشمس في اللغة العربية على عكس اللغات الأخرى . لذافقد كان العرب يحبون مثل هذه المرأة الولود وكان هذا من بواعث

---

١٤) انظر ، د. علي البطل ، الصورة الفنية في الشعر العربي ، دار الأندلس، : ٥٥ - ٧٧. وبين القديم والجديد : ٦٣.

ايثارهم للشابة البكر ، لأنهم كانوا يفرحون بكثرة الأولاد - ولاسيما الذكور - ويعتزون بهم ويكاثرون ، وهم طالما خايلوا بكثرة عددهم ، وعيّروا بقلته لأن حياتهم القبلية تعتمد على العصبية والنصرة والحروب التي تنشب لأتفه الأسباب ، وفي كثرة العدد عز ومنعة ، وفي قلته ضعف واستكانة ، لذلك كانت القبلية تهنأ وتقيم العرس لثلاث غلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج فيقول عمرو بن كلثوم(١٥) :-

مَلأْنَا البَرَّ حَتَى ضَاقَ عَنَّا ... وَظَهْرُ البحرِ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا .

- الشاعر الجاهلي لم يصف في المرأة الا جمالها الشكلي أي جمال الخلقة ، فاهتم بوصفها ماديا ، لكنه لم يلتفت الى جمال خلقها الا في حالات نادرة ، ولم يسترعه ذلك الجمال ، ولم يحظ باهتمامه ، وهذا مايؤكد ماأشرنا اليه من أنه يركز على صفات الخصوبة في المرأة .

وكما قلنا فقد كان الغزل في القصيدة الجاهلية جزءا من بنائها الشكلي والموضوعي ، بمعنى أن الشعراء ، في أكثر الأحوال ، كانوا يوظفون هذا الغزل للتعبير عن قضايا ومواقف يتخذون من فن الغزل وسيلة الى نقلها ولبيان ذلك سنقف هنا عند نماذج من شعر ثلاثة من الشعراء الجاهليين لعب الغزل في أشعارهم دورا مهما هم ، امرؤ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة بن شداد .

---

١٥) د. أحمد محمد الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، دار القلم بيروت لبنان : ١٥٦.

فأما امروء القيس فقد اتخذ من الغزل في معلقته وسيلة الى التعبير عن مواقفه من الحياة من حوله ، فقد كان يواجه بعد مقتل أبيه ، ظروفا معبة تتصل بأخذ ثأر أبيه من قتلته ، ومن ثم فقد جاء الغزل في مقدمة معلقته رمزا عن هذه الرغبة ، التي تعيش في وجدانه وتجسيدا لحلمه في النصر ، ونستطيع على هذا الأساس تفسير الصور الغزلية المختلفة التي يظهر فيها امروء القيس - كما رأيناه فيما ذكرناه من نماذج - منتصرا على صاحبته دائما ، فهو يقول مصورا قدرته على لقاء المرأة التي يحبها على الرغم من الظروف التي تحول بينه وبينها فيقول(١٦) :

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لايُرَامُ خِبَاؤُهَا ... تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيرَ مُعْجَلِ

تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا ... علىّ حراصا لو يسرّون مقتلي

اذا ما الثُّرَيَا فِي السماءِ تَعَرَّضَتْ ... تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ الوِشَاحِ المُفَصَّلِ

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا ... لَدَى السِّتْرِ إلا لبسةَ المُتَفَضِّلِ

فقالتْ يَمِيْنَ اللّهِ مَالَكَ حِيْلَةٌ ... وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ الغَوَايَةَ تَنْجَلِي

خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا ... علىّ أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحيِّ وانْتَحَتْ ... بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

---

١٦) جواهر الأدب ، ٢ : ٢٤.

ومن الواضح أن الشاعر في هذه الأبيات معني بأمر واحد ، هو تأكيد قدرته على لقاء صاحبته ، وتخطي الأحراس اليها ، أكثر من عنايته بتصوير علاقته بها ، وحتى حين أخذ في وصف ماوقع بينهما ، أخرجه في صورة تفصح عن غرضه في تأكيد مقدرته على لقائها ، وقد رسم لها صورة خاصة بدت فيها متمنعة عليه ، ولكنها لم تلبث أن خضعت وخرجت تجر ذيل مرطها على أثريهما تأمينا للقائهما وتضليلا لحراسها .

(١٧)

وكما كان امرؤ القيس يوظف الغزل هذا التوظيف النفسي ، فقد كان زهير بن أبي سلمى يحرص على أن يقيم صلة وثيقة بين الغزل وموضوع القصيدة ، ويظهر ذلك بوضوح في معلقته التي قيلت في مناسبة بعينها هي اصلاح مابين عبس وذبيان ، وايقاف الحرب الطويلة بينهما .

(١٨)

فقد قال زهير بن أبي سلمى :-

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ [١]

دِيَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا ... مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ [٢]

---

١٧) بين القديم والجديد : ١٠٩.

١٨) جواهر الأدب ، ٢ : ٤٧ - ٤٨.

١- أم أوفى : امرأة زهير. دمنة : الأثر. حومانة الدراج والمتثلم : موضعان .

٢- الرقمتان : اسم مكان .مراجع الوشم : خطوطه .نواشر معصم : عروقه .

بِهَا الْعِينُ وَالآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلاَؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثِمِ

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

أَثَافِيَّ سُفْعًا فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْيًا كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ[1]

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا ... أَلاَ انْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

.....

سَعَى سَاعِيًا غَيْظُ بْنُ مُرَّةَ بَعْدَمَا ... تَبَزَّلَ مَابَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالدَّمِ

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ ... رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ

يَمِينًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيمٍ وَمُبْرَمِ[2]

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا ... تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمِ[3]

وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعًا ... بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الأَمْرِ نَسْلَمِ

فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ ... بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ[4]

عَظِيمَيْنِ فِي عُلْيَا مَعَدٍّ هُدِيتُمَا ... وَمَنْ يَسْتَبِحْ كَنْزًا مِنَ الْمَجْدِ يَعْظُمِ

وَأَصْبَحَ يُحْدِي فِيهِمُ مِنْ تِلاَدِكُمْ ... مَغَانِمَ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنَّمِ[5]

ولأنه نظم معلقته تلك لتأكيد حاجة قومه للسلام ، فقد أخذ يقبح الحرب

١- الأثافي : الحجارة توضع عليها القدر. سفع : سود. معرس المرجل: الموضع الذى يكون فيه النوءي : مايحفرحول الخيام لمنع السيل.

٢- السحيل : الخيط المفرد. المبرم: المفتول كناية عن الشدة والرخاء.

٣- منشم: امرأة تبيع عطرا. فاذا حاربوا اشتروا منها كافورا لموتاهم

٤ - العقوق : قطيعة الرحم. والمأثم: الاثم وهو العدوان.

٥ - يحدي : يساق . افال : جمع أفيل وهو الفيصل . مزنم : معلم.

وماتجره من ويلات قائلا(١٩):

وَما الحَرْبُ إلّا ماعَلِمْتُم وَذُقْتُمُ ... وَماهُوَ عَنْها بِالحَدِيْثِ المُرَجَّمِ

متىْ تَبْعَثُوها تَبْعَثُوها ذَمِيْمَةً ... وَتَضْرَى إذا ضَرَّيْتُمُوْها فَتَضْرَمِ

فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرحى بِثِفالِها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

فَتَنْتِجْ لَكُمْ غِلمانُ أشْأَمَ كُلِّهِم ... كَأَحْمَرِ عادٍ ثمَّ تُرْضِعْ فَتُفْطِمِ

فتغلل لَكُمْ مَالايُغِلُّ لأهْلِها ... قُرًى بالعراقِ مِنْ قَفِيْرٍ ودِرْهَمِ .

وقد تناثر غزل عنترة في عبلة في قصائد الحرب التي كان يقولها مصورا بطولاته في المعارك المختلفة ، وقارىء هذا الغزل يلاحظ أن الشاعر يشتق صوره في وصف جمال عبلة من عناصر الصور التي يصور بها الحرب،ونستطيع أن نتبين ذلك من خلال هذه الأبيات التي يقولها في معلقته (٢٠).-

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ والرِماحُ نَواهِلٌ ... مِنّي وَبِيْضُ الهندِ تَقْطُرُ مِنْ دمي

فَوَدَدْتُ تَقْبِيلَ السيوفِ لأنّها ... لَمَعَتْ كَبارِقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ

ياشاةُ مَاقَنَصٌ لِمَنْ حَلّتْ لَهُ ... حُرِمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَها لم تُحْرَمِ

---

١٩) نفسه ، ٢ : ٤٩ .

٢٠) نفسه ، : ٥٨ .

١ - الشاة هنا المرأة ، وهو يعني جارته فهي في حماه ومحرمة كالأم والأخت.

فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقُلْتُ لَهَا اذهَبِي فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِي واعْلَمِـــي

قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الأَعَادِي غِـــرَّةً والشاةُ مُمْكِنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَـــمِ

وكأَنَّمَا الْتَفَتَتْ بِجِيدِ جَدَايَـــةٍ رَشَاءٍ مِنَ الغِزلانِ حُرٍّ أَرْثَـــمِ[1]

فهو يقدم نفسه لعبلة فارسا كريما عفا ، مثل غيره من أبنـــاء الأمراء من قبيلته ، ومن هنا تمتزج صورة عبلة بصورة السيف والرمـــح ، ويصبح جمالها جزءا من جمال السيف أو بريقه على حد قوله ،وهو مايؤكـــد أن الغزل في عبلة لم يكن غزلا في امرأة لجمالها ، وان كان وسيلة يوظفها عنترة للحديث عن نفسه ووصف انتصاراته ، وتسجيل مروءته . وفى اختصـــار وسيلة لتقديم نفسه الى الطبقة العليا من قبيلته رغبة في الالتحاق بهـــا، والانعتاق من أسر العبودية فيقول(٢١) :-

هَلا سَأَلْتِ الخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَـــمِ[1]

إِذْ لا أَزَالُ عَلَى رِحَالَـــةِ سَابِحٍ نَهْدٍ تَعَاوَرَهُ الكُمَـــاةُ مُكَلَّـــمِ[2]

١- الجيد العنق ، والجدايه الطبية أتى عليها خمسة أشهر أوستـــة . والرشأ : الغزال الصغير .

٢١) نفسه ، ٢ : ٥٧ .

٢- تعاوره : يطعنه ذا مرة وذاك أخرى . الكماة : الشجعان : مكلم : مجروح .

طوراً يُعَرِّض للطِّعَان وتـــــارةً يأوي إلى حَصْدِ القسى عَرمْـــرمِ[١]

يُخبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقَائِعَ أنَّنـــى أغْشَى الوَغَى وأعِفُّ عندَ المَغْنَـم

فأرَى مَغَانِمَ لَوْ أشاءُ حويتُهـــا فيُصُدُّنى عَنْها الحَيَا وتَكرُّمـــى .

.....

ومع هذا النحو يتضح لنا أن الغزل في مقدمات القصائد لم يكن مجرد تقليد فنى ، ولكن كان مثل غيره من موضوعات القصيدة القديمة ، وسيلـــة فنية يعبر الشاعر من خلالها عن مواقف ومشكلات كانت توءرقه ، ولو أتيح لنا مراجعة الشعر الجاهلى لوجدنا سيلا من هذا الغزل في مقدمات القصائـــد ، بل لوجدنا قصائد مكتملة تنحو هذا المنحى الفني ، من ذلك على سبيـــل التمثيل ، قصيدة الحادرة التي يخلصها جميعا للحديث عن سمية ورحيلهـــا وغضبها على الشاعر وقومه. وهي قصيدة رمزية متكاملة ، يتحدث فيها الشاعر الى الهة الخصب ، ويلومها على مافعلته بقومه فيقول(٢٢) :-

بكرتْ سُمَيّةُ غُدوةً فَتَمَتَّـــع وَغَدَتْ غُدُوَّ مُفَارِقٍ لِمْ يَرْبَـــع

١- الحصد : الكثير المحكم . والقسي : جمع قوس . والعرمرم : الشديد وقيل الكثير .

٢٢) بين القديم والجديد ، ٦٥ - ٦٦.

وتَزَوَدَتْ عَيْنَىْ غَداةَ لقِيْتُهَـــا ... بِلوَى عُنَيْزَةَ نَظْرَةً لَمْ تَنْقَـعِ

وتَصَدَّفَتْ حَتَى اسْتَبَتْكَ بِوَاضِـــحٍ ... صَلْتٍ كَمُنْتَصَبِ الغَزَالِ الأَتْلَـعِ

وبِمُقْلَتَي حَوْرَاءَ تَحْسَبُ طَرْفَهَـــا ... وَسْنَانَ حُرَّةِ مُسْتَهَلِ الأَدْمُـــعِ

واذا تُنَازِعُكَ الحَدِيثَ رَأَيْتَهَـــا ... حَسَنًا تَبَسُّمَهَا لَذِيْذَ المَكْـــرَعِ

كَفَرِيْضِ سَارِيَةٍ أَدَرَّتْهُ الصَّبَـــا ... مِنْ مَاءِ اسْجَرَ لَمِّعِ المُسْتَنْقَـعِ

لَعِبَ السَّيولُ بِهِ فَأَصْبَحَ مَـــاوُهُ ... غَلَلاً تَقَطَّعُ في أُصُولِ الخُـــرْوَعِ

فَسُمَيَّ وَيْحَكِ هلْ سَمِعْتِ بِغُـــدْرَةٍ ... رُفِعَ اللِّوَاءُ بِهَا لَنَا في مَجْمَعِ

انَّا نَعِفُ فَلَا نُرِيْبُ حَلِيفَنَـــا ... وَنَكُفُّ شُحَّ نُفُوسِنَا فِيْ المَطْمَـعِ

وَنَقِي بِآمنِ مَالِنَا أَحْسَابِنَـــا ... وَنَجُرُّ فِيْ الهَيْجَا الرِمَاحَ وَنَدَّعِي

ونخوضُ غَمْرَةَ كُلِ كَرِيْهَـــةٍ ... تُرْدِي النُفُوسَ وَغُنْمُهَا لِلأَشْجَـعِ
وَنُقِيْمُ في دارِنا الحِفَاظَ بِيُوتَنَـا ... زَمَنًا وَيَظْعَنُ غَيْرُنَا لِلأَمْـــرَعِ
بِسَلِيْلِ ثغرٍ لايسَـــرَّحُ أَهْلُـــهُ ... سَقِمٍ يُشَارُ لِقَاوُهُ بِالأَصْبُـــعِ

فَسُمَيَّ وَيْحَكِ هلْ سَمِعْتِ بِفِتْيَـــةٍ ... غَادَيْتِ لَذَّتَهم بِأَدكَنَ مُتْـــرَعِ

مُحْمَرَّةٍ عَقِبَ الصبوحِ عُيُونُهُـــم ... بِمَرِيءٍ هُنَاكَ مِن الحياةِ وَمَسْمَـعِ

مُتَبَطِّحِينَ عَلَى الكَنِيْفِ كَأَنَّهُـــمْ ... يَبْكُونَ حولَ جَنَازَةٍ لَمْ تُرْفَـــعِ

بَكَرُوا علَيَّ بِسُحْرَةٍ فَصَبَحْتُهُـــم ... من عَانِقٍ كَدَمِ الذَّبِيْحِ مُشَعْشَـــعِ

وَمُعَرَّضٍ تَغْلِي المراجِلُ تَحْتَـــهُ ... عَجِلَتْ طَبْخَتَهُ لِرَهْطٍ جُـــوَّعِ

ولدىّ أشعث باذلٌ ليمينه ... قسماً لقد أنضجت لم يتورع

ومسهدين من الكلال بعثتهم ... بعد الرقاد إلى سواهم ظلع

أودى السفار بها فتخالها ... هيماً مقطعة حبال الأذرع

ومطية حملت رحل مطية ... حرج تنم عن العشار بدعدع

(٢٣)

وقد بدأ الشاعر القصيدة بالغزل في سميّة ، التي رحلت مبكرة وتركته وحده ، وقد حرص في هذا الفصل على آن يصف جمالها مركزا على عذوبة ريقها الذي يبالغ في وصفه حين يجمع بينه وبين المطر ، الذي يروي الزرع . ثم ينتقل الشاعر الى سوءال سميّة هذه عما أخطأ فيه قومه الذين أجدبت أرضهم وهزلت دوابهم ، وغاضت مياههم ، واضطروا الى الرحيل بحثا عن المرعى والماء دون جدوى .

وهو يقول لسميّة هذه ان قومه لم يفعلوا شيئا يوجب عقابهم ، فهم يريد أن يقول لها ان هوءلاء القوم لم يرتكبوا ذنبا ، وان ماوقع لهم لايستحقونه .

---

٢٣) راجع تحليل القصيدة للدكتور ابراهيم عبد الرحمن محمد ، بين القديم والجديد : ٦٦ - ٦٨ .

وفي القسم الأخير من القصيدة ، يشدد الشاعر من لومه لسمية بما يجعلها تظهر وكأنها المسئولة عن هذا الذي حدث لقومه . ومخاطبته لها على هذا النحو تجعلنا نفكر في سميّة تفكيرا آخر ، فلسنا أمام محبوبة مثل غيرها من النساء ولكننا أمام الهة هي من غير الهة الخصب التي كان يتعبد لها الجاهليون وغيرهم من الشعوب الوثنية في هذا الطور.

وخلاصة ماننتهي اليه أن المرأة في الشعر الجاهلي ، قد لعبت دورا مهما في الرمز الى مواقف والى قضايا كان يعايشها الشاعر الجاهلي، وان هذا التراث قد أثر كما سوف نرى في شعراء العصرين الاسلامي والأموي ، فمن المعروف ان الشعر الجاهلي ظل عميق التأثير على شعراء العصور الاسلامية التالية .

.. .. ..

(٣) الغزل في الشعر الاسلامي

واذا كان الغزل - كما قدمنا - في الشعر الجاهلي يعتبر جزءا رئيسيا مهما في بناء القصيدة ، ولاتستقيم القصيدة بدونه ، ويجري فيها مجرى التقليد الملزم ، ويستغله الشعراء للتعبير عن مواقف وقضايا كانت تشغلهم ، وان كانت قد اختلفت في العصر الاسلامى والأموي ، فان وظيفته الرمزية قد نمت وتطوّرت على أيدي الشعراء الاسلاميين ، ويأتي في القصائد على شكلين :-

الأول :- غزل تقليدي موروث من الشعر القديم ، يتمثل في بداية القصائد ، ويلتزمه الشاعر الاسلامى ، على نحو ماكان يلتزمه الشاعر الجاهلي ، من حيث الشكل فقط ، ولكن يخالفه من حيث الرمز والدلالة ، ثم ينتقل بعد ذلك الى الغرض الأساسى من القصيدة سواء أكان مدحا أو فخرا أو هجاء أو غيرها من الأغراض الشعرية ، ونجد مثل هذا الغزل في مقدمات كعب بن زهير وحسان ابن ثابت ، ثم بعد ذلك عند جرير والأخطل والفرزدق .

ومن أمثلة الغزل الاسلامى ماجاء في قصيدة كعب بن زهير - بانت سعاد - مادحا فيها الرسول (ص) ، معتذرا اليه طالبا عفوه فيقول[٢٤] :-

---

٢٤) جواهر الأدب : ٢ : ١٣٥ - ١٣٦ .

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبي اليَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ فيْ إِثْرِها لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ[1]

وَماسُعادُ غَداةَ البَيْنِ إِذْ بَرَزَتْ إِلا أَغَنُّ غَضِيْضُ الطرف مكحول[2]

تَجْلُو عَوارِضَ ذِيْ ظَلْمٍ إِذا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مَنْهَلٌ بالرّاحِ مَعْلُولُ[3]

شُجَّتْ بِذِيْ شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مَشْمُولُ[4]

.....

ويلُ أُمِّها خُلَّةً لَوْ أَنَّها صَدَقَتْ بِوَعْدِهَا ولَوْ أَنَّ النّصحَ مَقْبُولُ[5]

.....

فَمَا تَقُومُ عَلَىْ حَالٍ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلَوَّنُ فِيْ أَثْوَابِها الغُولُ

ولاتَمَسَّكُ بِالعَهْدِ الذِيْ زَعَمَتْ إِلا كَمَا يُمْسِكُ المَاءَ الغَرَابِيلُ.

فقد بدأ قصيدته بدءا تقليديا بالغزل على نهج الجاهليين من حيث الشكل ، فتغزل بامرأة سمّاها سعاد ، وبين أن قلبه معلق بحبها، رغم مابدر منها من غدر واخلاف ، وعدم تمسك بالعهد ، فهي تتلون كما تتلون الغول ، وغزله بسعاد ، لايقصد فيه الى الغزل بذاته ، ولكنه يوظفه شأن غيره من الشعراء للتعبير عن مواقف معينة نستطيع تحديدها في هذه القصيدة في أمرين

١- بانت : فارقت . متبول : أصابه السقم من أثر الحب . مكبول : مقيد.

٢- الأغن : الغزال الذي فيه صوت نغم جميل . غضيض الطرف : يغض بصره وهو من أوصاف الجمال فى المرأة.

٣- تجلو : تكشف . عوارض : أي الاسنان . ذي ظلم : شعر ذو ماء واسنان ناصعة.

٤- شجت : امتزجت بالماء . بذي شبم : أي ماء كالبرد . محنية : منعطف الوادى الذي يتجمع فيه الماء الصافى .

٥- خلة : صديقة.

نوع آخر ، وهو أن يصادفه أثناء رحلته أحد المسلمين ، ويقتله قبل أن يبلغ الرسول (ص) ، ويقدم اعتذاره وتوبته بين يديه فيقول(٢٦) :

أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُبَلِّغُهَا ... إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَاسِيلُ[1]

تَسْعَى الْغُوَاةُ جَنَابَيْهَا وَقَوْلُهُمُ ... يَا ابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ[2]

كما أن الأصدقاء في تلك القصيدة ، يحتلون وضعا مغايرا للأصدقاء في القصيدة الجاهلية ، فأصدقاء امرىء القيس مثلا ، يحبونه ويلزمونه في ذهابه وايابه ، ووقوفه على أطلاله ، وبكائه على حبيبته الراحلة ،ويدعونه الى التجمل بالصبر والسلوان مثل قوله (٢٧) :-

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

أما أصدقاء كعب فقد تخلوا عنه ، ولم يلزموه ، وماكان لهم أن يفعلوا ذلك وقد أهدر الرسول (ص) دمه .

وبذلك يتضح لنا توظيف الشاعر للغزل من خلال صورة معينة يرسمها

---

٢٦) نفسه : ٩٩.

١- العتاق : الأصيلة . النجيبات : القوية النشطة . المراسيل: النوق السهلة المريحة .

٢- الغواة : الضالون يعني الشامتين فيه .وجنابيها : حولها يعني ناقته .

٢٧) جواهر الأدب ، ٢ : ٣١.

اما أن يكون رمزا لتحقيق أمنيّة في عفو الرسول (ص) عنه - وهو يشخص هذا من خلال وصف جمالها ، واضفاء صفات الخصوبة عليها المتمثلة في قوله :

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِيْ ظَلْمٍ إِذْ ابْتَسَمَتْ ... كَأَنَّهُ مَنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ ... صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مَشْمُولُ

(٢٥)

واما أن تكون رمزا عن خوفه وخيبة أمله في تحقيق هذا العفو ، الذي يتمثل من خلال تجسيده لصفات الغدر والخيانة ، والحاحه على وصف رحيلها وابتعادها عنه ، كما جاء في أبياته ، وهذا كله يصور ماكان يعاني منه الشاعر من تردد بين الخوف والرجاء ، بين الأمل واليأس ، وهي عواطف طبيعية يقع ضحية لها الذين يواجهون مثل هذه المواقف السياسية .

وقد انتقل الشاعر بعد الغزل الى وصف الناقة والرحلة على عادة القدماء ، فالرحلة الى بلد الحبيبة الجديد ، يتطلب ناقة قوية فتية نجيبة نشطة ، حتى تستطيع الوصول الى المكان المراد ، فالرحلة عنده مشوبة بالخطر، ولكنه ليس الخطر المعتاد عند الشاعر الجاهلي ، ومايتعرض له من مخاطر الصحراء من وحوش كاسرة أو جوع أو عطش ، أو لما قد يصيب الناقة من جهد واعياء ، قد يتسبب في غور عينيها ، واجهاض وليدها ، ولكنه خطر وخوف من

---

٢٥) انظر ، د. عبدالحليم حفني ، من الأدب القديم : ١٠٢

للمرأة التي يتحدث عنها ، وهي صورة كما نرى تتألف من عناصر معينة ، هي جمال المرأة الذي يغري الشاعر بمحبتها ، والحرص على التوصل اليها ، وبخل هذه المرأة وغدرها بالعهود ، ورحيلها الى مكان بعيد ، وهو مايصور الجانب السلبي في نفس الشاعر ، وهذا كله رمز عن مشاعر الخوف والقلق التي كانت تتناوبه ، ولذلك نراه يعمد الى تقوية مشاعر الأمل ، من خلال صورة لناقة قوية من شأنها أن تحمله الى صاحبته وتجمع بينهما .

وفي نهاية القصيدة انتقل الشاعر - بعد أن مهد لغرضه بالغزل - الى الاعتذار للرسول (ص) ، وبذلك تصبح القصيدة في موضوعاتها المختلفة كلا واحدا ، يعبر عن غرض واحد هو تقديم نفسه الى الرسول (ص) بمشاعره القلقة ، وآماله في العفو .

فالقصيدة اذن اسلامية من الموروث الجاهلي من الناحية الشكلية ، والصورة العامة للشعر في صدر الاسلام ، تقوم على حقيقة حضارية معروفة ، هي أن هناك بالضرورة تداخلا بين فترات التاريخ الحاسمة ، وأنه لايمكن أن يكون هناك حد فاصل بين فترة والتي تليها ، وبخاصة حين يتصل الأمر بمقومات نفسية بعيدة الغور في نفوس أصحابها ، أو بقيم فنية أصبحت تقاليد موروثة لايمكن الخلاص منها فجأة ، أو الاهتداء الى غيرها من قيم جديدة .

" لذلك كان لابد أن يظل هناك امتداد ما للشعر الجاهلي في شعر ذلك العصر على اختلاف في المظهر والدرجة ، وبخاصة اذا ذكرنا أن الشعر الجاهلي كان قد تحقق له من النضج في الشكل واللغة والايقاع ودقة الاحساس ماجعل منه تراثا يجد فيه الشعراء رصيدا فخما من النماذج التي يمكن أن تستمد منها مواهبهم بعد ظهور الاسلام وماتلا ذلك من عصور"(٢٨).

الثاني :- أما النمط الثاني فهو غزل جديد ، تتمثل جدته من الناحية الشكلية في انفصال الغزل عن القصيدة ، ليصبح هو نفسه قصيدة مستقلة ، يعبر فيها الشاعر عن تجربة خاصة .

وتعتبر هذه الظاهرة أبرز ملامح الشعر في هذا العصر ، ذلك لأن العهد بالقصيدة العربية أن تتنوع أغراضها وأن تكثر فيها مناحي القول ، وأن يبدأ الشاعر مشببا ، ويتوسط واصفا ، وينتهي الى الغرض الذي يتصل بالمدح أو الفخر أو التحذير . والعهد كذلك بالشعراء أنهم يزاوجون بين الأغراض ويترددون بين الموضوعات ويطرقون هذا النحو أو ذاك من أنحاء الشعر فيتغزلون ويمدحون ، ويفخرون ويرثون ، ويكون من تأصل ذلك أن يتأثر به

---

٢٨) د. عبد القادر القط ، في الشعر الاسلامي والاموي مكتبة الشباب : ٦٧- ٦٨.

النقاد وأن يلتزموه ، وأن يجعلوا من تنوع الأغراض وتباين فنون القول بعض معاييرهم في تقدير الشاعر وتقويمه (٢٩).

وتكاد بعض القصائد تأخذ شكل القصيدة التقليدية من حيث الوقوف على الأطلال ، ووصف الرحلة ، ثم الانتقال الى الغزل باعتباره موضوع القصيدة الأصلي .

.. .. ..

---

٢٩) تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام : ٤٤٠.

٣- أشكال الغزل في الشعر الأمـــوي

قلنا في حديثنا عن الغزل في العصر الجاهلي ان الشعراء على الرغم من أنهم درجوا على ذكر الغزل في مقدمات القصائد ، بوصفه تقليدا فنيـــا ملزما ، فان هذا الغزل كان يرد في هذه القصائد بوصفه وسيلة فنية ، يرمـز بها الشعراء الى قضايا ومواقف ذاتية واجتماعية وانسانية عامة ، ممـــا يجعل لهذا الغزل وظيفة مثل غيره من أغراض القصيدة الأخرى . وقد عرضنـــا نماذج من هذا الغزل ، وأوضحنا رموزه في شعر امرىء القيس وعنترة العبسي وزهير بن أبي سلمى .

وننتقل الآن في هذا الفصل الى مرحلة جديدة من تاريخ الشعر العربي ، هي المرحلة الأموية ، وقد حقق فيها الغزل تطورا خاصا ، بفضل تغير الظروف النفسية والاجتماعية فى البيئة الحجازية خاصة.

فأما (٣٠) النفسية فترجع في جملتها الى شعور الفرد في المدينتيـــن بنفسه أكثر مما كان يشعر بها في الجاهلية ، فقد كان قديما يغنى في قبيلته ويهجو خصومها ، ويمدح ساداتها ، أما في هذا العصر فقد شعر شباب المدينتين

---

٣٠) انظر ،د. شوقى ضيف ، التطور والتجديد فى الشعر الأموي ، دار المعارف، : ٢٣٧ - ٢٣٨ .

أنهم ورثة كسرى وقيصر ، وقد صبّت في حجورهم خزائن الأرض وشعروا كأن الدنيا تدين لهم ، فتولّد بينهم شعور عميق بأنفسهم ، وكان هذا الشعور بالنفس عند شباب مكة والمدينة وما انطوى فيه من احساس الفرد بمنزلته سببا في أن تحوّل الشعر من بعض الوجوه الى الحديث عن النفس لا عن القبيلة ، فأصبح كله ، أو كاد غزلا بعد أن كان أكثره فخرا وهجاء.

وهذه العوامل النفسية كانت تقابلها عوامل اجتماعية منها هذا التحضر الذي أصاب المرأة ، ومنها جانب آخر لم نتحدث عنه حتى الآن ، مع انه كان بعيد الأثر في الغزل أصدرته الحجاز في هذا العصر ، وهو فن الغناء الذي ذاع وشاع حينئذ ، والتي تحولت من أجله مكة والمدينة الى مايشبه المسارح الكبيرة في هذه الأيام.

وبذلك ارتبط شعراء هذا اللون الغزلي بالمغنيين والمغنيات ، أوبعبارة أخرى ، ان الغزل الخالص سواء أكان غزلا صريحا أم غزلا عذريا قد غلبت عليه في العصر الأموي ، صفة المقطوعات الغنائية التي كان يقوم على تلحينها وغنائها مغنو مكة والمدينة على وجه الخصوص.

وقد حقق الغزل - كما قلنا - تطورا خاصا ، بفضل تغير الظروف

الاجتماعية والنفسية ، وتطور الحياة الحضارية تطورا كان له أثره على القصيدة القديمة ، من حيث الشكل ومضمون الأغراض التي تتألف منها ولغة القصيدة وموسيقاها ، وكان الغزل بصفة خاصة أسرع هذه الأغراض استجابة لهذا التطور ، مما أنتج ثلاثة ألوان مختلفة من شعر الغزل يمكننا تحديدها على النحو التالى : اللون الأول :- غزل من جنس الغزل القديم الذي يرد في مقدمات القصائد ، خاصة قصائد المديح والهجاء ، التي احتفظت بشكلها الفني الموروث من العصر الجاهلي . والغزل في هذا النوع من الشعر ظل محتفظا بصيغته الجاهلية ، التي رأينا نماذج لها فيما درسناه من شعر العصر الجاهلي .

ويرد هذا النوع من الغزل في شعر الشعراء المسلمين الذين كانت القصيدة بشكلها القديم لاتزال الصورة التي يلتزمون بها في أشعارهم .

واللون الثاني :- غزل انفصل عن القصيدة القديمة ، ليصبح قصيدة قائمة بذاتها ، وهو من نوعين ، أحدهما الغزل الصريح ، ونقصد بهذا المصطلح ذلك النوع من الغزل الذي أخذ الشعراء فيه يعبرون عن تجاربهم العاطفية الذاتية ، تعبيرا صريحا لايتحرجون فيه من ذكر ماكان يقع بينهم وبين المرأة التي

يتغزلون فيها ، وهو لون من الغزل قد أحدث تأثيرا واضحا في البيئة الحجازية ، واستجاب شعراؤه لكثير من التطورات الاجتماعية ، وعبروا فيه على نحو ماسوف نرى ، عن مواقف سياسية ودينية واجتماعية، وأثار مواقف متناقضة بين المؤيدين والمعارضين له .

وهذا النوع من الغزل قد أسيء فهمه من القدامى والمحدثين ، ويحتاج الى اعادة تفسيره لمعرفة الرموز التي يعبر عنها شعراؤه ، وهي رموز تجعل من هذا الغزل شكلا خاصا وتنأى به عن أن يكون مجردتعبير عن عواطف ذاتية تجرؤ على المرأة وتكشف عن أسرارها .

واللون الثالث : غزل عفيف وهو الصيغة الثانية لهذا الغزل الذي انفصل عن القصيدة ليصبح قصيدة بذاتها ، وهذا الغزل يصور تجارب عاطفية ذاتية خاصة، كما أنه يمتاز بالعفة والصدق ، والحرص على كرامة المرأة التي يتحدث عنها .

وهذا النوع من الغزل تعبير ذاتي من طرف واحد عن تجارب عاطفية حتمية الفشل ، على عكس الغزل الصريح ، ويرد في شكل مقطوعات موثقة النسبة الى شعراء معروفين ، كما يرد في شكل مقطوعات مجهولة

النسبة أحيانا ، أو على الأقل تختلط نسبتها بين عديد من الشعراء ، وعلى الرغم أن هذا النوع من الغزل مجهول القائل ، الا أنه حظي باهتمام الرواة القدماء ، الذين أقاموا حول نصوصه المختلفة قصة عاطفية محزنة تكررت في سير جميع شعراء الغزل العذري ، سنقف عندها بالتفصيل في الفصول القادمة . ولكننا نصفها هنا وصفا عاما بأنها قصة درامية غايتها الجمع بين الموت والحب ، أو بمعنى آخر الجمع بين الحب والحرمان فالموت في صيغة مركبة لاتكاد تخلو منها مقطوعة شعرية. ويظهر أن هذا الفشل المحتم في الحب ، قد جعل الرواة يخلقون له قصة ويجعلون هذه القصة تفسيرا لهذه المقطوعات الشعرية المتناثرة ، وقد كثرت مثل تلك القصص العاطفية عند القدماء(٣١) ، ومن بينهم أبو الفرج الأصبهاني الذي أثرى كتابه بنوع من القصص العاطفي ، حول الغزل الصريح والغزل العفيف ، جاعلا منه تاريخا للشعراء في العصر الأموي ، مما كان سببا في تضليل الرواة من بعده ، وتضليل الباحثين ، الذين رأوا في هذا الغزل سجلا تاريخيا لحيوات الشعراء في العصر الأموي بصفة خاصة ، وأصبح الشعر بذلك وثيقة تاريخية ، وهي نظرة مضللة حجبت الوظيفة الحقيقة لهذا الغزل بأنه وسيلة فنية ، لاغاية تاريخية ، وهو ما سوف نحاول ايضاحه ومناقشته .

---

٣١) انظر ، بين القديم والجديد ، ٧٩ ، ٩٩.

الفصل الثاني

(الغزل الصريح : رموزه وقضاياه)

الغزل الصريح : جدلية الحب والحياة

- ١ -

من يقرأ كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ، يواجه صفحات قصصية مشرقة ، تجعل من الحياة في العصر الأموي حياة لاهية ، وتجعل من شعراء الغزل أشخاصا لايهمهم الا اللحاق بالمرأة ومطاردتها حيثما توجد ، في مواسم الحج المقدسة ، وفي غيرها من المناسبات الأخرى ، وفي اختصار ان كتاب أبي الفرج الأصبهاني قد حول الغزل الى قصص عاطفية تكشف عن كثير من صور الحياة اللاهية التي لانصدق أن العصر الأموي كان يعيشها على الأقل في هذا الشكل الذي نجدها فيه في هذا الكتاب ! ويحتاج الأمر منا الى الوقوف عند هذا الكتاب وقفة مختصرة كمدخل لهذه الدراسة ، لأن الكتاب في الحقيقة مصدر أكثر الأخبار التي بين أيدينا عن شعراء الغزل الصريح والعفيف في نفس الوقت ، بل يكاد يكون مصدرا للحياة العربية الخاصة ، في العصرين الأموي والعباسي ، وسوف نقف في حديثنا عن هذا الكتاب عند موضعين :

الأول ، شخصية أبي الفرج وأثر هذه الشخصية على رواية الأخبار التي

أتى بها في كتاب الأغاني .

الثاني : طبيعة المادة التي جمعها أبو الفرج في هذا الكتاب (٣٢)

وفيما يتصل بشخصية أبي الفرج ، فتكاد تتفق الروايات القديمة على أنه كان يعاني من اضطرابه بين ولائين : - ولاوءه لبني أمية الذين كان يرجع نسبه اليهم ، وولاوءه للشيعة الذين كان يوءمن بمبادئهم ، ويأخذ نفسه برعايتها ، ومعنى ذلك أننا أمام شخصية تمزّقت بين ولائين(٣٣) ، فاذا أضفنا الى ذلك ماعرف عن أبي الفرج من استيعابه للأخبار واكثاره من نقلها أمكننا أن نتصور طبيعة هذه الأخبار التي جمعها في كتابه والتي كان يوفق بها بين هذين الولائين المتناقضين ولاوءه لنسبه وولاوءه لمذهبه ، وقد انعكس ذلك على طبيعة الأخبار التي جمعها ، فنحن نلاحظ تناقضها وتخالفها ، على الرغم من حرص أبي الفرج

---

٣٢) انظر بين القديم والجديد : ٩١ .

٣٣) يرجع نسب أبي الفرج الى بني أمية ، فهو أبو الفرج على بن الحسين

على أن ينسب هذه الأخبار الى رواتها ، وقد تجلّى ذلك بصفة خاصة ، في حديثه عن خلفاء بني أمية عامة ، وعن الوليد بن يزيد من بينهم خاصة ، وليس المجال هنا مجال مراجعة لهذه الأخبار ونقدها ، فهي موجودة في كتابه يستطيع من يريد أن يرجع اليها(٣٤).

= ابن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله ابن مروان بن محمد بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبد مناف القرشيّ الأموي . ومنه ترى أن نسبه ينتهي الى مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية . ورغم أنه من صميم بني أمية ، فانه على مذهب الشيعة ، فقد قال التنوخي عنه : ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصفهاني . وقال ابن شاكر في عيون التواريخ عنه : انه كان ظاهر التشيع . وقال ابن الأثير في كتاب الكامل : وكان أبو الفرج شيعيا وهذا من العجب .

٣٤) أبو الفرج الأصبهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، ٧ : ٢٤٤٢ - ٢٤٤٣ ، ٧ : ٢٤٨٦ ، ٧ : ٢٤٤٠ ، ٧ : ٢٥١٠ ، راجع أخباره عن الوليد بن يزيد الدالة على ضعف عقيدته الدينية والشك في ايمانه

=

فاذا أضفنا الى ذلك أن أبا الفرج خاصة وغيره من المؤلفين القدماء عامة ، يحرصون في رواية الأخبار على اخراجها فى شكل قصصي ليجعلوا منها

= وقارنها بالأخبار الأخرى التي وردت في نفس الكتاب والتي توثق عقيدته وتصحح دينه . فمن الأخبار التي تدل على ضعف عقيدته ودينه ٧ : ٢٤٨٩ دعا الوليد بن يزيد ذات ليلة بمصحف ، فلما فتحه وافقت ورقة فيها " واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم يسقى من ماء صديد " فقال : أسجعا سجعا : علقوه ، ثم أخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه ، ثم قال :

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد !

اذا لاقيت ربك يوم حشر ... فقل لله مزقنى الوليد !

ومن الروايات التي تثبت حسن عقيدته قوله ٧ : ٢٥١٠ " يابني أمية اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ، ويهدم المروءة ويثور على الخمر ويفعل مايفعل السكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا . وانى لأقول ذلك فيه على أنه أحب الى من كل لذة وأشهى الي من الماء البارد الى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال ".

حقائق تاريخية ثابتة ، استطعنا أن نتصور الى أي مدى لعب هوءلاء الرواة في اعادة صياغة الأخبار القديمة صياغة أدبية جعلت منها أخبارا جديدة ، شأنها في ذلك شأن القصص التي يبدعها الموءلفون ، والتي تقوم في أكثر تفاصيلها على الخيال .

وكان حرص أبي الفرج على تطبيق هذا الأسلوب في رواية أخبار الشعراء الجاهليين والاسلاميين والعباسيين سببا في تضخيم أخبارهم من ناحية ، واضافة تفاصيل ليست لها أصول صحيحة من ناحية أخرى ، وفي اختصار ان أبا الفرج قد حرص على أن يكتب سيرا قصصية للشعراء ، ويفسر أشعارهم تفسيرا قصصيا ينتزعه أحيانا من طبيعة هذه الأشعار نفسها ويضفى عليها من خياله أحيانا أخرى . ولذلك فان دراسة هوءلاء الشعراء من خلال ماجاء في أخبارهم في كتابه تفرض على الباحث أن يتوقف في قبول هذه الأخبار وأن يعود الى الشعر ذاته يستنطقه ويحلله تحليلا يكشف عن رموزه ومقوماته الفنية .

وكما وجد أبو الفرج الأصبهاني في شعر الغزل الصريح ، الذي كان يملأ به عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات والأحوص وغيرهم من شعراء

الحجاز ، أرجاء مكة والمدينة مادة خصبة ، فقد وجد في أشعار العذريين مادة لنوع آخر من القصص التي تعكس موقفا خاصا من الحياة ، وينبغي لفهم هذا الموضوع أن نفرد لكل اتجاه فصلا قائما بذاته .

كتب أبو الفرج عددا من التراجم لشعراء الغزل الصريح من أمثال عمر بن أبي ربيعة ، تدل مراجعتها على أنه قد استخلص من أشعارهم قصصا تصور حياة هؤلاء الشعراء ومواقفهم وصلاتهم بمن جاء ذكرهن في هذا الشعر من نساء ، وقارىء هذا الشعر يلاحظ أن تحقيق الصلة بين الرجل والمرأة كانت تغلب على أشعارهم ، فهذه الأشعار على اختلافها تصور نوعا من المغامرات العاطفية ، التي تبدو للقارىء جريئة وغريبة بعض الشيء، لأنها كما سوف نرى تعكس أنماطا غريبة للمرأة والرجل في البيئة الحجازية، وهي حرية لانعتقد أنها كانت موجودة بهذه الصورة التي يجعل منها هؤلاء الشعراء ظاهرة غالبة على البيئة الحجازية ، ولذلك يجب علينا أن نبحث عن تفسير لهذه الظاهرة الغزلية وألا ننخدع بها فنقبلها على أنها واقع حقيقي .

- ٢ -

ان القارىء الناقد لشعر الحب الصريح في العصر الأموي ، سوف يلاحظ أنه قد تنازعته ألوان مختلفة من الجدليات والمحاور الصراعية . ان هذه المحاور يلفها جميعا شعر الحب ، ولكن جدلياته تختلف عن بعضها اختلافا لافتا ، وتنتهي جدليات الصراع هذه جميعا بالنجاح الحتمي أو شبه المؤكد ، الذي ينتصر فيه الشاعر اما على الطرف الآخر في علاقة الحب (المحبوب) بنوال الوصال واغتنام اللذات معه ، أو الانتصار على المجتمع ممثلا في الوشاة والحساد والأهل الذين يقفون حائلا منيعا بين المحب (الشاعر) وبين الوصول الى من يحبها ، والشاعر يبذل جهدا كبيرا يستخدم فيه كثيرا من التحايل على هوءلاء الوشاة والأهل ، حتى يصل الى الحبيبة وينال مأربه منها .

ومن هنا فقد تمثّلت جدليات الحب والحياة في هذا الفصل في :

١- جدلية المحب / الحبيبة ، وهي جدلية تقوم على مايشبه المناوشات العاطفية ، بين حبيبة صدود هاجرة ، ومحب مدله لايستطيع الابتعاد . والحبيبة

هنا اما مقيمة مع الشاعر أو راحلة عنه ، وهو لهذا يبدي لها عبر الشعر كل مايمكن ابانته من قوة الحب والوجد ، حتى ترضى عنه وتسعى لوصله مثلما يسعى اليها . والحبيبة قد تتهمه بتوزع الولاء بين حبيباته الكثيرات .

واذا دققنا النظر في صفات الحبيبة ، في هذا النوع من الشعر الغزلي ، فسوف نرى صورتين لها ، الأولى الحبيبة المتعففة التي يغالي الشاعر في وصف صفاتها عند الحديث عنها ، مركزا في معجمه الشعري على تلك الصفات القديمة ، التي حرص الشعراء على توفيرها للمحبوبة الالهة ، من وصف مبهم للجسد وتوفير العناصر الأنثوية لها ، ووصف للشعر، وتشبيه بالشمس والكواكب ووصف للريق الذي كانوا يحرصون على التوقف عند وصفه توقفا مستغرقا ، فضلا عن وصف طيب العرف المنبعث عنها أو الآتي اليه مع النسيم عبر واديها ولو كان بعيدا . هذه المرأة الحبيبة يحوطها الشاعر بقدسية في حديثه عنها ، وهو دائم التعلق بها برما بهجرها وصدودها . وأغلب الرأي أن هذه الصورة بوصفها قالبا شكليا - لا أكثر - تعد دلالة صريحة على استمرار دور الشعر في الامتداد في أبنية القصيدة

الشعرية بعد الاسلام . ولذا فان مكانها من القصيدة هو المقدمة ،سواء سبقها الوقوف على الطلل أم لا ، كما تقل فيها السمات الحوارية والقصصية التي تطالعنا في الصورة الثانية .

والصورة الثانية ، هي الصورة المناقضة تماما للصورة الأولى وهي صورة المرأة المتبرجة ، التي تسعى سعيا للقاء بالحبيب واغتنام الفرصة للقائه ، متخذة كافة الوسائل والخدع التي تعينها على لقاء حبيبها ، فان لم يكن الأمر كذلك ، فهي على الأقل تسعى للتستر عليه، لاتصده أو تهجره ، وتدبر ماوسعها التدبير للحيل التي تمكنه من الفرار سالما بعد لقائه بها. ويغلب على شعر هذا النوع من وصف الحبيبة النزعة الدرامية ، بمعنى غلبة القص والحوار الدرامي عليها. واختلاف بنية القصيدة تبعا لذلك بشكل ما عن القصيدة السابقة ، على الأقل من ناحية الطول ومعجم اللغة ،وأيّا ما كان الرمز أو الحقيقة وراء تصوير المرأة بهذا الشكل .

٢- جدلية المحب / الواشي (الحاسد ، المبغض ، الأهل ممثلين حتى في الزوج صرامة التقاليد)، ومجرد التوقف عند هذه الجدلية بصفة خاصة يثبت لنا

كذب مزاعم كثير ممن تناولوا الشعر الأموي والاسلامي من خلال حديثهم عن الغزل ، حيث ظنوا أن المجتمع كان يتمتع بقدر من الحرية تقترب من الاباحية طبقا لتصورات الشعراء ، ذلك أن معنى وجود الوشاة والأهل بتقاليدهم الصارمة ، كما يصورهم الشعر أن التقاليد الاجتماعية وتمكن الوازع الديني من النفوس ، كان من القوة بحيث دفعت بالشعراء الى التمرد على هذه التقاليد والتحايل عليها بشتى الطرق خلاصا منها. ولعل أوضح هذه الحيل ، هي استخدام لغة العيون والاشارات المبهمة التي لايفهمها سوى المحبين ، وكذلك افتعال مواقف كراهية غير حقيقية بين المحب وحبيبته ، تضليلا للوشاة والحساد . هذا فضلا عما أورده لنا شاعر مثل عمر بن أبي ربيعة وغيره ، من مكائد وحيل ، تسبق أو تلي مغامراته النسائية الجريئة حقيقية كانت أو رمزية.

وطبقا لهذا التصور فقد كان انتصار المحب على كل معوقات علاقته تلك بمحبوبته انتصارا شبه حتمى . والملاحظ على الهيكل العام للقصيدة هنا تغليب النزعة القصصية والحوار ، واتخاذها في الغالب شكل المقطوعة التي تغنى ، فالحوار القصصي هنا ليس جزءا من مطلع طللى يماثل المطلع

الجاهلي أو الاسلامي ، الذي سار على درب ولكنه يتخذ شكل مقطوعة تغنى (٣٥) كما يورد لنا أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني . وهذا الشكل يتمثل في أقصى درجات تطوره في شعر عمر بن أبي ربيعة بصفة خاصة وبعض قصائد الأحوص والأخطل .

٣- أما الجدلية الثالثة في هذا الفصل ، فأقصد بها القصيدة التي يكرسها الشاعر للغزل فحسب ، وهي في الحقيقة نوع من الغزل السياسي والاجتماعي ، الذي يوظفه الشاعر توظيفا رمزيا ، يعبر عن علاقة عميقة بالسلطة معها ، أو ضدها ، ومواقف دينية أو اجتماعية ، ذات بعد سياسي يحتاج كشفه الى قراءة القصيدة قراءة متأنية فاحصة .

ونريد الآن أن نأخذ في دراسة كل جدلية من خلال تحليل نماذج شعرية تشخص الظاهرة في صورتها الغالبة .

---

٣٥) انظر ، د. شوقي ضيف ، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، دار الثقافة بيروت - لبنان : ١٢٠ - ١٢١ .

١- جدلية المحب / الحبيبة

وهي جدلية تقوم على علاقة عاطفية بين حبيب واله متدله ، وحبيبة تأبي الا الصدود والهجر ، وصورة المحبوبة في هذه الجدلية تتوزع بين مشهدين كما أوضحنا ، الأولى المحبة المتعففة ، والثانية هي الحبيبة التي تسعى الى الحبيب بنفسها .

وفيما يتصل بالحبيبة المتعففة ، فصورتها في القصيدة الأموية امتداد طبيعي لصورة المرأة العفيفة في الشعر الجاهلي ، التي حرص الشاعر الجاهلي على احاطتها بكثير من القدسية والاحترام ، حتى اقتربت من صورة الأنثى الالهة . وعلى الرغم من تلك القدسية القديمة الممتدة في الشعر الأموي امتدادا يتمثل في المعجم اللغوي ، وصفات المرأة ، ثم في ذلك المطلع الطللي أو الغزلي في القصيدة - غالبا - فان نتيجة تلك الجدلية المحب والحبيب ، هي انتصار الحبيب بعد الحاحه على المحبوب ونواله مايرغب أو حتى الموعد بالنوال .

يقول الأحوص[٣٦] :-

أَقْوَتْ رُوَاوَةُ مِنْ أَسْمَاءَ فَالسَّنَدُ ... فَالسَّهْبُ فَالقَاعُ مِنْ عَيْرَيْنِ فَالجُمُدُ

فَعَرْشُ خَاخٍ قِفَارٌ غَيَّرَ أَنَّ بِهِ ... رَبْعاً أَقَامَ بِهِ نُوْءِيٌّ وَمُنْتَضَدُ[٢]

.....

وَقَدْ أَرَاهَا حَدِيْثاً وَهِيَ آهِلَةٌ ... بِهَا تَوَاصَلَ ذَاكَ الجِزْعُ فَالعَقَدُ[٣]

إِذْ الهَوَى لَمْ يُغَيِّرْ شَعْبَ نِيَّتِهِ ... شَكْسُ الخَلِيْقَةِ ذو قَاذُوْرَةٍ وَحَدُ[٤]

يُظَلُّ وَجْداً وَإِنْ لَمْ أَنْوِ رُؤْيَتَهَا ... كَأَنَّهُ إِذْ يَرَانِي زَائِراً كَمِدُ[٥]

---

٣٦) شعر الأحوص الانصارى ، جمعه وحققه عادل سليمان جمال ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر : ٩١ - ٩٣ .

١- أقوت : خلت . رواة : موضع . السند : بلد في البادية . السهب : مابعد من الأرض واستوى . القاع : أرض واسعة مستوية . عيرين : جبلان : جبل بنجد .

٢- العرش : مكان يكون فيه الشجر أو النخيل . خاخ : موضع . الربع : الموضع يرتبع فيه القوم في الربيع ، منتضد : آثار

٣- الجزع : منقطع الوادى . العقد : ماتعقد من الرمل وتراكم .

٤- شعب نيته : ما اجتمع من نيته فانتواه وقصده وعزم عليه . الشكس : سيىء الخلق . الخليقة الطبيعة .

٥- الوجد : هنا الغضب . كمد : حزين .

فَيَالَهَا خُلَّةً لَو أَنَّهَا بِهَوًى ... مِنْهَا تُثِيبُكَ بِالوَجْدِ الذي تَجِدُ

قَامَتْ تُرِيكَ شَتِيتَ النَّبْتِ ذا أُشُرٍ ... كَأَنَّهُ مِنْ سَوَارِي صَيِّفٍ بَرَدُ[1]

أَهْدَى أَهِلَّتَهُ نَوْءُ السِّمَاكِ لَهَا ... حتى تَنَاهَتْ بِهِ الكُثْبَانُ والجَرَدُ[2]

وَمُقْلَتَيْ مُطْفِلٍ فَرْدٍ أَطَاعَ لَهَا ... بَقْلٌ وَمَرْدٌ ضَفَا مُكَّاؤُهُ غَرِدُ[3]

يَزِينُ لَبَّتَهَا دُرٌّ تَكَنَّفُهُ ... نُظَّامُهُ فَأَجَادُوا السَّرْدَ إِذْ سَرَدُوا

دُرٌّ وَشُذْرٌ وَيَاقُوتٌ يُفَصِّلُهُ ... كَأَنَّهُ إِذْ بَدَا جَمْرُ الغَضَا يَقِدُ

وَقَدْ عَجِبْتُ لِمَا قَالَتْ بِذِي سَلَمٍ ... وَدَمْعُهَا بِسَحِيقِ الكُحْلِ يَطَّرِدُ

قَالَتْ أَقِمْ لَا تَبِنْ مِنَّا فقلتُ لَها ... إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ مَلْعُوجًا بِيَ الكَمَدُ[4]

لَتَارِكٌ أَرْضَكُمْ مِنْ غَيْرِ مَقْلِيَةٍ ... وَزَائِرٌ أَهْلَ حُلْوَانٍ وَإِنْ بَعُدُوا

---

١ — سواري صيف : سحابة صيف .

٢ — الأهلة : دفعات المطر . النوء : النجم . الجرد : فضاء لانبات فيه .

٣ — فرد : ظبية تخلت عن القطيع . أطاع الشجر : أدرك ثمره . البقل : كل نبات اخضرت له الأرض . المرد : الغض من شجر الأراك : ضفا : طال وتم . المكاء : طائر .

٤ — لعجه الحب : استمر فى قلبه .

ويقول جرير(٣٧) :-

هل يَنْفَعَنْكَ إنْ جَرّبْتَ تجريب ... أمْ هَلْ شَبَابُكَ بَعْدَ الشّيْبِ مَطْلُوبُ

أمْ كَلّمَتْكَ بِسُلْمَانَيْنَ مَنْزِلَةٌ ... يامَنْزِلَ الحَيّ جَادَتْكَ الأَهَاضِيبُ

.....

.....

قَدْ تَيّمَ القَلْبَ حتى زَادَهُ خَبَلاً ... مَنْ لايُكَلّمُ إلا وَهْوَ مَحْجُوبُ

قَدْ كَانَ يَشْفِيكَ لَوْلَمْ يَرْضَ خَازِنُهُ ... رَاحٌ بِبَرْدِ قَرَاحِ المَاءِ مَقْطُوبُ

كأنّ فيْ الخَدِ قَرْنَ الشّمْسِ طَالِعَةً ... لَمّا دَنَا مِنْ جِمَارِ النّاسِ تَحْصِيبُ

تَمّتْ إلى حَسَبٍ مَافَوْقَهُ حَسَبٌ ... مَجْداً وَزَيّنَ ذَاكَ الحُسْنُ والطِيبُ

تَبْدُو فَتُبْدِي جَمَالاً زَانَهُ خَفَرٌ ... إذا تَزَأْزَأَتْ السُودُ العَنَاكِيبُ .

---

٣٧) شرح ديوان جرير ، مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان : ٣٤ - ٣٥.

ويقول الفرزدق(٣٨):-

لَقَدْ كُنْتُ أَحْيَاناً صَبُوراً فَهَاجَنِي ... مَشَاغِفُ بِالدَّيْرَيْنِ رُجْحُ الرَّوَادِفِ[١]

نَوَاعِمُ لَمْ يَدْرِيْنَ مَا أَهْلُ مِرْمَةٍ ... عِجَافٍ وَلَمْ يَتْبَعْنَ أَحْمَالَ قَائِفِ[٢]

وَلَمْ يَدْلِجْ لَيْلاً بِهِنَّ مُعَزِّبٌ ... شَقِيٌّ وَلَمْ يَسْمَعْنَ صَوْتَ العَوَازِفِ[٣]

إِذَا رُحْنَ فِيْ الدَّيْبَاجِ وَالخَزِّ فَوْقَهُ ... مَعاً مِثْلَ أَبْكَارِ الهِجَانِ العَلائِفِ

إِلَى مَلْعَبٍ خَالٍ لَهُنَّ بَلَغْنَهُ ... بَدَلٌ الغَوَانِيْ المُكْرَمَاتِ العَفَائِفِ

يُنَازِعْنَ مَكْنُونَ الحَدِيْثِ كَأَنَّمَا ... يُنَازِعْنَ مِسْكاً بِالأَكُفِّ الدَّوَانِفِ[٤]

.....

.....

بَنَاتُ نَعِيْمٍ زَانَهَا العَيْشُ وَالغِنَى ... يَمِلْنَ إِذَا مَا قُمْنَ مِثْلَ الأَحَاقِفِ

تَبَيَّنْ خَلِيْلِيْ هَلْ تَرَىٰ مِنْ ظَعَائِنٍ ... لِمَيَّةَ أَمْثَالِ النَّخِيْلِ المَخَارِفِ[٥]

---

٣٨) شرح ديوان الفرزدق ، ايليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ٢:٩٥-٩٦.

١- مشاغف : النساء اللواتي يشغفن القلب .

٢- القائف : من يقتفي أثر المطر والغيث .

٣- المعزب : المرتحل بابله الى المكان النائي . العوازف : الجن.

٤- الدوانف : من داف المسك اذا ذوبه بالماء ليخثر .

٥- المخارف : النخيل المثقل بالثمر.

ويعد عمر (٣٩) بن أبي ربيعة نموذجا لشعراء الغزل الصريح ، الذين يشخصون جدلية الحب والحياة بأنواعها تشخيصا موضوعيا خصبا ، يتمثل في هذا الجانب من الاقبال على التجارب العاطفية وتصويرها بطريقة تماثل الواقع الحقيقي وتشخصها .

فقد كان عمر بن أبي ربيعة يحرص على أن يبني أشعاره بناء خاصا ليجعل منها صورة مماثلة للواقع ، ويتلخص هذا البناء الخاص في جمعه

---

٣٩) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ، ويكنى عمر (أبا الخطاب)، وكان أبوه تاجرا موسرا ، له عبيد من الحبشة عددهم كثير، ويقال ان أم عمر سبيت من حضرموت ويقال من حمير ، ومن هناك أتاه الغزل ، يقال غزل يمان ودل حجازى . فقد عاش عمر ثريا مترفا مدللا من قبل أمه ، حيث كان وليدها الوحيد . وتوفي عنها أبوه وهو لايزال صبيا في الثانية عشرة من عمره ، لذلك أوقفت حياتها على تدليله والاهتمام بهيئته واظهار جماله وفتنته ، ويعتبر عمر زعيم شعراء الغزل فى العصر الأموي دون مبالغة ، وقد اقترن ذكره

=

بين عناصر مختلفة (٤٠).

الأول ، عنصر قصصي فهو يحرص في أكثر قصائده ، ان لم يكن فيها جميعا على أن يصوغ معانيه صياغة قصصية ، بحيث يخيل للقارىء، والمستمع أنه أمام قصة من قصص حياة عمر .

كما أنه ثانيا ، يحرص على أن يشيع في هذه القصيدة أو تلك لغة حوارية ، تجعل من القصة التي تدور حولها قصيدته قطعة من الحياة.

وأنه ثالثا ، يشيع في هذا الشعر نوعا من الصراع الذي تتقابل فيه المواقف والقضايا والمعاني ، وتصبح بذلك صيغة شعره المركبة

= بالغزل ، لأنه افتتن في الغزل وأبدع فيه ، وفتح فيه أبوابا لم يطرقها أحد من قبله . وغزل عمر يمثل نفسيته وتطلعاته وتطلعات مجتمعه وتمثل حياة عمر حياة الجماعة الارستقراطية في الحجاز ، بعد أن تمت الفتوحات الاسلامية للمسلمين ، وأغدقت عليهم الخير والمال الكثير ، ولزم عمر دور المغنيين والمغنيات يؤلف لهم القصائد التي يقومون على تلحينها وغنائها .
راجع أخبار د. شوقي ضيف التي تدل على اتصال عمر ببيئة المغنيين والمغنيات في التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٩.

٤٠) انظر ، بين القديم والجديد : ٩٩.

والقائمة على الجدل ، قطعة حية من أحداث الحياة ، تتحاور فيها الشخوص وتتصادم المواقف ، وتموج بالحركة والحياة موجا ، وكان لابد أن يؤدى ذلك الى تحقيق ماقصد اليه عمر بن أبى ربيعة ، وهو أن يجعل من أحداث شعره صورة مماثلة لواقع الحياة . فاذا أضفنا الى ذلك حرص عمر ، على أن تتميز لغته من لغة الحديث اليومية ، وان ينثر في أشعاره معاني وأفكارا مما يقع في الحياة العادية ، وجدنا أنفسنا آخر الأمر أمام قصص مقنع بواقعيته ، وجدل متجدد مع أحداث الحياة . ولعل هذا هو ماأحس به أبو الفرج الأصبهاني فانخدع بشعر عمر ، واتخذ منه وثيقة اجتماعية ونفسية ، واستخلص منها كما قلنا سيرة لحياته .

يقول عمر بن أبي ربيعة في رائيته في صيغة شعرية ، تمثل أعلى ماوصلت اليه جدلية الحب والحياة في الشعر الأموي ، واصفا محبوبته في صور تستمد أصولها من صورة المحبوبة القديمة في الجاهلية ، ومسجلا في نهاية القصيدة انتصاره عليها فيقول(٤١) :-

---

٤١) ديوان عمر بن أبي ربيعة : حققه وقدم له د. فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، ١ : ١١٢ - ١١٦ .

يَقُولُ خَلِيْلِي إذ أجَازَتْ حُمُولُهَا ... خَوَارِجَ مِنْ شَوْطَانَ بالصبرِ فاظْفَرِ[1]

فقُلْتُ لَهَا: مَامِنْ عَزَاءٍ ولا أسَى ... بِمُسْلٍ فوءَادِي عَنْ هَوَاهَا فأقْصِرِ

.....

.....

فهاتِ دَوَاءً للذِي بِيْ مِن الجَوَى ... وإلا فَدَعْنِي مِنْ مَلَامِكَ واعذِرِ

تَبَارِيْحَ لايَشْفِي الطبيبُ الذي بِهِ ... وليسَ بِوُءاتِيْهِ دواءُ المُبَشِّرِ

وطَوْرَينِ طَوْراً يَائِسٌ مَنْ يَعُودُهُ ... وطَوْراً يُرى في العَيْنِ كالمُحتيِّرِ

.....

.....

قَطُوفٌ أَلُوفٌ للحِجَالِ غَرِيْرَةٌ ... وثيرةُ ماتَحْتَ اعتقادِ الموءزَّرِ[2]

١- حمولها : رواحلها . شوطان : موضع .

٢- قطوف : قصيرة الخطى . ألوف للحجال : غير مجربة . وثيرة ماتحت اعتقاد الموءزر : سمينة الجسد تحت مقعد الازار .

سَبَتْهُ بِوَحْفٍ فِيْ العِقَاصِ مُرَجَّلٍ أَثِيْثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَكَوِّرِ[١]

وخَدٍّ أَسِيْلٍ كالوَذِيْلَةِ نَاعِمٍ مَتَى يَرَهُ رَاءٍ يُهِلُّ ويُسْحَرِ[٢]

وعَيْنَيْ مَهَاةٍ فِيْ الخَمِيْلَةِ مُطْفِلٍ مُكَحَّلَةٍ تَبْغِي مَرَاداً لِجُؤْذُرِ[٣]

وَتَبْسِمُ عَنْ غُرٍّ شَتِيْتٍ نَبَانُهُ لَهُ أُشُرٌ كالأُقْحُوَانِ المُنَوَّرِ[٤]

وَتَخْطُو عَلَىْ بَرْدَيَّتَيْنِ غَذَاهُمَا سَوَائِلُ مِنْ ذِيْ جُمَّةٍ مُتَحَيِّرِ[٥]

مِنْ البِيْضِ مِكْسَالُ الضُّحَى بُحْتُرِيَّةٌ ثَقَالٌ مَتَىْ تَنْهَضْ الى الشيءِ تَفْتُرُ

.....

.....

فلمَّا التَقَيْنَاْ رَحَّبَتْ وَتَبَسَّمَتْ تَبَسُّمَ مَسْرُورٍ وَمَنْ يَرْضَ يُسْرَرِ

فَيَا طِيْبَ لَهْوٍ مَاهُنَاكَ لَهَوْتُهُ بِمُسْتَمَعٍ مِنْهَا وَيَاحُسْنَ مَنْظَرِ.

---

١ - بوحف في العقاص : شعر كثيف في الذوءابة . المرجل : الممشط . قنو النخلة المتكور: عذق النخلة الملتف .

٢ - اسيل : طويل لين ناعم . الوذيلة : المرآة . يهل : يهلل .

٣ - مطفل : ذات طفل . الجوءذر : ولد البقرة الوحشية .

٤ - غر شتيت : فم اسنانه محززة متفرقة .

٥ - برديتين : كناية عن الساقين . الماء المتحير: الماء المتجمع الدائر .

فاذا رحنا نتأمل مفردات صورة المحبوبة في هذا اللون ، كما طرحها لنا الشاعر الأموي ، لوجدنا أنها تتمثل في البياض ، والاشراق مثل الشمس ، والخصوبة المتمثلة في القدرة على الانجاب ، أو حتى في كونها مطفلا ، ثم في عذوبة ريقها وانهلاله ، وبياض أسنانها ، وطيب عرفها ، وهي صفات كانت دائمة الدوران في الشعر الجاهلي كما بيّنا .

يقول الأحوص(٤٢) :

قَامَتْ تُرِيكَ شَتِيتَ النَّبْتِ ذا أُشُرٍ ... كَأَنَّهُ مِنْ سَوَارِي صَيِّفٍ بَرَدُ[1]

أَهْدَى أَهِلَّتَهُ نَوْءُ السِّمَاكِ لَهَا ... حَتَّى تَنَاهَتْ بِهِ الكُثْبَانُ والجُرُدُ[2]

وَمُقْلَتَيْ مُطْفِلٍ فَرْدٍ أَطَاعَ لَهَا ... بَقْلٌ وَمَرْدٌ ضَفَا مُكَّاؤُهُ غَرِدُ[3]

---

٤٢) شعر الأحوص الأنصاري ، : ٩٢ .

١- سواري صيف : سحابة تمطر ليلا في الصيف .

٢- أهلته : دفعة من المطر .نوء السماك : نجم . الجرد : فضاء لانبات فيه .

٣- فرد : ظبية . أطاع لها : أدرك ثمر الشجر بقل : نبات أخضر . ضفاء : طال : مكاء : طائر .

(٤٣)
ويقول الأخطل في بائيته :

حيّ المَنَازِلَ بَيْنَ السَّفْحِ والرَّحَبِ ... لَمْ يَبْقَ غَيْرُ وُشُومِ النَّارِ والحَطَبِ

وعُفْرِ خَالِداتٍ حَوْلَ قبتهـــا ... وطامس حبشي اللون ذي طبـــب

وغَيرُ نوءٍ قديمِ الأَثْرِ ذي ثُلَـمٍ ... ومُسْتَكِينٍ أَميمِ الرَّأسِ مُسْتَلَـبِ [1]

.....

.....

وقَدْ عَهِدْتُ بِهَا بِيضاً مُنَعَّمَـةً ... لايَرْتَدِينَ على عَيْـبٍ ولاوَصَـبِ [2]

يَمْشِينَ مَشْيَ الهِجَانِ الأُدْمِ يوعِثُهَا ... أَعْرافُ دَكْدَاكَةٍ مُنْهَالَةِ الكُثُـبِ [3]

من كُلِّ بَيْضَاءَ مِكْسَالٍ بَرَهْرَهَـةٍ ... زَانَتْ مَعَاطِلَهَا بِالدُّرِ والذَّهَـبِ [4]

---

٤٣) ديوان الأخطل، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ٣٠ - ٣١.

١- مستكين : الوتد أميم الرأس : المجروح حتى أم رأسه

٢ - وصب : السقم.

٣ - الهجان : الابل الكريمة. الأدم : البيض. الوعث : الرمل الكثير. الأعراف : ما ارتفع من الرمل. دكداكة : المتراكمة. منهالة : التي تتساقط. الكثب : ما اجتمع من الرمل.

٤ - برهرهة : براقة. المعاطل : حيث تلبس المرأة حليها وجواهرها.

حَوْرَاءَ عَجْزَاءَ لَمْ تَقْذَفْ بِفَاحِشَةٍ هَيْفَاءَ رُعْبُوبَةٍ مَمْكُورَةِ الْقَصَبِ[1]

يَشْفِي الصَّجِيعَ لَدَيْهَا بَعْدَ زَوْرَتِهَا مِنْهَا ارْتِشَافُ رُضَابِ الغَرْبِ ذِي الْحَبَبِ[2]

.....

.....

فَالْقَلْبُ عَانٍ وَإِنْ لَامَتْ عَوَاذِلُهُ فِي حَبْلِهِنَّ أَسِيرٌ مُسْنَحُ الْجَنَبِ[3]

(٤٤)
ويقول الفرزدق :

لَقَدْ هَاجَ مِنْ عَيْنَيَّ مَاءً عَلَى الهَوَى خَيَالٌ أَتَانِي آخِرَ اللَّيْلِ زَائِرَهْ

لِمَيَّةَ حَيَّا بِالسَّلَامِ كَأَنَّمَا عَلَيْهِ دَمٌ لَا يَقْبَلُ المَالَ ثَائِرُهْ

---

١ - حوراء جميلة العينين . عجزاء : كبيرة الردفين . رعبوبة : ممتلئة الجسم . ممكورة القصب : ممتلئة الساقين .

٢ - رضاب : الريق . الغرب : الاسنان الحادة . ذو الحبب : الفم ذو الاسنان البيضاء .

٣ - القلب عان : أسير . مسنح : سهل القياد

٤٤) شرح ديوان الفرزدق ، ١ : ٥٢١ .

كَأَنَّ خُزَامَى حَرَّكَتْ رِيحُهَا الصَّبَـا وَحَنْوَةَ رَوْضٍ حِينَ أَقْلَعَ مَاطِـرُهْ[1]

لَنَـا إِذْ أَتَتْنَا الرِّيحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهَا

وَدَارِيَّ مِسْكٍ غَارَ فِي البَحْرِ تَاجِـرُهْ[2]

دَعَتْنِي إِلَيْهَا الشَّمْسُ تَحْتَ خِمَارِهَا وَجَعْدٌ تَثَنَّى فِي الكَثِيبِ غَدَائِرُهْ[3]

كَأَنَّ نَوَارَاً تَرْتَعِي رَمْلَ عَالِـجٍ إِلَى رَبْرَبٍ تَحْنُو إِلَيْهَجَـاذِرُ[4]

ويقول عمر بن أبي ربيعة(٤٥) :-

حَوْرَاءُ آنِسَـةٌ مُقَبَّلُهَـا عَذْبٌ كَأَنَّ مَذَاقَهُ خَمْـرُ

١- خزامى : نبات طيب الرائحة . الصبا : ريح . حنوة روض :رائحة تنبعث من روضة سقاها المطر .

٢- مسكغار : أي مسك غاص من أجله التاجر في البحر ليستخرجه .

٣- جعد : شعر مجعد ، غدائره : ضفائر الشعر .

٤- ربرب : قطيع البقر الوحشي . الجآذر : جمع جوءذر اي ابن البقرة الوحشية .

٤٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ١ : ١٦٠.

والعَنْبَرُ المَسْحُوقُ خَالَطَهُ وقَرُنْفُلٌ يأتِي بِهِ النَّشْرُ

وإذا تَرَاءَتْ فِي الظَّلامِ جَلَتْ دُجْنَ الظَّلامِ كأنَّهَا بَدْرُ

.....

.....

وكأنَّ ضَوْءَ الشَّمسِ تَحْتَ قِنَاعِهَا أوْ مِزْنَةً أدْنَى بِهَا القَطْرُ

نَظَرَتْ إليْكَ بِعَيْنِ مُغْزِلَةٍ حَوْرَاءَ خَالَطَ طَرْفَهَا فَتْرُ[1]

وكأنَّ سِمْطَيْهَا عَلَى رَشَأٍ مُرْتَادُهُ الغِيْطَانُ والخُمُرُ[2]

ويقول(٤٦) :-

لو سُقِيَ الأمْوَاتُ رِيْقَتَهَا بَعْدَ كَأْسِ المَوْتِ لانْتَشَرُوا

---

١ - مغزلة : ظبية لها ولد ترمنه بعين العطف والحنان ، الفتر : النعاس .

٢ - السمط : الخيط الذي ينظم فيه اللؤلؤ فيصبح عقدا . رشأ : غزال ، مرتادة : مقصده . الغيطان : المكان الواسع من الأرض الخمر : الأشجار الملتفة .

٤٦) نفسه ، ١ : ١٦١ .

اذ شئنا أن نتتبع أصل هذه الصور في الشعر الجاهلي ، لكي نؤكد أن صورة المحبوبة المقدسة تمتد تقريبا بنفس مفردات هذه الصورة في الشعر الأموي ، دون تغير يذكر عند معظم الشعراء ، وبنفس المعجم القديم باستثناء عمر بن أبي ربيعة الذي اقتربت صوره ومعجمه كثيرا من لغة الحياة اليومية ، مع ميل واضح للدراما ، حوارا وحبكة قصصية ، فسوف نتوقف عند بعض الصور الجاهلية في وصف محاسن المرأة .

يقول الأعشى :- (٤٧)

مارَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ ... خَضْراءُ جادَ عَلَيْها مُسْبِلٌ هَطِلُ

يُضاحِكُ الشَّمْسَ مِنْها كَوْكَبٌ ... مُوَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ

يَوْماً بِأَطْيَبَ مِنْها نَشْرَ رائِحَةٍ ... ولا بِأَحسَنَ مِنْها إذْ دَنَا الأَصِلُ

ويقول عبيد بن الأبرص :- (٤٨)

خُوْدٌ مُبَتَّلَةٌ العِظامِ كأنَّها ... بَرْدِيَّةٌ نَبَتَتْ خِلالَ عَرُوسِ

---

٤٧) ديوان الأعشى ، شرح وتعليق د. محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميزت ، : ٥٥٧

٤٨) ديوان عبيد بن الأبرص ، شرح وتحقيق د. حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٥٧ ، : ٥٦٨

ويقول الأعشى :-(٤٩)

تَفْتَرُّ عَنْ مُشْرِقٍ بَـــــــارِدٍ ... كَشَوْكِ السَّيالِ أسفَ النـــوءُورَا .

ويقول(٥٠) :-

وَتَبْسَمُ عَنْ مَهاً شَبِمٍ غَـــــرِيٍّ ... إذا يُعْطِيْ المُقَبِّلَ يَسْتَزِيـــــدُ .

ويقول عنترة :-

اذ تَسْتَبِيْكَ بِذِي غُرُوْبٍ وَاضِـــــحٍ ... عَذْبٍ مُقَبَّلَهُ لَذِيـــذُ المَطْعَـــمِ

وكأنّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيْمَـــــةٍ ... سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إلَيْكَ من الفَـــمِ

أوْ رَوْضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبْتَهَـــا ... غَيْثٌ قَلِيْلُ الدِّمْنِ لَيْسَ بِمُعْلَـــمِ

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بِكْرٍ حُـــــرَّةٍ ... فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كالدِّرْهَـــــمِ

سَحّاً وَتَسْكَاباً فَكُلَّ عَشِيـــــةٍ ... يَجْرِي عَلَيْهَا المَاءُ لَمْ يَتَصَـــرَّمِ

---

٤٩) ديوان الأعشى، شرح وتعليق د. محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميزت ،٠٦٩

٥٠) نفسه ، : ٠١٤٣

٥١) ديوان عنترة ، دار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٦م ، : ٠١٧

(٥٢)
ويقول الأعشى :-

اذا اسْنَدَتْ مَيْتاً الى صَدْرِهَا عاشَ وَلَمْ يُحْمَلْ إلى قَابِرِ

حتى يقولَ الناسُ مِمّا رَأَوا يا عَجَباً لِلمَيِّتِ النَاشِرِ .

فاذا تركنا الصفات الجسدية الى الصفات النفسية ، فالحبيبة في شعر الغزل الأموي ، مصونة كالدّرة الثمينة ، غير مبتذلة أو متبرّجة ، وانما حبيب لايتكلم (الا وهو محجوب) ، ولايبذل نفسه للناس (قد كان يشفيك لو لم يرض خازنه) ، وهي تبدو (فتبدي جمالا زانه خفر اذا تزأزأت السود العناكيب) (لم تعانق رجلا) . وهي من الغواني (المكرمات العفائف) ثم هي (ألوف للحجال) (غريرة تمت الى حسب مافوقه حسب). وهي أخيرا وهذا هو الأهم حتي في لحظات تسليمها للشاعر وانتصاره عليها لاتسلم نفسها بابتذال ، فهي كما يقول عمر بن أبي ربيعة لم تزد عن الترحيب والتبسم تبسم المسرور الراضي ، وفرق كبير بين التبسم ، وهو افتعال الابتسام والترحيب الرقيق وبين الضحك الصاخب الذي يصاحب عمر

---

٥٢) ديوان الأعشى ، : ١٣٩ ، ١٤١ .

دائما في غزواته النسائية الأخرى .

يقول جرير(٥٣) :-

قَدْ تَيَّمَ القَلْبَ حتى زَادَهُ خَبَلاً ... من لايُكَلِّمُ إلاّ وهْوَ مَحْجُوبُ

قد كانَ يَشفيكَ لَوْ لَمْ يَرْضَ خَازِنُهُ ... رَاحٌ بِبَرْدِ قَرَاحِ المَاءِ مَقْطُوبُ[1]

كأنَّ في الخَمرِ قَرْنَ الشّمسِ طَالِعَةً ... لَمّا دَنَا مِنْ جِمَارِ النّاسِ تَحْصِيبُ[2]

تَمَّتْ إلى حَسَبٍ مافَوْقَهُ حَسَبٌ ... مَجْداً وَزَيّنَ ذَاكَ الحُسْنُ والطّيبُ

تبدُو فَتُبْدِي جَمَالاً زَانَهُ خَفَرٌ ... إذا تَزَأْزَأَتْ السّودُ العَنَاكِيبُ[3].

ويقول الأخطل(٥٤) :-

وقَدْ عَهِدْتُ بِهَا بِيضاً مُنَعَّمَةً ... لايَرْتَدِيْنَ على عَيْبٍ ولاوَصَبِ .

---

٥٣) شرح ديوان جرير ، : ٣٥.

١- راح : خمر . مقطوب : ممزوج

٢- تحصيب : رمي الجمار بوادي مني .

٣- خفر : حياء . تزأزأت : سارت مسرعة . السود العناكيب : النساء الدميمات .

٥٤) ديوان الأخطل ، : ٣١.

أما عمر بن أبي ربيعة فيقول (٥٥) :-

قُطوفٌ أَلوفُ الحِجَالِ غَرِيْـــرَةٌ وَثِيرةٌ مَاتَحْتَ اعْتِقَادِ المُـــؤَزَّرِ

فَلَمَا الْتَقَيْنَا رَحَّبَتْ وَتَبَسَّمَتْ تَبَسَّمَ مَسْرُورٍ وَمَنْ يُرضَ يُسْـــرَرِ.

ونرى عمر يسترسل مع خياله الشعري فيقول مالايفعل ويتخيل علاقة حب أو نزوة جامحة بينه وبين احدى أولئك الشريفات وربما اعترف ضمنا بأنه يصف أمانيه وخياله ، وهنا يؤكد على معنى عفة المحبوبة ، يقول في فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، متخيلا مايود أن يكون بينه وبينها من علاقة (٥٦) :-

رِكْتُ يَوْمَ الرَّحِيلِ أُقْضِيْ حَيَاتِـــي لَيْتَنِيْ مِتُّ قَبْلَ يَوْمَ الرَّحِيـــلِ

لَا أُطِيْقُ الكَلَامَ مِنْ شِـــدَّةِ الوَ جْدِ وَدَمْعِيْ بِسِيْلُ كلَّ مَسِيـــلِ

ذَرَفَتْ عَيْنُهَا فَفَاضَتْ دُمُوْعِـــيْ وَكِلَانَا يَلْقَى بِلُبِّ أَصِيـــلِ

لَوْ خَلَتْ خُلَّتِيْ أَصِبْـــتُ نَـــوَالاً أَوْ حَدِيْثاً يَشْفِي مَعَ التَّنْوِيْـــلِ

---

٥٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، : ١١٣ ؛ ١١٦.

٥٦) د. مهجة محمد كامل درويش ، المرأة في حياة وشعر العصر الأمـــوي ، المطبعة الفنية الحديثة ، : ١٦٤ - ١٦٥.

ولَقَدْ قَالَتْ الحبيبةُ لَـــــوْلاَ كَثْرَةُ النـاسِ جُدْتُ بالتَقْبِيـــــل.

ويقول عمر (٥٧) :-

لمْ تُعَـانِقْ رَجُلاً فِيْمَا مَضَـــــى طَفْلَةٌ غَيْدَاءُ في حُلَّتِهـــــــــا.

وتصل جدلية المحب / الحبيب ذروتها عند عمر بن أبي ربيعـــــة ، وذلك لصفات خاصة في شعره ، لعل أولها وأهمها قرب معجمه الشعري من لغة الحياة اليومية ، التي بعد العهد عنها في العصر الأموي ، وبخاصة بعـــد اختلاط العرب بغيرهم من أهل الأقاليم المفتوحة ، هذا من ناحية ، وثانيها بما برع فيه من قدرة على النهوض بصراع درامي في قصيدته ، واعتمادهـــا على الحوار عن طريق مجموعة من الخصائص الأسلوبية ، التي تميزه بشدة عن غيره من شعراء نفس الفترة ، وأولها قدرته الفائقة على استخدام المقابلة والطباق ، وأساسها النفسي صراع وتحاور وجدل ، وثانيها نجاحه المبهر في استخدام وتوظيف الجمل الاعتراضية في الشعر ، وظائف متعددة طبقا للمغزى

---

٥٧) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ١ : ٠٦٨.

الذي يرمي اليه وغير ذلك .

يقول عمر في أبيات أرسل بها الى امرأة في المدينة(٥٨) :-

بَرَزَ البدرُ في جَوَارٍ تَهَادَى مُخطفاتِ الخصورِ مُعْتجِرَاتِ

فَتَنَفَّسْتُ ثمَّ قلتُ لبكْرٍ عجِّلْتْ في الحياةِ خَيْبَاتِي

هلْ سبيلٌ الى التي لا أبالي بَعْدَها أنْ أمُوتَ قبلَ وفاتي ؟

فردت عليه تلك المرأة بهذه الأبيات(٥٩) :-

قدْ أتَانَا الرسولُ بالأبياتِ في كتابٍ قد خُطَّ بالتُّرْهَاتِ

حائرُ الطَّرفِ ان نظرتَ وما طرفُكَ عِنْدي بصادقِ النَّظراتِ

غُرَّ غَيْرِي فقدْ عرفتُ لغيري عهدكَ الخائنَ القليلَ الثباتِ .

ويقول في مقطوعة أخرى(٦٠) :-

ولقدْ قالتْ لأترابٍ لها كالمَها يلعَبن في حُجرتِها

---

٥٨) نفسه : ٦٩ .

١- معتجرات : لابسات المعجر وهو ثوب يشد على الرأس .

٥٩) نفسه : ٦٩ .

٦٠) نفسه ، ١ : ٦٨ .

خُذْنَ عَنِي الظِّلَّ لَا يَتْبَعْنِي ... وَمَضَتْ تَسْعَى إِلَى قُبَّتِهَا

لَمْ تُعَانِقْ رَجُلاً فِيمَا مَضَى ... طِفْلَةٌ غَيْدَاءُ فِي حُلَّتِهَا .

وتبدو المقابلة واضحة في جدلية الحب الحياة بين سخط الأهل وارضاء الحبيب ، وبين الموت الناتج عن بعد دارها ، وحياته اذا لاقاها في قوله (٦١) :

- وَمِنْ حُبِّهَا زُرْتُ أَهْلَ العِرَاقِ ... وَأَسْخَطْتُ أَهْلِي وَأَرْضَيْتُهَا

أَمُوتُ إِذَا شَحَطَتْ دَارُهَا ... وَأَحْيَا إِذَا أَنَا لَاقَيْتُهَا

فَأُقْسِمُ لَوْ أَنَّ مَا بِي بِهَا ... وَكُنْتُ الطَّبِيبَ لَدَاوَيْتُهَا .

وقوله (٦٢) :

- حَدِّثِينِي وَأَنْتِ غَيْرُ كَذُوبِ ... أَتُحِبِّينَنِي جُعِلْتُ فِدَاكِ

وَاصْدُقِينِي فَإِنَّ قَلْبِي رَهِينٌ ... مَا يُطِيقُ الكَلَامَ فِيمَنْ سُوَاكِ

---

٦١) نفسه ، ١ : ٠٦٨.

٦٢) نفسه ، ٢ : ٠٢٣٩.

كُلَّمَا لاحَ أَوْ تَغَوَّرَ نَجْـــــمٌ ... صَدَعَ القلبَ ذِكْرُكُمْ فَبكَـــــاكِ

قدْ تمنّيْتِ فيْ العتابِ فراقِـي ... فلَقَدْ نِلتِ ياثريّا مُنـــــاكِ

لاتُطيعي الوُشاة فيما أرادوا ... ياثرياولا الذي ينهـــــاك

كم فتىً ماجدٍ الخلائقِ عَـــفٍّ ... يَتَمنى في مجلسٍ أن يَـــرَاكِ

وقوله (٦٣) :-

- أرسلتْ هندٌ إلينا رســـولاً ... عاتِباً أَنْ مالَنا لانَرَاكـــا

فيمَ قدْ أَجْمَعْتَ عنّا صُـــدوداً ... أَأَرَدْتَ الصّرمَ أمْ ماعَدَاكـــا

إنْ تَكُنْ حاوَلتَ غيظِي بهجـري ... فلقدْ أدركتَ ماقدْ كَفَاكَـــا

كاذباً قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ ربّـي ... أنّني لم أَجْنِ ماكُنْهُ ذَاكَـــا

وألبّي داعِياً ان دَعَانِـــي ... وَتصامَمْ عامِداً ان دَعَاكـــا

وأكذّبْ كاشحاً ان أتَانِـــي ... وتُصَدّقْ كاشحاً إن أَتَاكَـــا

انّ في الأرضِ مَساحاً عَريضـــاً ... ومَناديحَ كثيـــراً سِوَاكَـــا

---

٦٣) نفسه ، ٢ : ٢٤١.

غاعلمَنْ
غَيْرَ أَنّي ~~فاعلمَنْ~~ ذَاكَ حَقّـــا ... لَا أَرَى النِّعْمَةَ حَتّى أَرَاكَـــا

قُلْتُ مَهْمَا تَجِدِيْ بِيْ فَانِـــــي ... أُظْهِرُ الوُدَّ لَكُمْ فَوْقَ ذَاكَـــا

أَنْتَ هَمِي وَأَحَادِيْثُ نَفْسِـــــي ... مَاتَغَيَّبْتَ وإِذْ مَا أَرَاكَـــــا.

وقوله (٦٤) :-

- أَرَاكِ يَاهِنْدُ فِيْ مُبَاعَدَتِـــــيْ ... مُعْتَلَّةً لِيْ لِتَقْطَعِيْ سَبَبِـــــيْ

هِنْدٌ أَطَاعَتْ بِيْ الوُشَاةَ فَقَـــدْ ... أَمْسَتْ تَرَانِيْ كَعُرَّةِ الجَـــرَبِ

يَاهِنْدُ لَاتَبْخَلِي بِنَائِلِكُـــــمْ ... عَنَّا فَلَمْ أَقْضِ مِنْكُمُ أَرَبِـــيْ

يَابِنْتَ خَيْرِ المِلُوكِ مَأْثَـــرَةً ... لِيْنِي لِذِيْ حَاجَةٍ وَمُرْتَقَـــبِ

واقْتَصِدِي فِيْ المَلَامِ واتْرُكِـــيْ ... بَعْضَ التَّجَنِّيْ عَلَيَّ والغَضَـــبِ

وَأَجِّلِيْنَا لِوَعْدِكُمْ أَجَـــــلاً ... ثُمَّ اصْدُقِيْنَا لَاخَيْرَ فِيْ الكَذِبِ

قَالَتْ فَمِيْعَادُكَ التَّقَمُّرُ فِـــيْ ... أَوَّلِ عَشْرٍ خَلَوْنَ مِنْ رَجَـــبِ.

أما جدلية الحب / الحياة فيما يتصل بشعر الغزل الصريح ، تلك التي نتوقف عندها الآن فهي صورة المرأة المتبرجة ، وهي صورة تمتاز

---

٦٤) نفسه ، ١ : ٥٥ .

بظاهرة الجدل والحوار ، وهي صورة مغايرة تماما للصورة الأولى للمرأة المتعففة قريبة الشبه بالمعبودة القديمة. ويلفتنا في هذه الصورة أشياء ، فهي أولا لاتأتي في الغالب في القصيدة ذات القالب الجاهلي الا فيما ندر . ومعنى هذا أنها ترد أكثر ماترد في مقطوعات غزلية صريحة جريئة ، أكثرها لعمر بن أبي ربيعة ، وهي في معظمها مغناه أي أنها وفقا لوصف أبي الفرج أغان مصحوبة بالموسيقي والايقاع.

وهي ثانيا تورد صورة للمرأة غير مألوفة لأعراف المسلمين في زمن ليس ببعيد جدا عن زمن البعثة النبوية . وهي صورة توءيد القول بأنها قصص غير حقيقية على الأقل في حياة عمر بن أبي ربيعة ،وان كانت لاتعكس بنفس القدر سوى تقاليد اجتماعية ودينية صارمة ، قابلها الشعراء بهذا التحدي الفني لكبت الحريات واخضاع الأهواء لتحكمات قاسية.وعموما فان من الواضح أن بيئة الحجاز كانت قد بدأت في استقبال أبناء الأقاليم المفتوحة ، بعاداتهم وتقاليدهم المختلفة عن عادات وتقاليد العرب والمسلمين . ويمكن بناء على ذلك تصور أن كثيرا من صورة المرأة المتبرجة

في هذه الجدلية ، كانت مستمدة من علاقات متعددة ، قامت بين الشعراء والمغنيات والقيان ، اللاتي وجدن في هذه البيئة ، وساهمن بدور كبير في نشر وتعليم الموسيقى والطرب .

واللافت في هذه الصورة أخيرا أن معجمها الشعري ، وبخاصة عند عمر بن أبي ربيعة أخذ يرق ويرق ، حتى اقترب بشدة من لغة الناس ، وابتعد بنفس الدرجة عن المعجم الجاهلي الذي كان مازال يفرض سلطانه على معاجم كثير من شعراء تلك الفترة وبخاصة البدو منهم .

ومن هنا فمعجم عمر الشعري - على الأقل - جرىء متحرر قصصي زاخر بالرمز والايحاء عن موقفه النفسي مما يدور حوله .

يقول ابن أبي ربيعة في مقطوعة غزلية يطرح فيها فكرا متحديا للشعور الديني ، الذي يمكن تصور تشدده في تلك البيئة بالذات ، ومازال العهد ليس ببعيد عن النبوة (٦٥) :-

---

٦٥) نفسه ، ١ : ١٤ .

- مرّ بي سربٌ ظِبـــــــــاءِ رائحاتٍ من قُبـــــــــاءِ
زُمَراً نحو المصلّـــــــى مُسرعاتٍ في خَـــــــلاءِ
فَتَعَرَّضْتُ والقَيـــــــتُ جَلابِيـــــبَ الحَيـــــاءِ
وقديماً كانَ عَهْـــــدِي وفُتوني بالنســـــــاءِ .

فالشاعر كما نرى يصف نفسه بأنه زئر نساء قديم ، وهو لايرعوي ، ولايأبه بمن يعترضهن هل هن في الطريق الي المصلى أم الى ملهى يطربن فيه ، ويبلغ التحدي ذروته حين يخبرنا أنه تعرض لهن ، أو أنه ألقى جلابيب الحياء . والمقطوعة كما نرى ترد جميعا في أسلوب خبري ، حاول خلاله الشاعر أن يثبت في خلدنا أن مايفعله قد تمّ فعلا ، وأنه ليس بالجديد عليه .

ان العودة مرة أخرى الى تحليل أسلوب عمر بن أبي ربيعة ، ومحاولة الربط بين شعره وبين حياته الواقعية ، سوف تدلنا على وجود مفارقة حادة أقل مايمكن أن تسفر عنه هو اهدار دمه لتزندقه ، وهو مالم يحدث ، والأقرب للتصور أن تكون أشعار عمر جميعا وبخاصة قصصه وحواريات الدرامية

الناضجة ، أقرب الى الرموز الفنية التي يعالج بها قضاياه ويبث من خلالها موقفه من المجتمع وهو مجتمع متشدد ، قد أحكم قبضته دينيا واجتماعيا بشكل كان يستدعي اما الهجوم عليه أو الانسحاب منه ، كما فعل العذريون .

يقول عمر(٦٦) :-

ولَقَدْ دَخَلْتُ الحيَّ يُخْشَى أَهْلُه ... بعدَ الهُدُوءِ وبَعْدَمَا سَقَطَ النَّدى[1]

فَوَجَدْتُ فِيهِ حُرَّةً قَدْ زُيِّنَتْ ... بالحَلْيِ تحسَبُهُ بِهَا جَمْرَ الغَضَا[2]

لمّا دخلتُ مَنَحْتُ طَرْفِي غيرَهَا ... عمْداً مَخَافَةَ أن يُرَى رِيعُ الهَوَى

كَيْمَا يَقُولُ محدِّثٌ لِجَلِيسِهِ ... كَذَبُوا عَلَيْها والذي سَمَكَ العُلى

قالتْ لأَتْرَابٍ نَوَاعِمَ حَوْلَهَا ... بِيضِ الوُجُوهِ خَرَائِدٍ مثلِ الدُّمَى[3]

---

٦٦) نفسه ، ١ : ١٨ - ١٩.

١- بعد ماسقط الندى : أي عند انسدال الليل ، لأن الليل يتساقط في هذه الأثناء.

٢- الغضا : شجر شديد الاشتعال.

٣- أتراب : رفاق . خرائد : أبكار .

بـاللّهِ ربِّ محمّدٍ حدّثـنَـنَـــــــي حقّاً أما تعجَبُـن مِنْ هذا الفَتَى

الـداخلِ البيتَ الشديدَ حِجَابُـــه في غيرِ مِيعـادٍ أمَا يَخْشَى الرَّدَى

فـأجبتُـها إنّ المُحبَّ معـــــوّدٌ بلـقـاءِ من يَهْوَى وان خافَ العِدَى

فَنَعِمْتُ بـالاً إذْ دخلتُ عليهـــمُ وسقطتُ مِنْـها حَيْثُ جئتُ على هوى

بيضاءُ مثلُ الشمسِ حينَ تُلُوعِهـا مَوْسُومَةٌ بالحُسْنِ تُعْجِبُ مَنْ رَآى

فالشاعر في هذه الأبيات يصف لنا احدى مغامراته في الحي الـــــذي (يخشى أهله) ، وبعد سقوط الندى وهو مايعني دخوله في أحلك ساعـــات الليل ، ولكنه كعادته منح طرفه غيرها تضليلا وخداعا لمن يمكن أن يصادفه من أهل بيتها ، وقد أثار مافعل عمر دهشة الحبيبة التي تساءلت متعجبـة من أمره ، فأجابها أنه (معوّد بلقاء من يهوى) ، والأمر بعد ذلك غيـر جدير فيما يتصل بغزليات عمر ، فهو دائم التركيز على التكرار وامكانية تجدد مايفعل وقدم عهده في الغواية فهو (معوّد) حتى وان خاف العدى ، ولكن مغامراته في النهاية تنتهي بدخوله عليها ، وسقوطه منها حيث جاء على هوى .

وقد يذهب عمر شأوا أبعد في مجابهة العادات والأعراف الدينية ، فهو حريص على الزج بمناسبات مقدسة في مغامراته ، وبخاصة ليالى الحج ، ولعل البيت الأخير من مقطوعته التالية التي يلخص لنا تجربته الماجنة أثناء رمي الجمار ، وهو يذكر مافعل مفاخرا ومجاهرا في شعره بما فعل فيقول (٦٧) :-

وكَمْ مِنْ قَتِيْلٍ لايُبَاءُ بِهِ دَمٌ ... ومن غِلقٍ رهناً إذا ضَمَّهُ مِنى

ومِنْ مَالِىءِ عَيْنَيْهِ من شيىءٍ غيره ... اذاْ رَاحَ نَحْوَ الجَمْرَةِ البِيضُ كالدُّمى

يُسَحِّبْنَ أَذْيَالَ المُرُوطِ بِأسْوُقٍ ... جِذالٍ وأعجَازٍ مآكِمُهَا روى

أوانسُ يَسْلُبْنَ الحليمَ فؤادَهُ ... فياطولَ ماشَوقٍ وياحُسْنَ مُجْتَلى

مَعَ الليلِ قَصْراً رميها بأكفِّها ... ثَلاثَ أَسَابِيْعٍ تُعدُّ مِنْ الحَصَى

فَلَمْ آرَ كالتَّجْمِيْرِ منظرُ نَاظِرٍ ... ولا كَلَيَالِي الحَجِّ أَفْلَتْنَ ذَاْهَوَى

ويقول في مقطوعة أخرى (٦٨) :-

---

٦٧) نفسه ، ١ : ١٩ - ٢٠.

٦٨) نفسه ، ١ : ١٤٢ - ١٤٣.

يـامَنْ لِقَلْبٍ متيّمٍ كَلِـــــفٍ يهذِي بخَوْدٍ مَرِيْضَةِ النَّظَـــــرِ

تَمْشِي الهُوَيْنَـا اذا مَشَتْ فُضُلاً وهي كَمِثْلِ العُسْلُوجِ في الشَّجَـرِ

.....

أبصرتُها ليلةً ونِسْوَتَهـــا يَمْشِيْنَ هَوْنَاً كَمَشْيَـةِ البَقَـرِ

.....

قالتْ لِتِربٍ لَهَا تُحَدِّثُهـــا لَنُفْسِدَنَّ الطَوَافَ في عُمَـــرِ

قُومِي تَصَدِي لهُ لِيُبْصِرَنَـــا ثُمَّ اغْمِزِيْهِ يا أُخْتَ فيْ خَفَـــرِ

قَالَتْ لَهَا : قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبَى ثُمَّ اسْبَطَرَّتْ تَسْعَى عَلَى أَثَـــرِي

مَنْ يُسْقَ بَعْدَ المَنَامِ رِيْقَتَهَا يُسْقَ بِمِسْكٍ وبَـــارِدٍ خصِـــرِ .

ذلك أن عمر هنا رغم اطرائه لجمال النسوة اللاتي لاقاهن بين المقام والحجر (بيضا حسانا خرائد قطفا ....) ، فانه جعل من نفسه معشوقـــا ساميا مترفعا ، الحد الذي يدفع هؤلاء الخرائد الى تقرير افســـاد طوافهن فيه ، واللافت هنا انها غمزته ، ولكنه أبى عليها ماتفعلـــه (فاسبطرت تسعى في أثري) ، ومهما قيل في تفسير هذه الأبيات بكونهـــا

شاهد على اغراق عمر في النرجسية أو ماشابه ذلك من علل نفسية ، كانعكاس العاطفة وشذوذها كما يرى (٦٩) د. شوقي ضيف ، فان عمر في ديوانه وغزله معطل الى حد كبير ، اذ حول الغزل من الرجل الى المرأة ، فالصورة العامة في غزله أنه معشوق لاعاشق ، وعمر في ذلك يعبر عن تطور جديد في الحياة العربية ، فقبله لم نكن نعرف شاعرا يصبح شخصه موضوع الغزل في غزله ، انما شخص المرأة هو الموضوع المعروف للغزل ، وباختصار ان المرأة كانت قبل عمر هي المعشوقة ، أما في غزله تحولت الى عاشقة وتحول عمر من عاشق الى معشوق . ولعل هذا ماجعل عمر يتفرد في غزله بشخصية واضحةلم يستطع أحد أن يجاريها.

اذن فالأقرب للصواب أن عمر - في مقطوعته السابقة - يوجه رسالة حادة الى المجتمع مثقلة بالرموز المتحدية الصارخة في الجذور ، فهوءلاء النسوة منعمات ، جميلات ، مترفات ، وهذا يعني انتسابهن للأرستقراطية العربية القديمة المتمثلة في الأشراف ، والمناسبة بالمثل مناسبة

---

٦٩) انظر التطور والتجديد في الشعر الأموي ، : ٢٢٩.

مقدسة هي الحج ، والداعي لافساد الطواف هو النسوة ، وليس عمر الماجن اللاهي ، وعمر بدوره يرفض - على غير عادته - وأكثر من هذا أنهن أخذن في الاسراع وراءه لكي يتوقف ويحادثهن ، ولا أظن أن هناك مايمكن أن يقال أقسى من هذا ، حين يريد انسان أن ينتقد سلوك طبقة أو جماعة ، ولايحتاج الأمر كذلك أن تكون قصص عمر هذه مغامرات حقيقية قد وقعت فعلا . وقد نفى عمر نفسه مثل تلك المغامرات كما أورد الأصبهاني " أشرف عمر بن أبي ربيعة على أبي قبيس ، وبنو أخيه محرمون ، فقال لبعضهم : خذ بيدي ، فأخذ بيده وقال : ورب هذه البنية ماقلت لامرأة قط شيئا لم تقله لي ، وماكشفت ثوبا عن حرام قط "(٧٠).

" ولما مرض عمر مرضه الذي مات فيه جزع أخوه الحارث جزعا شديدا ، فقال له عمر : أحسبك انما تجزع لما تظنه بي ، والله ماأعلم أني ركبت فاحشة قط : فقال : ماكنت أشفق عليك الا من ذلك وقد سلمت عني "(٧١).

---

٧٠) الأغاني ، ١ : ٧٦ - ٧٧.

٧١) نفسه ، ١ : ٧٧.

وقال عمر : " كل مملوك لي حر ان كنت كشفت عن فرج حرام قط "(٧٢)

وعند قرائتنا لشعر عمر تلفتنا فيه بعض الظواهر - التي تميزه عن غيره من شعراء الغزل - فيما يتصل بالمرأة . فهو يتحدث عن نفسية المرأة ببراعة يفوق بها غيره من الشعراء ، فاستطاع بشعره أن يهتك الستر الذي يحجب وراءه دخائل المرأة ، ويفصح عما يجول بنفسها من خواطر كالغيرة والحسد من قريناتها (٧٣) ، ولايستطيع أحد أن يصل الى ماوصل اليه عمر في هذا الشأن ، فلابد أن يكون ثريا ارستقراطيا مثل عمر، الذي استطاع أن يحظى بمقابلة النساء في حدود معينة، ولابد من وجود أم مثل أم عمر التي عاشت له ، بل أوقفت حياتها على تدليله واظهاره بصورة جمالية مبالغ فيها ، جعلته محط فتنة واقبال من النساء عليه .

يقول عمر (٧٤) :-

زَعَمُوهَا سَأَلَتْ جَارَاتِهَا ... وتعرَّتْ ذاتَ يَوْمٍ تَبْتَرِد

---

٧٢) نفسه ، ١ : ٧٧ - ٧٨.

٧٣) التطور والتجديد في الشعر الأموي ، : ٢٢٩.

٧٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ١ : ٨٩ - ٩٠.

أَكَمَا يَنْعَتُنِي تُبْصِرْنَنِـــــــــــى عَمْرُكُنَّ اللّٰه أمْ لايَقْتَصِـــــد؟

فَتَضَاحَكْنَ وقدْ قُلْـــــــنَ لهـا: حَسَنٌ في كلِّ عَيْنٍ مَنْ تَـــــوَدّ

حَسَدٌ حُمِّلْنَهُ مِنْ أجْلِهَـــــــــا وقَديماً كانَ في النـاسِ الحَسَد .

فالأبيات السابقة تصور غيرة النساء من المرأة اذا كانت تفوقهن جمالا أو تحظى باعجاب الرجل . كما أنعمر خبير بجانب آخر منفسية المرأة وهو اعجابها بالثناء عليها ، فبالرغم من مبادرة الشاعر شخصيا باعجابه بصاحبته ، الا أنه يحلو للمرأة أن تسمع ذلك الاطراء من قبل الأخريات ، مما جعلها تتعرى لصاحباتها وتسألهن عن مدى صدق مقولة صاحبها في جمالها .

كما يحرص في بعض أشعاره على أن يبرز ظاهرة تصوير ولع المرأة به وتعرضها له في موسم الحج بصفة خاصة ، وشكواها من هجره لها ،وتعاليه على عواطفها ، بصورة جعلت بعض القدامى والمحدثين يعترضون على عمر ويتهمونه - كما ذكرنا - بعبادة الذات ، في صورة أو أخرى . فابن أبي عتيق من القدماء يقول لعمر حين أسمعه أبياته :-

بَيْنَمَا يَنْعَتْنَنِي أَبْصَرْنَنِي دُونَ قِيْدِ الْمِيلِ يَعْدُو بِي الأَغَرّ

قالتْ : الكُبْرَى أَتَعْرِفَنَ الفَتَى قَالَتْ الوُسْطَى نَعَمْ هذا عُمَر

قالتْ الصُغْرَى وقدْ تَيَّمْتُهَا : قَدْ عَرَفْنَاهُ وهلْ يَخْفَى القَمَرُ .

" أنت لم تنسب بها وانما نسبت بنفسك ، كان ينبغي أن تقول وضعت خدي فوطئت عليه "(٧٥)

ويصور عمر وله المرأة عليه ، وغضبها وشكواها منه حين تعرف خيانته لها وزواجه من أخرى ، فيقول على لسانها(٧٦) :-

خَبَّرُوها بِأَنَّني قَدْ تَزَوَّجْتُ فَظَلَّتْ تُكَاتِمُ الغَيْظَ سِرّا

ثمَّ قالتْ لأُخْتِها ولأُخْرَى : لَيْتَهُ كانَ قَدْ تَزَوَّجَ عَشْرَا

وأَشَارَتْ إِلى نِسَاءٍ لَدَيْهَا لاتَرَى دُوْنَهُنَّ للسِّرّ ستْرا

مالِقَلْبِي كأَنَّهُ لَيْسَ مِنِّي وعِظَامِي إِخالُ فِيْهِنَّ فَتْرَا

من حديثٍ نَمَى الىَّ فَظِيْعٍ خِلْتُ فيْ القَلْبِ من تَلَظِّيْهِ جَمْرَا .

---

٧٥) الأغاني ، ١ : ٠١١٩

٧٦) ديوان عمر بن أبي ربيعة ١ : ٠١٣١

ويقول عمر مصورا عتاب امرأة له وهي تبكي بسبب هجره لها ،وتناسيه وصلها وملله منها، متهمة اياه بأنه يخدعها وينسي عهوده لها في أيام الحج ومواقفه ، وهكذا يخلط عمر الجد بالهزل في هذه الأبيات ، وفي غيرها ، حين نراه يجعل من أيام الحج مناسبات للقاء المرأة التي يحبها فيقول(٧٧) :

عَجَباً ماعجبتُ مِمّا لوَ ابْصَرْ ... تَ خَلِيْلِيْ مادونه لعَجِبْتَا

لمَقَالِ الصّفِيِّ فيمَ التَجنّي ... ولِمَا قَدْ جَفَوْتَنِي وَهَجَرْتَا ؟

في بكاءٍ فَقُلْتُ : ماذَا الذي ... أبْكَاكِ ؟ قالتْ فَتَاتُها : مافَعَلْتَا

وَلَوَتْ رَأسَها ضِرَاراً وقالتْ ... إذ رَأتْنِي : إخْتَرْتَ ذلكَ أنْتَا

حينَ آثَرْتَ بِالمَوَدّةِ غَيْرِي ... وَتَنَاسَيْتَ وَصْلَنَا وَمَلِلْتَا

قلتَ لِي قولَ مازِحٍ تَسْتَبِيْنِي ... بِلِسَانٍ مُقَوّلٍ اذ حَلَفْتَا :

عاشِرِي فاخبُرِي فَمِنْ سُوءِ جَدِّي ... وَشَقَائِي عُوْشِرْتَ ثم خُبِرْتَا

فَوَجَدْنَاكَ إذْ خَبَرْنَا مَلُولاً ... طَرِفاً لمْ تَكُنْ كَمَا كُنْتَ قُلْتَا

---

٧٧) نفسه ، ١ : ٦٦ - ٦٧.

وتجلّدتَ لي لِتَصْرِمَ حَبْلِـــــي بَعْدَ مَاكُنْتَ رثّهُ قد وَصَلْتَـــا

فاذْكُرْ العَهْدَ بالمُحَصَّبِ والـــوَ دَّ الذيْ كَانَ بَيْنَنَا ثمّ خُنْتَـــا

ولعَمْرِي ماذا بأوّلِ ماعاهـــدْ تَني يا ابنَ عمّ ثُمّ غَدَرْتَـــا ؟

فحرامٌ عليكَ أن لاتنالَ الـــد هرَ منّي غيرَ الذي كنتَ نِلْتَـــا .

وتحتاج هاتان الظاهرتان الى تفسير ، فليس من المعقول أن ترد في شعر عمر على هذا النحو من غير أن يكون لها سبب واضح ، وأول شيء نلاحظه هو استغلال عمر لوسائل فنية مختلفة ، لابراز كل من هاتين الصورتين وتأييدها من لغة الحوار الى لغة القص الى اختيار الألفاظ اختيارا خاصا يجعلها قريبة الشبه من اللغة العادية ، والحرص في كثير من الأحيان على أن يجعل مكان هذه الاحداث وزمانها في الحجاز وفي زمن الحج ، وهذا الترتيب المعقد يؤدي بنا الى تفسير هذه الأشعار تفسيرا اجتماعيا وسياسيا ودينيا .

فأما التفسير الاجتماعي فيمكن أن نجده في تلك الظروف التي كان

يمر بها الحجاز في ذلك الوقت ، وهي ظروف اختلاط العنصر العربي بالعناصر الأجنبية أدّت الى ترقية الذوق ترقية جعلت من أبناء الحجاز يعبّون من الحياة الوافدة عبّا ، ويقبلون على العناصر الأجنبيةخاصة المغنيات اقبالا خاصا ، وهو ماجعل من تجارب الحب تكثر بين الشعراء بصفة خاصة ، وبين هذه الطبقة من الجواري اللائي احترفن في كثير من الأحيان مهنة الغناء والرقص ، وافتتحن لها على نحوما يعبر أبو الفرج دورا يغني فيها المغنيات والمغنون ، ويحضرها جمهور المستمعين من طبقات المجتمع المختلفة .

وينبغي أن نتوقع كما يرى د. شوقي ضيف (٧٨) مثلا أن تكون هذه المقطوعات الشعرية ، التي تصور هذه التجارب العاطفية أغنيات تلحن وتغنى ، وكأنها بذلك قد كتبت لهذا الغرض ، ويؤيد ذلك أو يرجحه على أقل تقدير أن أبا الفرج (٧٩) الأصبهاني قد ذكر كثيرا من هذا الشعر مسجلا

---

٧٨) انظر التطور والتجديد في الشعر الأموي : ٢٢٦ - ٢٢٨.

٧٩) انظر الأغاني ، ٨ : ٢٩٥٥ - ٢٩٥٦.

الألحان المختلفة التى غنّى بها ، كما ملأ كتابه بوصف المجالس الغنائية، وماكان يحدث فيها من اقبال جمهور المستمعين على المغنيات اقبالا يصور جوا عاطفيا مترفا على نحو مانرى ، في حديثه عن مجالس الغناء لجميلة وغيرها من المغنيات .

وطبيعي أن تتنوع هذه العلاقات العاطفية التي كانت تقوم بين المغنيات وبين الشعراء من القرب أو البعد ، ومن اللقاء والهجر ، وأن ينظم الشعراء في ذلك شعرا ، يصورون فيه شيئا من الواقع الذي يعايشونه ويحلمون بما لم يقدروا على تحقيقه ، فليس عبثا أن تتغير الحياة الاجتماعية ويرتقي الذوق ، وتدخل الى البيئة الحجازية ظواهر فنية جديدة ، مثل الغناء والرقص والموسيقى ، بصورة لم تعرفها من قبل ثم لاتترك أثرا في نفوس الناس وحياتهم وفنهم ، بحيث يصبح مثل هذا الشعر شيئا عاديا في هذه البيئة المختلطة التي تموج بالمغنيين والمغنيات موجا ، ولعل فيما يريد أبو الفرج علاقة عمر وحظوته عند نساء الطبقة العالية من قريش ، مايصور ذلك ويؤيده ، فقد كثرت الروايات عن حضور عمر مجالس النساء .

بسمعنهن فيها أشعاره ، ويتحدث اليهن بمغامراته ، فيروى الأصبهاني عنه " أنه كان يجلس يوما بمنى في فناء مضربه وغلمانه حوله اذ أقبلت امرأة برزة عليها أثر النعمة ، فسلمت ، فرد عليها عمر السلام ، فقالت له : أنت عمر ابن أبي ربيعة ؟ فقال لها : أنا هو ، فما حاجتك ؟ قالت له : حيّاك الله وقربك ! هل لك في محادثة أحسن الناس وجها ، وأتمهم خلقا ، وأكملهم أدبا ، وأشرفهم حسبا : قال : ما أحب الىّ ذلك ! قالت : على شرط ، قال : قولي . قالت : تمكنني من عينيك فأشدهما وأقودك حتى اذا توسطت الموضع الذي أريد حللت الشد ثم أفعل ذلك بك عند اخراجك حتى انتهي بك الى مضربك ، قال : شأنك ، ففعلت ذلك به ، قال عمر : فلما انتهت بي الى المضرب الذي أرادت كشفت عن وجهي فاذا أنا بامرأة على كرسي لم أر مثلها قط جمالا وكمالا ، فسلمت وجلست ، فقالت أأنت عمر بن أبي ربيعة ؟ قلت : أنا عمر ، قالت : أنت الفاضح للحرائر؟ قلت : وماذاك ؟ جعلني الله فداءك ، قالت : ألست القائل :

قَالَتْ وَعَيْشِ أَخِي وَنِعْمَةِ وَالِدِي لَأُنَبِّهَنَّ الحَيَّ إِنْ لَمْ تَخْرُجِ

فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمِينِها فَتَبَسَّمَتْ ... فَعَلِمْتُ أَنْ يَمِينَها لَمْ تَحْرَجِ

فَتَنَاوَلَتْ رَأْسِي لِتَعْرِفَ مَسَّهُ ... بِمُخَضَّبِ الأَطْرَافِ غيرِ مُشَنَّجِ

فَلَثِمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا ... شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الحَشْرَجِ

ثم قالت: قم فاخرج عني ، ثم قامت من مجلسها وجاءت المرأة فشدت عيني ثم أخرجتني حتى انتهت بي الى مضربي وانصرفت وتركتني ، فحللت عيني وقد دخلني من الكآبة والحزن ما الله به أعلم ، وبت ليلتي ، فلما أصبحت اذ أنا بها ، فقالت : هل لك في العود ؟ فقلت : شأنك ففعلت بي مثل فعلها حتى انتهت بي الى الموضع ، فلما دخلت اذ بتلك الفتاة على كرسي ، فقالت : ايه يافضاح الحرائر قلت : بماذا ؟ - جعلني الله فداءك - قالت : بقولك :

وَنَاهِدَةِ الثَّدْيَيْنِ قلتُ لَهَا اتَّكِئْ ... علَى الرَّمْلِ مِنْ جَبَّانَةٍ لم تُوَسَّدِ

فَقَالَتْ على اسمِ اللهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ ... وان كنتُ قَدْ كُلِّفْتُ مَالَمْ أُعَوِّدِ

فَلَمَّا دَنَا الإِصْبَاحُ قالتْ فَضَحْتَنِي ... فَقُمْ غَيْرَ مَطْرُودٍ وإِنْ شِئْتَ فَازْدَدِ

ثم قالت قم فاخرج عني ، فقمت فخرجت ثم رددت ، فقالت لي : لولا وشك الرحيل ، وخوف الفوت ، ومحبتي لمناجاتك والاستكثار من محادثتك لأقصيتك ، هات الآن كلمني وحدثني وأنشدني ، فكلمت آدب الناس وأعلمهم بكل شيء ، ثم نهضت وأبطأت العجوز وخلا لي البيت فأخذت أنظر ، فاذا بتور فيه خلوق ، فأدخلت يدي فيه ثم خبأتها في ردفي ، وجاءت تلك العجوز فشدت عيني ونهضت بي تقودني حتى اذا صرت على باب المضرب أخرجت يدي فضربت بها علي المضرب ثم صرت الى مضربي ، فدعوت غلماني فقلت : أيكم يقفني على باب مضرب عليه خلوق كأنه أثر كف فهو حر وله خمسمائة درهم ، فلم ألبث أن جاء بعضهم فقال : قم ، فنهضت معه فاذا أنا بالكف طرية واذا المضرب مضرب فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، فأخذت في أهبة الرحيل ، فلما نفرت نفرت معها فبصرت في طريقها بقباب ومضرب وهيئة جميلة ، فسألت عن ذلك ، فقيل لها : هذا عمر بن أبي ربيعة ، فساءها أمره وقالت للعجوز التي كانت ترسلها اليه : قولي له نشدتك الله والرحم أن تصحبني ويحك : ماشأنك وما الذي تريد ؟ انصرف ولاتفضحني وتشيط بدمك ،

فسارت العجوز اليه فأدت اليه ماقالت لها فاطمة ، فقال : لست بمنصرف ، أو توجه الي بقميصها الذي يلي جلدها ، فأخبرتها ففعلت ووجهت اليه بقميص من ثيابها ، فزاده ذلك شغفا ، ولم يزل يتبعهم لايخالطهم حتى اذا صاروا على أميال من دمشق انصرف وقال في ذلك :

ضَاقَ الغَدَاةَ بِحاجَتِي صَدْرِي ... وَيَئِسْتُ بعدَ تَقَارُبِ الأَمْرِ

وَذَكَرْتُ فَاطِمَةَ التي عَلَّقْتُهَا ... عَرَضاً فَيَا لِحَوَادِثِ الدَّهْرِ (٨٠)

وفي هذه القصة عدة أمور يجب أن نقف عندها ، منها أن المرأة لم تكن تجد حرجا في لقاء الشاعر والاستماع اليه كما أن هذا النوع من شعر الغزل لم يؤخذ على ظاهره ولكنه كان يفهم بوصفه نوعا من الدعاية الاجتماعية التي يقصد بها الشعراء الى تلك العواطف الانسانية على اختلافها وتناقضها

كما نلاحظ فيها نغما حضاريا غايته هداية الشاعر الى التعبير الأمثل عن العواطف الانسانية تعبير لايخدش حياء المرأة ولايسيء الى سمعتها ، وكأنها بذلك محاولة لاعتراض هذا التيار الغزلي يفضح عواطف المرأة وينشر أسرارها .

وهكذا نستطيع أن نجد في هذا النوع من الجدل بين الشعر والحياة الاجتماعية مايؤيد هذا التفسير الاجتماعي لشعر الغزل سواء عند عمر أو عند غيره من الشعراء الآخرين .

---

٨٠) نفسه ، ١ ، ١٩٠ - ١٩٤ .

ولانستطيع أن نترك عمر في جدلية الحب والمحبين ، دون أن نتوقف عند رائيته (أمن آل نعم ...) ، فهي تشخّص كافة المقوّمات الأسلوبية والفنية والموضوعية لديه ، من حوار مع الحبيب ، وصراع ضد المجتمع ، وتحايل على عاداته وتقاليده ، وهي في النهاية انتصاره على كل هذه العادات ، كما أنها دليل على يسر معجمه واقترابه الشديد من لغة الحياة والناس دون تعقيد أو اغراب فضلا عن مهارته في استخدام الطباق والتقابل، والجمل المعترضة في الأبيات ، يقول الشاعر(٨١) :-

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ ... غَدَاةَ غَدٍ أَمْ رَائِحٌ فَمُهَجِّرُ

لِحَاجَةِ نَفْسٍ لَمْ تَقُلْ فِيْ جَوَابِهَا ... فَتُبْلِغَ عُذْرًا وَالمُقَالَةُ تُعْذِرُ

تهيمُ إِلَىٰ نُعْمٍ فَلَا الشَّمْلُ جَامِعٌ ... وَلَا الحَبْلُ مَوْصُولٌ وَلَا القَلْبُ مُقْصِرُ

وَلَاقُرْبَ نُعْمٍ إِنْ دَنَتْ لَكَ نَافِعٌ ... وَلَا نَأْيُهَا يُسْلِيْ وَلَا أَنْتَ تَصْبِرُ

إِذَا زِرْتُ نُعْمًا لَمْ يَزَلْ ذُوْقَرَابَةٍ ... لَهَا كُلَّمَا لَاقَيْتُهُ يَتَنَمَّرُ

عَزِيْزٌ عَلَيْهِ أَنْ أُلِمَّ بِبَيْتِهَا ... يُعَيِّرُ لِيْ الشَّحْنَاءَ وَالبُغْضُ مَظْهَرُ

---

٨١) نفسه ، ١ : ١٠٤ - ١١٦.

أَلِكْنِيْ إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ فَإِنَّهُ ... يُشَهِّرُ إِلْمَامِي بِهَا وَيُنَكِّرُ

بِآيَةِ مَا قَالَتْ غَدَاةَ لَقِيْتُهَا ... بِمَدْفَعِ أَكْنَانٍ أَهَذَا الْمُشَهَّرُ

أَشَارَتْ بِمَدْرَاهَا وَقَالَتْ لِأُخْتِهَا ... أَهَذَا الْمُغِيْرِيُّ الَّذِيْ كَانَ يُذْكَرُ

أَهَذَا الَّذِيْ أَطْرَيْتِ نَعْتًا فَلَمْ أَكُنْ ... وَعَيْشِكِ أَنْسَاهُ إِلَى يَوْمِ أُقْبَرُ

فَقَالَتْ نَعَمْ : لَاشَكَّ غَيَّرَ لَوْنَهُ ... سُرَى اللَّيْلِ يُحْيِي نَصَّهُ وَالتَّهَجُّرُ

لِئَنْ كَانَ إِيَّاهُ لَقَدْ حَالَ بَعْدَنَا ... عَنِ الْعَهْدِ وَالْإِنْسَانُ قَدْ يَتَغَيَّرُ

.....

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ ... فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

أَخَا سَفَرٍ جَوَّابُ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ ... بِهِ فَلَوَاتٌ فَهْوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ

وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ ... وَرَيَّانُ مُلْتَفِّ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ

وَوَالٍ كَفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهُمُّهَا ... فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ

وَلَيْلَةَ ذِيْ دَوْرَانَ جَشَّمْتَنِي السُّرَى ... وَقَدْ يَجْشَمُ الْهَوْلَ الْمُحِبُّ الْمُغَرَّرُ

فَبِتُّ رَقِيْبًا لِلرِّفَاقِ عَلَى شَفَا ... أُحَاذِرُ مِنْهُمْ مَنْ يَطُوفُ وَأَنْظُرُ

إِلَيْهِمْ مَتَى يَسْتَمْكِنُ النَّوْمُ مِنْهُمُ ... وَلِيْ مَجْلِسٌ لَوْلَا اللَّبَانَةُ أَوْعَرُ

وَبِتُّ أُنَاجِيْ النَّفْسَ أَيْنَ خِبَاؤُهَا ... وَكَيْفَ لِمَا آتِي مِنَ الْأَمْرِ مَصْدَرُ

فَلَمَّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنْهُم وَأُطْفِئَتْ ... مَصَابِيْحُ شُبَّتْ فِي الْهِشَاءِ وَأُنْوِرُ

وَغَابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أَرْجُو غُيُوبَهُ ... وَرُوِّحَ رُعْيَانٌ وَنُوِّمَ مُسَمَّرُ

وَنَقَّضْتُ عَنِّي النَّوْمَ أَقْبَلْتُ مَشْيَةَ الـ ... ـحُبَابِ وَرُكْنِي خَشْيَةُ الْقَوْمِ أَزْوَرُ

فَحَيَّيْتُ إِذْ فَاجَأْتُهَا فَتَوَلَّهَتْ ... وَكَادَتْ بِمَخْفُوضِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ

وَقَالَتْ وَعَضَّتْ بِالْبَنَانِ فَضَحْتَنِي ... وَأَنْتَ امْرُؤٌ مَيْسُورٌ أَمْرُكَ أَعْسَرُ

رَأَيْتُكَ إِذْ هُنَّا عَلَيْكَ أَلَمْ تَخَفْ ... وُقِيْتَ وَحَوْلِي مِنْ عُدُوِّكَ حُضَّرُ

فَوَ اللَّهِ مَا أَدْرِيْ أَتَعْجِيْلُ حَاجَةٍ ... سَرَتْ بِكَ أَمْ قَدْ نَامَ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ

فَقُلْتُ لَهَا بَلْ قَادَنِي الشَّوْقُ وَالْهَوَى ... إِلَيْكِ وَمَاعِيْنٌ مِنَ النَّاسِ تَنْظُرُ

فَقَالَتْ وَقَدْ لَانَتْ وَأَفْرَخَ رُوْعُهَا ... كَلَاكَ بِحِفْظِ رَبِّكَ الْمُتَكَبِّرُ

فَأَنْتَ أَبَا الْخَطَّابِ غَيْرَ مُدَافَعٍ ... عَلَيَّ أَمِيْرٌ مَا مَكَثْتَ مُؤَمَّرُ

فَبِتُّ قَرِيْرَ الْعَيْنِ أُعْطِيْتُ حَاجَتِي ... أُقَبِّلُ فَاهَا فِي الْخَلَاءِ فَأُكْثِرُ

فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ طُوْلُهُ ... وَمَا كَانَ لَيْلِيْ قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ

.....

فَلَمَّا تَقَضَّى اللَّيْلُ إِلَّا أُقَلَّهُ ... وَكَادَتْ تُوَالِي نَجْمِهِ تَتَغَوَّرُ

أَشَارَتْ بِأَنَّ الْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمُ ... هُبُوْبٌ وَلَكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ عَزْوَرُ

فَمَا رَاعَنِي إلا مُنَادٍ تَرَحَّلُوا ... وَقَدْ لاحَ مَفْتُوقٌ مِنَ الصُّبْحِ أَشْقَرُ

فَلَمَّا رَأَتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّهَ مِنْهُمُ ... وَأَيْقَاظَهُم قَالَتْ أَشَرْكَيْفَ تَأْمُرُ

فَقُلْتُ أُبَادِيْهِمْ فَإِما أَفُوتَهُم ... وَإِمَّا يَنَالُ السيفُ ثَأْراً فَيَثْأَرُ

فَقَالَتْ أَتَحْقِيْقاً لِمَا قَالَ كَاشِحٍ ... عَلَيْنَا وَتَصْدِيْقاً لِمَا كَانَ يُوْعَرُ

فَإِنْ كَانَ مَالابُدَّ مِنْهُ فَغَيْرُهُ ... مِنَ الأَمْرِ أَدْنَى لِلْخَفَاءِ وَأَسْتَرُ

أَقُصُّ عَلَى أُخْتَيَّ بَدءَ حَدِيْثِنَا ... وَمَالِيَ مِنْ أَنْ تَعْلَمَا مُتَأَخَّرُ

لَعَلَّهُمَا أَنْ تَطْلُبَا لَكَ مَخْرَجاً ... وَأَنْ تَرْجِعَا صَدْراً بِمَا كُنْتُ أَحْصَرُ

.....

فَقَالَتْ لأُخْتَيْهَا أَعِيْنَا عَلَى فَتَىً ... أَتَى زَائِراً وَالأَمْرُ لِلأَمْرِ يُقْدَرُ

فَأَقْبَلَتَا فَارْتَاعَتَا ثُمَّ قَالَتَا ... أَقِلِّي عَلَيْكِ اللَّوْمَ فَالْخَطْبُ أَيْسَرُ

فَقَالَتْ لَهَا الصُّغْرَى سَأُعْطِيْهِ مِطْرَفِي ... وَدِرْعِي وَهَذَا البُرْدَ إِنْ كَانَ يَحْذَرُ

يَقُومُ فَيَمْشِي بَيْنَنَا مُتَنَكِّراً ... فَلا سِرُّنَا يَفْشُو وَلاهُوَ يُظْهَرُ

فَكَانَ مِجَنِّي دُوْنَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي ... ثَلاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُعْصِرُ

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ قُلْنَ لِي ... أَلَمْ تَتَّقِ الأَعْدَاءَ وَاللَّيلُ مُقْمِرُ

وقلن ، أهذا دأبك الدهر سادراً أما تستحي أم ترعوي أم تفكر؟

إذا رجعت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

فآخر عهدي لي بها حين أعرضت ولاح لها خد نقي ومحجر .

والشاعر كما نرى قد بنى قصيدته بناء فنيا خاصا يتمثل في ثلاثة مواقف حرص على أن يقابل الأحداث فيها بعضها ببعض ، كما حرص على أن يجعل منها قصة مشابهة لما يقع في حياة المحبين ، ليقرب بها الى مايشبه الواقع الحقيقي ، كما أنه حرص على أن يصوغها بالاضافة الى ذلك في لغة حوارية .

أما القسم الأول في القصيدة فيقابل الشاعر بينه وبين صاحبته ، فهو يتألم من فراقها ويحاول جاهدا أن يصل اليها . ثم ينتقل الشاعر الى القسم الثاني من القصيدة ، فيصور لقاءه بهذه المرأة التي شقي بسبب هجرها ، ويلقى فى سبيل ذلك مايلقاه المحبون من خوف وخطر يتربص لهم ، حتى اذا وصل اليها رأيناه يصور هذا اللقاء تصويرا فنيا ، يقابل

بين خوفها في بدايته واطمئنانها بعد ذلك ، مقابلة تضفي شيئا من الحياة والحيوية على هذا الحدث ، وتقرب به من الواقع الحقيقي في لغة حوارية درامية دالة ومثيرة .

ثم أخذ الشاعر بعد ذلك يصف جمال هذه المرأة ، بتلك الأوصاف الشائعة في غزل الشعراء الآخرين ، لينقلنا بذلك آخر الأمر الى القسم الأخير من القصيدة ، وهو أكثر الأجزاء اثارة لأنه يشخّص موقفه حينما طلع النهار ، ووجب عليه أن يتركها في الوقت الذي يقف فيه قومها له بالمرصاد وتتشابك المواقف وتتناقض في هذا القسم من القصيدة ، ليصل بنا الى موقف غريب تلجأ فيه صاحبته الى أختيها اللتين تلبسانه لباس النساء ، وتخرجان به وتحققان بذلك الحفاظ على حياته ، وعلى سر أختهما .

ولعلنا نلاحظ في هذه القصيدة النزعة القصصية والحوارية ،ومقارنة الأحداث بالواقع . وهي خصائص تدور دورانا في شعر عمر بن أبي ربيعة ، وكان من أثرها انخداع قرّائه بهذه الصيغة الشعرية ، متخذين منها وثيقة على سلوك عمر وعلاقته بالمرأة في بيئته .

وكما قلنا فان الأمر مع عمر بن أبي ربيعة لايعدو أن يكون صيغة فنية ، اطمأن اليها الشاعر ، وحرص على تكرارها في شعره ، بحيث لاتكاد تخلو قصيدة من قصائده من هذا البناء القصصي ، الذي يقوم على الحوار ومشابهة أحداث الشعر ولغته بواقع الحياة ، ومن ثم فان تفسير هذا النوع من الشعر ، لاينبغي أن يؤخذ على أنه وثيقة اجتماعية أو تاريخية ، ولكن يجب النظر اليه بوصفه صيغة فنية خالصة ، والا فسوف نقع في لبس أخلاقي غريب ، يتصل أولا بطبيعة عمر الذي تشخصه هذه القصائد المتعددة ، اذا نظرنا اليها بوصفها مغامرات حقيقية باعتباره زئر نساء زنديقا متهتكا ، وثانيا بطبيعة نساء الحجاز اللاتي تصورهن مثل هذه القصائد في صورة المرأة ، التي لايشغلها شيء سوى المغامرات العاطفية مع عمر وغيره من الشباب الحجازيين . ومن هنا فشعر عمر - كما قلنا - لابد من تفسيره تفسيرا رمزيا يكشف عن القضايا والمواقف من المجتمع بهذه الصيغة المتحدية .

ولغة القصيدة كما ترى - في مجملها - تبعد عن لغة الشعر الجاهلي، في معظم أجزائها باستثناء الجزء الأخير منها، الذي يتحدث فيه الشاعر

عن قطعه الصحراء بناقته القوية . وعلى الرغم من انفصال التصوير الفني للمحبوبة من الشعر الجاهلي الى شعر عمر حين ترك آثاره واضحة قوية في الجزء المناظر له من قصيدة عمر ، فان هذا التصوير ولغته التي استخدمها بعيد كل البعد عن الاغراب والتوحش . أما باقي القصيدة فقد كانت ألفاظها سهلة قريبة المأتى ، واللافت فيها بعد ذلك أن الشاعر راح لغويا عن طريق بعض الجمل الاعتراضية في القصيدة ، يقيم مقابلة ضمنية أخرى بين خوف المحبوبة من الفضيحة (فضحتني) ، وخوفها عليه من أعدائها (وحولي من عدوّك حضّر)، وذلك عن طريق جملة فعل الأمر (وقيت) ، ثم عن طريق الجملة الدعائية (كلاك بحفظ ربّك المتكبّر) ، مما يجعلنا نشك في حقيقة مشاعر تلك المرأة تجاه عمر ، هل هي غاضبة عليه تخشى الفضيحة فعلا مادامت تدعو له بالوقاية وحفظ الرب ؟ ، والأمر بعد ذلك لايخلو من صيغة فنية - كما قلنا - نجح عمر في استخدامها ببراعة ، مجندا لها كل طاقاته الشعرية ، حتى يخرجها لنا بشكلها الذي اقترب من الحقيقة هكذا .

ويتكرر الأمر في مقطوعة أخرى وثالثة ، ولاتلعب الجملة الاعتراضية ، فيها شيئا جديدا ، مثلما لاتختلف وظيفة المناسبات المقدسة ،أو الأماكن

المقدسة عن وظيفتها الفنية التي تحدثنا عنها.

يقول عمر(٨٢) :-

وَيُذْهِلُنِي مِنْهُ - عَلَى وَجَلٍ - عَذْبًا كَطَعْمِ سُلَافَةِ الْخَمْرِ.

فعلى الرغم من شبه الجملة الاعتراضية في كلمتي (على وجل)، فان الشاعر يتحدث بصيغة هي أقرب الى الخبر ، عن مغامراته ولهوه مع تلك الفتاة ، ولهوه أشبه بـ (ليلة مباركة كليلة القدر) ذات الوقع المقدس على النفس ، ولكن المتأمل في صيغة الاخبار عن هذه المغامرات عند عمر، سوف يلفته استخدامه لألفاظ الخيال والظن بكثرة ، حتى غدت معظم مقطوعاته محوطة بهذا الوهم النفسي ، الذي ينتزعها انتزاعا من براثن التحقيق الى عالم الوهم والتمني النفسي ، وهو مايؤيد أن مقطوعاته صيغ فنية وليست حقائق .

يقول عمر (٨٣) :-

---

٨٢) نفسه ، ١ : ١٨٠ .

٨٣) نفسه ، ٢ : ٢٢٦.

أَلَمَّ خَيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى فَأَرَّقَا ... هُدوءاً وَلَمْ يَطْرُقْ هُنَالِكَ مَطْرَقَا

أَلَمَّ بِبَطْحَاءِ الكَدِيْدِ وَصُحْبَتِي ... هجودٌ فَزَادَ القَلْبَ حُزْناً وَشَوَّقَا[1]

فَقُلْتُ لَهَا : أَهْلاً بِكُمْ إِذْ طَرَقْتُمُ ... فَقَدْ زُرْتِ صَبّاً يَا قَتِيْلَ مُوءَرِّقَا[2]

فَبَاتَتْ تُعَاطِيْنِي عِذَاباً حَسِبْتُهَا ... مِنَ الطِيْبِ مِسْكاً أَوْ رَحِيْقاً مُعَتَّقَا

فَبِتُّ قَرِيْرَ العَيْنِ آخِرَ لَيْلَتِي ... أُلاعِبُ فِيْهَا وَاضِحَ الجِيْدِ أَعْنَقَا

فَبِتْنَا بِتِلْكَ الحَالِ إِذْ صَاحَ نَاطِقٌ ... وَبَيَّنَ مَعْرُوفٌ الصَّبَاحَ فَصَدَّقَا .

(٨٤)
ويقول :-

أَلَا يَا بَكْرُ قَدْ طَرَقَا ... خَيَالٌ هَاجَ لِيْ الأَرَقَا

أَجَازَ البِيْدَ مُعْتَرِضاً ... فَعَرْضَ الوَادِ فَالشَّفَقَا

لِهِنْدٍ إِنَّ ذِكْرَتَهَا ... تَرَى مِن شِيْمَتِي خُلُقَا .

(٨٥)
ويقول :-

كِدْتُ يَوْمَ الرَّحِيْلِ أَقْضِي حَيَاتِي ... لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ يَوْمَ الرَّحِيْلِ[1]

---

١ - هجود : نائمون .
٢ - موءرقا : أصابه الأرق .

٨٤) نفسه ، ٢ : ٢٢٨ .
٨٥) نفسه ، ٢ : ٢٦٠ .

لاُطِيْقُ الْكَلامَ مِنْ شِدَةِ الوَجْـ ... ـدِ وَدَمْعِي يَسِيْلُ كُلَّ مَسِيـــل

ذَرَفَتْ عَيْنُها فَفَاضَتْ دُمُوعِـي ... وكِلَانَا يَلْقَى بِلُبٍّ أَصِيـــل

لَوْ خَلَتْ خُلَّتِي أَصُبْتُ نَـوالاً ... أَوْ حَدِيْثاً يَشْفِي مَعَ التَنْوِيـــل

ولقدْ قَالَتُ الحَبِيْبَةُ : لَـوْلا ... كَثْرَةُ النَّاسِ جِدْتُ بالتَقْبِيـــل[1]

لَيْسَ طَعْمُ الكَافُورِ والمِسكِ شِيْبَا ... ثُمَّ عُلَّا بالرَّاحِ والزَنْجَبِيـــل[2]

حِيْنَ تَنْتَابُها بِأَطْيَبَ مِنْ فِيْهَا ... طُرُوقاً إِنْ شِئْتَ أَوْ بِالْمَقِيـــل

ذَاكَ ظَنِّي وَلَمْ أَذُقْ طَعْمَ فِيْهَـا ... لاَ وَمَافِيْ الكِتَابِ مِنْ تَنْزِيـــل

فالشاعر في هذه المقطوعة الأخيرة يتحدث عن يوم رحيل محبوبته عنه، وهو يحدثنا عن جزع وحزن متبادل بينه وبينها ، وهو حريص لغويا على نفي أية شبهة للابتذال في هذه الحبيبة ، فهي لم تقبله لولا كثرة الناس من حولها ، وهذا يعني أنها لم تقبله حقيقة ، كما أن الشاعر صدّر البيت الأخير بكلمته (ذاك ظني) ، والظن وهم كما أنه أخيرا يختم حديثه بجملة القسم القاطعة الحاسمة لكل شك يمكن أن يقطع فيه الانسان . وهكذا راح عمر ينفي باللغة ما أكده بالشعر قصا وحوارا . انه يتلاعب فنيا شاحذا كل طاقته لتحدي المجتمع وتحطيم أغلاله في صيغة فنية عالية ، ومن هنا يصبح من اللازم مرة ومرات أن نعيد النظر في صيغ عمربن أبى ربيعة ، التي

١- شيب : مزج . الراح : الخمرة .

٢- تنتابها : تأتيها . طروقا : ليلا . المقيل : النوم في الظهيرة .

يستخدمها من الأسلوب الخبري القصصي بالذات وسيلة لها ولنتأمل صيغة الاخبار في قوله (٨٦):-

لعمري لقد نلت الذي كنت ارتجي وأصبحت لا أخشى الذي كنت أحذر

فليس كمثلي اليوم كسرى وهرمز ولا الملك النعمان مثلي وقيصر .

ونقارنها بتلك القصيدة الغزلية التي قالها في هند ، والتي يقول فيها: (٨٧)

رَأَيْتُ بِجَنْبِ الخَيْفِ هِنْداً فَرَاقَنِي لَهَا جِيْدٌ رِيْمٍ زَيَّنَتْهُ الصَّرَائِمُ[1]

وَذُو أُشُرٍ عَذْبٍ كَأَنَّ نَبَاتَهُ جَنَى أُقْحُوَانٍ نَبْتُهُ مُتَنَاعِمُ

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالمُحَصَّبِ مِنْ مِنًى وَلِيْ نَظْرَةٌ لَوْلَا التَّحَرُّجُ عَارِمُ[2]

فَقُلْتُ : أَشَمْسٌ أَمْ مَصَابِيْحُ بِيْعَةٍ بَدَتْ لَكَ تَحْتَ السَّجْفِ أَمْ أَنْتَ حَالِمُ[3]؟

.....

.....

---

٨٦) نفسه ، ١ : ١٨١ .

٨٧) نفسه ، ٢ : ٣٠٧ - ٣٠٨.

١- الخيف : كل هبوط وارتفاع في سفح الجبل ، وما انحدر في الجبل وارتفع عن مسيل الماء . فراقني : أعجبني .

٢- المحصب : موضع رمي الجمار في مني . النظر العارم : النظر الفاسد . التحرج : التأثم .

٣- السجف : الستر .

.....

.....

وَمَدَّ عَلَيْهَا السَّجْفَ يَوْمَ لَقَيْتُهَا عَلَى عَجَلٍ تُبَّاعُهَا والخَوَادِمُ[1]

فَلَمْ أَسْتَطِعْهَا غَيْرَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا عَشِيَّةَ رَاحَتْ كَفُّهَا والمَعَاصِمُ

مَعَاصِمُ لَمْ تَضْرِبْ عَلَى البَهْمِ بِالضُّحَى عَصَاهَا وَوَجْهٌ لَمْ تَلُحْهُ السَّمَائِمُ

ذلك أن صيغة التحقيق المغرقة في الاخبار التي يقدمها لنا الشاعر في البيتين السابقين ، تدخل في جدلية الخيال والظن التي سبق الحديث عنها وتؤيدها أبيات هذه القصيدة الأخيرة . فالشاعر رغم أنه يحدثنا عن هند حديث العارف لها المقترب منها ، ويصفها لنا بصفاتها التي عددها في القصيدة من عذوبة الريق ، وروعة الجمال مثل الرئم ، واشراق وجهها مثل الشمس ، وغير ذلك ، فانه كان حريصا على أن يحيط هذا القالب القصصي بما ينزع عنه صيغة الاخبار ، فهو يقول (انه لم يستطعها) فهو لم يلاقها أو يقترب منها ، ولكن أفكاره بصددها استمدها من كفها والمعاصم

١- البهم : البهائم . السمائم : رياح السموم الحارة .

التي بدت تتقي نظراته بيديها، ثم راح يصوغ حول نضارة الكف ونعومته ، وبياض الأصابع صورة كلية لهند ، تلك المحبوبة التي يشك هو نفسه في امكانية روءيتها حقيقة (أم أنت حالم).

.. .. ..

٢- جدلية المحب / الواشي

وتضم هذه الجدلية ذلك الصراع الخفي حينا والصريح أحيانا ، الذي كان يثور بين المحب والمحبوب من جهة ، وبين الوشاة والمبغضين والحاسدين ، والأهل أقارب وأزواجا .

ذلك أن صرامة التقاليد الاجتماعية وقسوة الأعراف الدينية ، حالت دون المحبين ولقاء من يحبون غير عابئة بما يلاقون من حرمان أورثهم مشاعر دفينة من الحزن والألم ، ومن هنا كان لابد لتلافي هذه التقاليد من اللجوء الى وسائل بديلة للقاء جهرا وأمام المجتمع . فكان المحبان يتلاقيان اما متنكرين ، أو يضربا موعدا للقاء بعد نوم الأهل في سكون الليل ، أو بالتلاقي في بلاد تنأى كثيرا عن موطنهما الأصلي . وفي نفس الوقت لعبت لغة العيون والاشارات دورا مهما في ابلاغ رسائل العاشقين ، والتي كانت تقوم أحيانا على تعمد اظهار البغض أو منح الطرف غير المقصود من المحبين وغير ذلك ، وعموما فان جهود الوشاة وصرامة الأهل وبغض الكاشحين

لم تحل على الأقل في الشعر بين الحبيب وحبيبه .

وبداية فان معنى وجود وشاة ووشاية ، وكاشحين وحراسة قوية من الأهل ، أن حرية الحب والاختلاط اما منعدمة ، أو تتم في أضيق الحدود . والمتأمل في الشعر الأموي سوف يلحظ على الفور أن تنزيه الشاعر لبعض النساء عن ملاقاة الرجال ، مما مرّ بنا في الجدلية السابقة ، ووصفها بصفات منها الفها للحجال ، وكونها غريرة ، ليس فيها مايدنسها ، يعني أن الارستقراطية العربية الأموية على الأقل كانت بعيدة عما يحدث من ابتذال وسفور ، كما يبدو أن هذه المخالطة بين الجنسين على نحو مانستشف من روايات أبي الفرج الأصبهاني ، لم تكن تتم الا في طبقة القيان والمغنيات الدخيلة على بيئة الحجاز ، والقادمة من الأقاليم المفتوحة .

ومعنى هذا ببساطة أنه داخل طبقة الأشراف العربية ، التي نتوقع أن نجد فيها هذه المرامة الاجتماعية يكثر الوشاة والمبغضون ، وفيها أيضا يكثر الشعر الذي يصور المرأة على نحو مدهش وغريب ، مما يجعلنا نتشكك كثيرا في حقيقة ماكان يحدث ، وهو كما رأينا تعبير وصياغة فنية

أكثر منه حقائق علمية قد وقعت .

وفيما يتصل بورود أبيات عن الوشاة والكاشحين ، فانه من الملاحظ أنه لم ترد في الشعر الأموي والاسلامي مقطوعات مخصصة من شكوى اللائمين والكاشحين ، وانما تأتي أبيات الشكوى من اللّوام والمبغضين عادة ، اما في أبيات تالية لأبيات الجدل بين المحب والحبيب ، وشكواه من الهجر والصد بسبب هؤلاء الوشاة ، وأكثرها في مقطوعات غزلية خالصة تركّزت في شعر عمر بن أبي ربيعة ، أما ماورد من أبيات شكوى العذول في القصائد ذات الشكل أو القالب الجاهلي ، فهي قليلة وتأتي بالمثل في أعقاب الغزل المرتبط بالمطالع الطللية أو بدونها ، وبصفة عامة فان شكوى المحبين من الوشاة أيّا ما كان شكل القصيدة التي وردت فيها ، انما يدل دلالة واضحة على تقييد حرية بشكل ما عانى منه الناس في هذه البيئة .

(٨٨)
يقول جرير :-

أَرَاحَ الحيُّ مِنْ إِرَمِ الطَّرَادِ ... فَمَا أَبْقَوا لِعَيْنِكَ مِنْ سَوَادِ

---

٨٨) شرح ديوان جرير ، : ٨٩ .

١- ارم الطراد : المكان الذي يذكر الشاعر أطلاله .

أَرَاعِي الكَاشِحِيْنَ وَأَتَّقِيهِمْ كَأَنِّي كَاشِحٌ لَهُمْ مُعَادِي[1]

ويقول (٨٩) :-

فَإِنِّي وَلَوْ لَامَ العَوَاذِلُ مُوْلَعٌ بِحُبِّ الغَضَا مِنْ حُبِّ مَنْ لَا يُزَايِلُهُ.

ويقول (٩٠) :-

وَإِنِّي وَإِنْ كَانَتْ إِلَى الشَّامِ نِيَّتِي يَمَانِي الهَوَى أَهْلُ الْمَجَازَةِ آلِفُ[2]

وَإِنَّ الَّذِي بُلِّغْتِ رَقَّاهُ نِسْوَةٌ نَفَسْنَ عَلَيْكِ الحُسْنَ سُودٌ زَحَالِفُ[3]

ويقول (٩١) :-

وَدِّعْ أُمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ إِنَّ الوَدَاعَ إِلَى الحَبِيبِ قَلِيلُ

تِلْكَ القُلُوبُ صَوَادِياً تَيَمَّمْنَهَا وَأَرَى الشِّفَاءَ وَمَا إِلَيهِ سَبِيلُ

.....

قَالَ العَوَاذِلُ قَدْ جَهِلْتَ بِحُبِّهَا بَلْ مَنْ يَلُومُ عَلَى هَوَاكِ جَهُولُ

---

١ - الكاشحين : الاعداء .

٨٩) نفسه ، : ٣٥٩.

٩٠) نفسه ، : ٢٨٧.

٢ - آلف : أعشق وأحب

٣ - زحالف : دويبات صغيرة سود اء.

٩١) نفسه ، : ٣٥٤.

ويقول الأخطل(٩٢) :-

أَذَلْفَاءُ كَمْ مِنْ كَاشِحٍ لَكِ جَاءَنِي ... فَأَحْفَظْتُهُ إِذْ جَاءَنِي يَتَنَصَّحُ[١]

يَقُولُ أَفِقْ عَنْ ذِكْرِ ذَلْفَاءَ وَانْسُهَا ... فَمَا لَكَ مِنْ حَتْفِ المَنِيَّةِ مَجْمَعُ[٢]

فَقُلْتُ اجْتَبَتْنِي لَا أَبَا لَكَ وَاطَّرِحْ ... فَفِي الأَرْضِ عَنِّي إِذْ تَبَاعَدْتَ مَطْرَحُ[٣]

ويقول الأحوص(٩٣) :-

مِنْ عَاشِقَيْنِ تَرَاسَلَا وَتَوَاعَدَا ... بِلِقَاءَ إِذْ نَجْمُ الثُّرَيَا حَلَّقَا

بَعَثَا أَمَامَهُمَا مَخَافَةَ رِقْبَةٍ ... رَصَداً فَمَزَّقَ عَنْهُمَا مَا مَزَّقَا[٤]

بَاتَا بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ وَأَلَذِّهَا ... حَتَّى إِذَا وَضَحَ الصَّبَاحُ تَفَرَّقَا

---

٩٢) ديوان الأخطل ، : ٦٧ .

١- أحفظته : آثرت عداوته .

٢- حتف المنية : الموت .

٣- اجتبتني : سلبتني

٩٣) شعر الأحوص الأنصاري ، : ١٦٢ .

٤- الرصد : جمع راصد ، من رصدته اذا قعدت له على طريقة تترقبه .

ويقول (٩٤) :-

يَابَيْتَ عَاتِكَةَ الذيْ أَتَعَـــزَّلُ ... حَذَرَ العِدَى وَبِهِ الفُؤَادُ مُوَكَّلُ[١]

أَصْبَحْتُ أَمْنَحُكَ الصُّدُوْدَ وإِنَّنِـي ... قَسَماً إِلَيْكَ مَعَ الصُّدُوْدِ لأَمْيَـلُ

.....

وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْكَ بَعْضَ مَصَابَتِي ... وَلَمَا كَتَمْتُ مِنَ الصَّبَابَةِ أَطْـوَلُ

فَصَدَدْتُ عَنْكَ وَمَاصَدَدْتُ لِبُغْضَـةٍ ... أَخْشَى مَقَالَةَ كَاشِحٍ لايَعْقِـلُ[٢]

.....

وَتَجَنُّبِي بَيْتَ الْحَبِيْـبِ أَوَدُّهُ ... أَرْضِي البَغِيْضَ بِهِ حَدِيْثُ مُعْضِـلُ[٣]

وَلَئِنْ صَدَدْتُ لأَنْتَ لَوْلاَ رِقْبَتِـي ... أَهْوَى مِنَ اللاَئِيْ أَزُوْرُ وَأَدْخُـلُ[٤]

---

٩٤) نفسه ، : ١٦٦ - ١٦٧.

١- عاتكة : اسم صاحبته . أتعزّل : أتجنب .

٢- لبغضة : لكراهة .

٣- البغيض ١ : العدو القاره .

٤- رقبتي : الرقباء .

ان المتأمل في مقطوعة الأحوص الغزلية الأخيرة ، سوف يلاحظ أنها قامت على مقولة أساسية هي تضليل الوشاة والكاشحين ، عن طريق افتعال الصد والهجر افتعالا مع من يهواه ، ومن هنا فان لغة هذه المقطوعة على قصرها تستدعي وقفة ، لنتأمل كيف صاغ الشاعر هذا المعنى ، فقد استخدم كلمة الصد ، وكرر هذه الكلمة ومشتقاتها تكرارا لافتا بحيث غدت الكلمة واردة في كل الأبيات تقريبا ، ثم هو يستخدم الفعل (أتعزّل) وهو في أحد معانيه (صد) بالمثل وكذلك (تجنب) ، واللافت أيضا أنه (يمنح) الصد والفعل (منح) يفيد معنى العطاء مع الرضا ، فهو لايريها منه القرب والتلاقي، ولكنه برضى نفسه يريها الصد ، عامدا حتى يتلافى الوشاة ، والدليل على ذلك اتيانه بمصطلحات الهوى والحب بتكرار لافت كذلك ، ذلك أن فؤاده موكل ببيت عاتكة ، وهو أميل اليها بعد الصدود ، ثم انمايكتمه من الصبابة أكثر مما يعلنه ، وماكان صده عن (بغضه) ، ولكنه (يود) هذا الحبيب ، ولم تكن تلك العبارات جميعا بما تدل عليه من شدة الوجد والتعلق بقادرة على التغلب على سطوة الأعداء وقسوة التقاليد ، ممثلة في حقول دلالية مضادة للحقول الأولى فرعية وأصلية ، فالشاعر (يحذر

العدى) ويخشى (مقالة كاشح لايعقل ، وهو يرضي البغيض ذي الحديث المعضل، والرقباء) ، فقد نجح هؤلاء جميعا في الضغط على تلقائية الحب و اللقاء، فاضطر المحب المنتصر طبقا لمقولة انتصار الحياة الى اتخاذ سبل أخرى، يتقي بها مايلاقيه من المجتمع ويحفظ هواه بعيدا عن الفشل و التحطيم .

فاذا انتقلنا بجدلية الحب / الوشاة الى شاعر مثل عمر بن أبي ربيعة ، فان الظاهرة سوف تصبح أكثر احتمالا ووضوحا لديه ، فالوشاة يتربصون بعمر ، والكارهون له ولحبيبه يحاولون وأد تلك العلاقة ،ولكنه يتلافى كل هذه المؤامرات بحيل مختلفة ، منها التنكر و افتعال المواقف المختلفة لرؤية من يهوى ، وكأنه يسخر في النهاية من تقاليد المجتمع وعاداته وصرامته ، بتأكيد ايجابية علاقاته وانتصاره ، بل وسعيه المحبوبة ، وهي الطرف الذي ينبغي أن يكون مكنونا مستورا للقائه،وتدبيرها الحيل هي الأخرى بشتى الطرق للقائه و التنعم بوصاله فيقول عمر[٩٥] :-

لقد أرسلت نعم الينا أن ائتنا فأحبب بها من مرسل متغضب

---

٩٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ١ : ٥٥ - ٦٦.

فَأَرْسَلَتْ أَنْ لا اسْتَطِيعُ فَأَرْسَلَتْ ... تُؤَكِّدُ أَيْمَانَ الحَبِيبِ المُؤَنَّبِ

فَقُلْتُ لِجَنَّادٍ: خُذِ السيفَ واشْتَمِلْ ... عَلَيْهِ بِحَزْمٍ وارْقَبِ الشمسَ تَغْرُبِ

وأَسْرِجْ لِيَ الدَّهْمَاءَ وانْهَبْ بِمَطْرِي ... ولاتَعْلَمَنَّ حَيّاً مِنَ النَاسِ مَذْهَبِي

وَمَوْعِدُكَ البَطْحَاءُ مِنْ بَطْنِ يَأْجُجٍ ... أو الشَّعْثُ ذو المَمْرُوخِ مِنْ بَطْنِ مُغْرِبِ

فَلَمّا الْتَقَيْنَا سَلَّمَتْ وتَبَسَّمَتْ ... وَقَالَتْ كَقَوْلِ المُعْرِضِ المُتَجَنِّبِ

أَمِنْ أَجْلِ وَاشٍ كَاشِحٍ بِنَمِيمَةٍ ... مَشَى بَيْنَنَا صَدَّقْتَهُ لَمْ تُكَذِّبِ ؟

قَطَعْتَ حِبَالَ الوَصْلِ مِنّا وَمَنْ يُطِعْ ... بِذِي وِدِّهِ قَوْلَ المُحَرِّشِ يُعْتَبِ

فَبَاتَ وِسَادِي ثَنْيَ كَفٍّ مُخَضَّبٍ ... مُعَاوِدُ عَذْبٍ لَمْ يُكَدِّرْ بِمَشْرَبِ

إِذَا مِلْتُ: مَالَتْ كَالشَّبِيبِ رَخِيمَةً ... مُنَعَّمَةً حُسَّانَةَ المُتَجَلْبِبِ .

ويقول(٩٦) :-

أَبْلِغْ سُلَيْمَى بِأَنَّ البَيْنَ قَدْ أَفِدَا ... وانْبِئْ سُلَيْمَى بِأَنّا رَائِحُونَ غَدَا

وقُلْ لَهَا كَيْفَ أَنْ يَلْقَاكِ خَالِيَةً ... فَلَيْسَ مَنْ بَانَ لَمْ يَعْهَدْ كَمَنْ عَهِدَا

نَعْهَدْ إِلَيكِ فَأَوْفِينَا بِمَعْهِدِنَا ... يَا أَصْدَقَ النَّاسِ مَوْعِداً إِذَا وَعَدَا

وَأَحْسَنَ النَاسِ فِيْ عَيْنِيْ وَأَجْمَلُهُمْ ... مِنْ سَاكِنِ الغَوْرِ أَوْ مَنْ يَسْكُنُ النَّجَدَا

---

٩٦) نفسه ، ١ / ٨٧ - ٨٨ .

.....

.....

كَمْ بِالحَرَامِ وَلَو كُنَّا نُحالِفُـــه ... مِنْ كاشِحٍ وَدَّ أَنَّا لانُرى أَبَـــدا

حُمِّلَ مِنْ بُغْضِنَا غِلاًّ يُعَالِجُـــهُ ... فَقَدْ تَمَلاَّ عَلَيْنَا قَلْبُهُ حَسَـــدَا

وذاتِ وَجْدٍ عَلَيْنَا مَاتَبُوحُ بِـــهِ ... تُحْصِي اللَيَالِيْ إذا غِبْنَا لَهاعَدَدَا

.....

قَامَتْ تراءى علىٰ خَوْفٍ تُشَيِّعُنِـــي ... مَشْيَ الحَسِيرِ المزجَّ جُشَّمَ الصُّعَـــدا

.....

فكانَ آخرَ ماقالَتْ وقدْ قَعَـــدتْ ... أَنْ سَوْفَ تُبْدِي لهنَّ الصَّبْرَ والجَلَدا

ويقول(٩٧) :-

كَتَبَتْ تُعْتِبُ الرَّبَابُ وَقَالَـــتْ : ... قَدْ أَتَانَا مَاقُلْتَ فِيْ الأَشْعَـــارِ

سَادِراً عَامِداً تُشَهِّرُ باسْمِـــي ... كَيْ يَبُوحَ الوُشاةُ بالأَسْـــرَارِ

---

٩٧) نفسه ، ١ : ١٥١.

فاعْتَزِلْنَا فَلَنْ نُجَدِّدَ وَصْلاً ... ما أَضَاءَتْ نُجُومُ لَيلٍ لِسارِ

قلتُ : لا تصْرِمِي لِتَكْثِيرِ واشٍ ... كَاذِبٍ في الحديثِ والأَخْبَارِ

لَمْ نبحْ عِنْدَهُ بِسِرٍّ ولكنْ ... كَذِبٌ مَا أَتَاكِ والجبَّارِ !

لاتُطِيعِي فإنّني لم أُطِعْهُ ... أنتِ أَهْوَى الأَحْبَابِ والأَجْوَارِ .

ويقول (٩٨) :-

هَجَرْتِ الحبيبَ اليومَ منْ غيرِ ما اجْتَرمْ

وَقَطَّعْتِ من ذِيْ وُدِّكِ الحَبْلَ فانْصَرَم

أَطَعْتِ الوشاةَ الكَاشِحينَ ومنْ يطعْ

مَقَالةَ واشٍ يَقْرَعِ السِّنَّ مِنْ نَدَم

أَتَانِي رسولٌ كنتُ أَحْسَبُ أنَّهُ

شَفِيْقٌ عَلَيْنَا نَاصِحٌ كالذي زَعَم

فَلَمَّا تَبَاثَثْنَا الحديثَ وبَيَّنَتْ

سرائرهُ عنْ بعضِ ماكانَ قدْ كَتَم

---

٩٨) نفسه ، ١ : ٢٩٨.

تَبيّنَ لي أنّ المحـــــرّشَ كَـــــاذِبٌ

ومِنْ يُطِـــعِ الوَاشِيْنَ أوْ زَعْمَ مَنْ زَعَـــمْ

يُصَـــرَّمْ بِظُلْمٍ حَبْلَـــهُ مِنْ خَلِيْلِـــــهِ

وَشِيكاً وَيَجْذِمْ قُوَةَ الحبلِ مَاجَـــــــذَم

ويقول عمر في أبيات حرض على أن يكون المحرض فيها على اللقاء هو المرأة عن طريق التحايل وخداع الأهل :- (٩٩)

ألمْ تَسْأل الأطلالَ والمتربّعَـــا بِبَطْنِ حُلَيّاتٍ دَوَارِسَ بَلْقَعَـــا[١]

.....

فَيَبْخَلْنَ أوْ يُخْبِرْنَ بِالْعِلْمِ بَعْدَمَا نَكَأْنَ فُؤَاداً كَانَ قِدْماً مُفَجَّعَـــا

بِهندٍ وأتْرَابٍ لِهِنْدٍ إذْ الهَـــوَى جَمِيْعٌ وإذْ لَمْ نَخْشَ أنْ يَتَصَدَّعَـــا

.....

---

٩٩) نفسه ، ٢ : ١٩٧ - ١٩٩.

١- دوارس : ممحوة . بلقع : خالية لاحياة فيها.

فقلتُ لمُطْعِمِيهِنَّ : وَيْحَكَ ! إنّما ضَرَرْتَ فَهَلْ تَسْطِيعُ نَفْعًا فَتَنْفَعَا

.....

لَئِنْ كانَ ماحَدَّثْتَ حَقاً فَمَا أَرَى كَمِثْلِ الأُلَى أَطْرَيْتَ فِي النَاسِ أَرْبَعَا

فَقَالَ : تَعَالَ انظُرْ فقلتُ :وكيفَ لي؟ أَخَافُ مَقَاماً أَنْ يشِيعَ فَيَشْنُعَا

فقَالَ : اكْتَفِلْ ثُمَّ الْتَئِمْ وَ ائتِ بَاغِياً فَسَلِّمْ وَلاتُكْثِرْ بِأَنْ تَتَوَرَّعَا [١]

فَانِيْ سَأُخْفِي العَيْنَ عَنْكَ فَلا تَرَى مَخَافَةَ أَنْ يَفْشُو الحَدِيْثَ فَيُسْمَعَا

فأقبلتُ أَهْوِي مَثْلَمَا قَالَ صَاحِبِي لِمَوْعِدِهِ أُزْجِي قُعُوداً مُوَقَّعَا [٢]

فلمّا تَوَاقَفْنَا وسَلَّمْتُ أَشْرَقَتْ وجوهٌ زَهَاهَا الحُسْنُ أَنْ تَتَقَنَّعَا [٣]

تَبَالَهْنَ بالعِرْفانِ لَمَّا رَأَيْنَنِي وقُلْنَ : امرؤٌ بَاغٍ أَكَلٌّ وَأَوْضَعَا!

وقرَّبْنَ أسبابَ الهَوى لِمُتَيَّمٍ يَقِيْسُ ذِرَاعاً كُلَّمَا قُسْنَ اصْبَعَا

فلمّا تَنَازَعْنَ الأَحَادِيْثَ ، قُلْنَ لِي: أَخِفْتَ عَلَيْنَا أَنْ نُغَرَّ وَنُخْدَعَا؟ [٤]

---

١ - اكتفل : أي اجعل فوق بعيرك مركبا . التئم : تنكر . باغيا : صاحب حاجة .

٢ - أهوى : جئت مسرعا . أزجي : أقود .

٣ - أكلّ و اوضعا : أتعب و أسرع .

٤ - تنازعن الحديث : تبادلن الحديث .

فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً ... إليك وبيّنّا له الشأن أجمعا

فما جئتنا إلا على وفق موعدٍ ... على ملاءٍ منّا خرجنا له معا

رأينا خلاءً من عيونٍ ومجلساً ... دميث الربا سهل المحلة ممرعا

وقلنا كريمٌ نال وصل كرائمٍ ... فحُقّ له اليوم أن يتمتّعا

ومن الطبيعي أن نقول ان جدلية المحب / الواشي ، من الناحية اللغوية تطرح لنا عبر الأبيات تلك المفارقة الحادة بين الحب بتداعياته: الود ، الغرام الوجد ، الوله ، وغير ذلك ، وبين الوشاة والكاشحين والحساد والمبغضين ، فيوظف كل منها في التعبير عن تلك العلاقة ، على أن المتأمل في صورة المرأة في أبيات الغزل التي أوردها لنا كثير من الشعراء ومنهم عمر بن أبي ربيعة ، والأحوص ، سوف تلفته صورة المرأة التي تزين جيدها باليا قوت (كأنه جمر الغضى) أو كأنها الشهب المشتعلة . وقد يبدو أن وجه الشبه العارض هو الاحمرار والتوهج مثل نار الغضى ، أو الشهاب على أن الأمر لايخلو من مغزى رمزي ، فالشهاب قطعة مشتعلة من نيازك تنقض بسرعة كبيرة ، كما أن خشب الغضى هو أكثر الأخشاب احتراقا

وتوهجا بدون دخان ، فكأن ناره نار خالصة بلا ادعاء ، وكون الشاعريحيط بالنار والنيازك جيد المحبوبة ، فكأنه يجعلها محوطة بما لايطـــــاق ولايقدر عليه مقترب أو مجترىء.

والصورة بذلك ليست بعيدة عما تصوره الشعراء وأرادوا أن يبثـــوه في رسائل رمزية عبر الشعر ، استياء وغضبا على التقاليد والأهل والوشاة.

يقول الأحوص (١٠٠) :-

يُزينُ لَبَّتَهَا دُرٌّ تَكَنَّفَـــهُ ... نُظَّامُهُ فَأَجَادُوا السَّرْدَ إِذْ سَرَدُوا[1]

دُرٌّ وشذرٌ ويـاقوتٌ يُفَصِّلُـــهُ ... كَأَنَّهُ إِذْ بَدَا جَمْرُ الغَضَا يَقِدُ.

ويقول عمر بن أبي ربيعة (١٠١) :-

ولقدْ دخلتُ الحَيَّ يُخْشَى أَهْلُه ... بَعْدَ الهُدوءِ وبَعْدَما سَقَطَ النَّدَى

فوجدتُ فيهِ حُرَّةً قدْ زَيَّنَتْ ... بالحَلْيِ تحسَبُهُ بِهَا جمرَ الغَضَـــا

لمَّا دخلتُ منحتُ طَرْفِي غيرَها ... عَمْداً مَخَافَةَ أَنْ يُرَى رِيْعُ الهـــوى

---

١٠٠) شعر الأحوص الأنصاري ، : ٩٣.

١- اللبّة: موضع القلادة من الصدر. تكنفه نظامه: أي ان الذين نظموا العقد أحاطوا به وعكفوا عليه.

١٠١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ١ : ١٨.

ويقول(١٠٢) :-

يَرْفِلْنَ فيْ مِطرفاتِ السّوسِ آونـــةً وفي العتيقِ من الديباجِ والقصبِ

ترى عليهنّ حَلْيَ الدّر مُتّسقـــــاً معَ الزَبَرْجَدِ والياقوتِ كالشُّهُـــبِ

.. .. ..

---

١٠٢) نفسه ، ١ : ٥٦ - ٥٧.

٣- جدلية المحب / السلطة السياسية

وأعني بهذه الجدلية الأخيرة من شعر الحب والحياة ، ذلك الصراع الخفي ، والمعلن بين الشاعر بوصفه ممثلا لحزب سياسي ، أو فرقة دينية ذات بعد سياسي ، وبين السلطة السياسية القائمة في الحكم . وهو صراع كان يتخذ من الشعر وسيلة له ، ومن الغزل بصفة خاصة أداة نفسية ، أوعدة عصبية يلهبون بها نفوس أعدائهم . انها حرب تستخدم فيها النساء تشبيبا ووصفا ضد أعصاب الرجال ، كما يقول د. طه حسين وسواء أكانت القصيدة خالصة للغزل ، أو كان الغزل جزءا منها فان الجديد في الأمر أن يستخدم الغزل وبشكل مباشر وجريء أداة لصراع سياسي ، ويرى د. طه حسين ان ابن قيس الرقيّات هو أول من ابتدع الغزل الهجائي ، فسن له ولغيره هذه السنة ويلغ من هذا الغزل الهجائي مالم يبلغه أحد من شعراء العصر الأموي (١٠٣) .

---

١٠٣) د. طه حسين ، حديث الأربعاء ، : ٢٥٠ - ٢٥١.

وهذا يعني أن الأمر هنا لايحتاج الى كثير من الجهد لكشف رمز غامض ، أو جلاء موقف نفسي يتدثر باللغة أو الصورة المبهمة ، أو الاشارة التي لاتبين تعبر عما يجول في نفس الشاعر ، من ضيق وتبرم بما يدور حوله اجتماعيا وانسانيا ، كما رأينا عند ابن أبي ربيعة والأحوص .

ومهما (١٠٤) قيل عن الشاعر الذي بدأ توظيف الغزل في السياسة ، هل هو عبد الرحمن بن حسان أو ابن قيس الرقيّات أو أبو دهبل الجمحي ، فان الذي لاشك فيه أن وظيفة الغزل ومكانته في القصيدة العربية قد تغير تغيرا ليس بالقليل في العصر الأموي على الأقل .

واجه (١٠٥) المسلمون اثر مقتل عثمان بعض المشاكل السياسية والدينية لعل أهمها على الاطلاق انتخاب الخليفة الجديد ، الذي يحفظ عليهم نظامهم وسلطانهم ، ويقيم فيهم حدود الله . ومن هنا فقد سارع المسلمون في المدينة الى مبايعة علي بالامامة وألحوا عليه في قبولها . ولذا فقد

---

١٠٤) انظر ، غانم جواد رضا ، الغزل السياسي في العصر الأموي، ١٩٨٣م ، ص١٨-١٩.

١٠٥) انظر، د.ابراهيم عبد الرحمن، شعر ابن قيس الرقيات ، مكتبة الشباب ص٩ - ١٢.

ظهرت بوادر الفتنة منذ أن جلس علي لأخذ البيعة، فقد امتنع عليه نفر من الصحابة ، أبوا أن يبايعوه فلم يلح عليهم ، ولم يسع الى اكراههم على بيعته ، ولكنه اضطر فيما بعد اضطرارا الى خوض معركة الجمل ضد الخارجين عليه ، وعلى رأسهم السيدة عائشة ، وفي هذه الموقعة قتل طلحة والزبير ، وعقد أهل البصرة صلحا مع علي واعترف العراق كله بولايته ، فبقى هناك ، واتخذ الكوفة مقرا له .

أما في الشام حيث أقام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، معاوية واليه القوي ، فقد كادت الأمور تنتهي لصالح علي بن أبي طالب - كرّم اللّه وجهه - في صفين حيث أحرز علي والعراقيون انتصارا حاسما سريعا ، لولا خدعة التحكيم مما أسفر عن انشقاق المسلمين الى ثلاثة أحزاب وهم ، شيعة علي في العراق و الحجاز ، وأنصار لمعاوية في الشام ، وخوارج يبغضون الطرفين عليا ومعاوية ، ويرون في سلطان قريش خطرا على الدين ، وخطرا على المسلمين . وهكذا تفرقت كلمة المسلمين ، ومنذ ذلك اليوم انقسمت

الدولة الاسلامية الى دولتين ، دولة أمرها الى معاوية وقوامها الشام ومصر ، ودولة أمرها الى علي وقوامها العراق وجزيرة العرب .

وقد انتهى الأمر الى معاوية بعد أن دبر الخوارج مقتل علي ، وارتضى الحسين البيعة له ، واستقل معاوية بالحكم في بني أمية ، وتحول به الى ملك يورثه الآباء للأبناء .

(١٠٦)
أما مايتصل بالحياة الاجتماعية والأدبية في الشام والعراق والحجاز ، فقد أصابها تطور سريع نتيجة الأخذ من الحضارات الوافدة ، والتعايش اليومي معها ، ولاسيما في الحجاز ، بحيث مهد هذا لنهضة واسعة في شتى مناحي الحياة .

(١٠٧)
ولقد كان انتشار الغناء في بيئة الحجاز بصفة خاصة ،

---

١٠٦) انظر ، شعر ابن قيس الرقيات ، : ٣٧ - ٣٩ ، الشباب ٣٧ - ٣٩ .

١٠٧) نفسه ، : ٤١ - ٥١ .

أحد نواحي التطور السريع للمجتمع العربي ، وقد أدى انتشاره الى احداث تغير مماثل ، ومتبادل مع الحياة الاجتماعية ، ذلك أن المرأة العربية خرجت من بيتها وأخذت تشارك في الاستمتاع بهذه الحياة اللاهية ، وتهتم بهذه الفنون الجميلة من شعر وغناء ، وتشارك في تنظيم مجالس الطرب والعناية بها ، وتختلط بالشباب ، وتتعرض للشعراء ، وتطلب اليهم أن ينسبوا بها ليرفعوا من قدرها ، ويخلدوا جمالها .

كذلك كانت المرأة الشريفة في هذا العصر ترى في النسيب بها اشادة بجمالها وتعريفا به ، ولذلك فلم تكن تجد في هذا النسيب غضاضة ، بل على العكس كانت تجد فيه طرافة واعلانا عنها . ومن هنا كنا نقرأ دائما في أخبار الشعراء الحجازيين أشعارا وقصصا عن جميلات مكة والمدينة وغيرهن من النساء الحواج ، من أمثال عائشة بنت طلحة ، وفاطمة بنت الأشعث الكندية ، وسكينة بنت الحسين ، وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وغيرهن .

فاذا عدنا الى الغزل السياسي ذلك الفن الجديد ، الذي ابتدعه الشعراء المسلمون في العصر الأموي ، ممنخاضوا غمار السياسة متخذين منه وسيلة سياسية - كما أوضحنا - للنيل من خصومهم السياسيين ،والازراء بهم ، والحط من شأنهم ، ويبدو لنا من دراسة أغلب نماذج الشعر السياسي الغزلي ، أنه لم يكن يهدف بالدرجة الأولى الى الاساءة الى المرأة ذاتها ، أو فضحها وخدش كرامتها ، ولذا فقد كان الشاعر في الغالب يتلطف الى المرأة التي يتغزل فيها كما سوف نرى .

فقد تغزل العرجي بأم محمد بن هشام (١٠٨) ، الوالي الأموي المخزومي ويقال لها جيداء ، وكان ينسب بها ليفضح ابنها لا لمحبة كانت بينهما ، فكان ذلك بسبب حبس محمد ايّاه وضربه له حتى مات بالسجن فيقول(١٠٩) :-

عُوجِي عَلَيْنا رَبّةَ الهَوْدَجِ ... انّكَ إنْ لاتَفْعَلِي تَحْرَجِي

أيسرُ مَانَالَ مُحِبٌّ لدى ... بَيْنِ حبيبٍ قَوْلَه : عَرّجِ

نقضِي اليهِ حاجةً أوْ يَقُلْ : ... هلْ لي مِمّا بي مِنْ مَخْرَجِ

---

١٠٨) انظر الأغاني ، ١ : ٣٨٥ - ٣٨٦.

١٠٩) الغزل السياسي في العصر الأموي ، : ٢٨.

وانطلقتْ تَهْوِي بها بَغْلَـــــةٌ ... في بغلاتِ وقحَ وسـسـجِ [١]

يحملنَ بيضاً جردًا بدّنـــــا ... مثلَ غمامِ البردِ المثلـــجِ [٢]

قمتُ طويلاً بعدَمَا أدبـــرُوا ... أنظرُ فعلَ المقحمِ المرتـــجِ

أقولُ لما فاتني منهـــــم ... ماكنتَ مِنْوَصْلِهم أَرْتَجِـــي :

اني أُتِيْحَتْ لي يمانيـــــةً ... احدى بني الحارثِ مِنْ مَذْحَـجِ

نلبثُ حَوْلاً كامِـــلاً كلَّـــه ... لَانْلْتَقِي إلاّ علىٰ مَنْهَـــجِ

في الحجِ إنْ حَجّتْ وماذا مِنـــيَ ... وأهلُه إنْ هيَ لمْ تَحْجُـــجِ .

والملاحظ هنا أن الشاعر وهو يتغزل بأم الوالي لايذكر لنا شيئـــا لا عن اسمها ، ولاعن صفاتها التي تجعلنا نعتقد اعتقادا جازما فـــي شخصيتها بالتحديد . فهو يذكر في مطلع قصيدته أنها (ربّة الهـودج) ،

١- وقح : الصلاب الحوافر التي لاتوءثر فيها الحجارة . وسبـــح : جمع واسجة وهي السريعة .

٢- الجرد : جمع جرداء ، وهي الجارية الملساء الصافية البشرة .

ولو أن جيداء هذه ماكانت من بني الحارث بن كعب بن مذحج لظلت شخصيتها مجهولة تماما لقارىء شعره . وألفاظ الشاعر من ناحية أخرى ليس فيها افحاش أو هتك للحرائر ، فلا هي تصف تجربة جنسية ، ولاتشي عن طريق الايحاء والرمز بمثل هذه التجربة ، بل ان الشاعر كان حريصا على اثبات أنه لم ينل منها نائلا ، وأنها كانت تلبث حولا كاملالاتلقاه الا حاجّة ، فاذا لم تحج لم يلقها .

وفي قصيدته التي تشبب فيها (بجبرة) زوج محمد بن هشام ، يتقدم الشاعر خطوة أكثر اقترابا وملامسة من المرأة التي يشبب ، وهو في هذا لاينطلق كما ذكرنا من تجربة شخصية بقدر ماينطلق من رغبة دفينة في التلاعب بأعصاب خصمه ، ذلك الوالي وأبا ماكان سبب الخلاف السياسي بينهما (١١٠) .

---

١١٠) انظر الأغاني ، ١ : ٤٠٥ - ٤٠٦ ، ٤١٠ ، حديث الأربعاء ، ١ : ٢٤٤.
يقول الأصبهاني : كان محمد بن هشام خال هشام بن عبد الملك،

= فلما ولي الخلافةولاه مكة وكتب اليه أن يحج بالناس فهجاه العرجي بأشعار كثيرة منها قوله فيه :-

كأن العام ليس بعام حج تغيرت المواسم والشكول

الى جيداء قد بعثوا رسولا ليخبرها فلا صحب الرسول

ومن أسباب الخلاف بينهما كما يذكر صاحب الأغاني " أن العرجي لاحى مولى كان لأبيه فأمضّه العرجي ، فأجابه المولى بمثل ماقاله له ، فأمهله حتى اذا كان الليل أتاه مع جماعة من مواليه وعبيده فهجم عليه في منزله وأخذه وأوثقه كتافا ، ثم أمر عبيده أن ينكحوا امرأته بين يديه ففعلوا ثمقتله وأحرقه بالنار ،فاستعدت امرأته على العرجي محمد بن هشام فحبسه " ، ويقال: " ان العرجي كان وكّل بحرمه مولى له يقوم بأمورهنفبلغه أنه يخالف اليهن، فلم يزل يرصده حتى وجده يحدث بعضهن فقتله وأحرقه بالنار،فاستعدت عليه امرأة المولى محمد بن هشام المخزومي ، وكان واليا على مكة في خلافة هشام، وكان العرجي قد هجاه قبل ذلك هجاء كثيرا لما ولاه هشام الحج ، فأحفظه ، فلما وجد عليه سبيلا ضربه وأقامه على البلس للناس وسجنه حتى مات في سجنه".

ويرى د. طه حسين أن العرجي حاول السياسية وأراد أن يكون له شأن في أمور الدولة فلم يفلح ، وأحسب أنه لم يتعز من هذا

==

يقول العرجي(١١١) :-

عُوجِي عليَّ وسَلِّمِي جَبْرُ ... فِيمَ الصدودُ ؟ وأنتُمُ سَفْرُ

فَكَفَى بِه هجراً لَنَا ولكُمْ ... أنى وذلكَ فاعْلَمِي الهجرُ

لا نلتقِي الا ثَلاثَ مِنًى ... حتَّى يشتتَ بيننَا النَّفْرُ

بالشهرِ بعدَ الحولِ تتبعُه ... ما الدهرُ إلاَّ الحولُ والشهرُ

لو كنتِ ماكثةً عَذَرْتُكُم ... لِبِعَادِنا ولَكَانَ لي صَبْرُ

عنْ حبِّكُم ونذرتُ صَرْمَكُم ... حيناً وهلْ لِمُتَيَّمٍ نَذْرُ

= الاخفاق ، فأضمر في نفسه تأثيرا قويا فأصبح سيىء الخلق فاحش اللسان قليل الرضا عن الناس ، ينصرف عنهم ماصرفه عنهم اللهو والعبث ، فاذا اضطر الى مواجهتهم لم يجدوا منه خيرا ، ومن هنا هجا ناسا وعادى ناسا آخرين . وانتهى به عنفه في حياته الخاصة وسوء خلقه في حياته العامة الى أن ضرب وشهر حتى مات في السجن.

١١١) الغزل السياسي في العصر الأموي ، ٢٩ - ٣٠.

نَظَرَتْ بِمُقْلَةِ مُغْزِلٍ علقَتْ ... فَتَنَاً تَنَعَّمُ ، نَبْتُهُ نضرُ[١]

وعرفتُ منزلةً فقلتُ لَهَا : ... بالقصرِ مر لعهده عصرُ[٢]

أَقْوَى مِنْ آلِ جبيرةَ القصرُ ... فقرانُها فتلاعُها العفرُ

فالبئرُ موحشةً فدراتُها ... فهضابُها الشرقيةُ الحمرُ

مِنْ كلِ خرعبةٍ مبتلةٍ ... صفر الوشاحِ كأنَّهَا بدرُ[٣]

حوراءُ يمنعُها القيامَ إذا ... قَعَدَتْ تمامُ الخلقِ و البهرُ[٤]

زهراءُ يسمو للعلاءِ بها ... آباؤُها عقائلُ زهرُ[٥]

ورثتْ عجائزها العفاف وما ... قدمَنَ مِنْ خَيْرٍ لهُ ذِكْرُ

ويعد عبيد اللّه بن قيس الرقيات واحدا من الشعراء الذين نهضوا بشعر الغزل السياسي ، غير أن الملاحظ أن ظروف الحياة السياسية

١- المغزل : الظبية التي لها غزال .

٢- أقوى : بلى ودرس . الآل : الشخص وهنا الأمل . القران : ماجاور من الأماكن . التلاع : ما ارتفع من الأرض . العفر : المعفرة المغبرة .

٣- الخرعبة : الفتاة الشابة البيضاء اللينة . المبتلة : الدقيقة الخلد .

٤- البهر : الفتور من اعياء أو سمنة .

٥- الزهراء من النساء : الصافية البيضاء فى اشراق . العقائل : الكرائم المخدرات من النساء .

وانغماس ابن قيس الرقيات في أحداثها ، قد حرمه من ذلك الهدوء الذي أتيح لغيره من الشعراء ، فلم يتح له تخصيص نفسه لهذا الشعر الذي شاع في هذه البيئات المترفة ، والذي كان موضوع أغانيها المفضلة ،وربما كانت حاجته الى المال هي التي دفعته الي أن يطرقشعر المديح الي جانب شعر الحب ، فلم يكن ابن قيس ثريا ثراء عمر بن أبي ربيعة ، الذي وقف حياته وفنه وملكته الشعرية على هذا اللون من شعر الحب(١١٢).

والذي يعنينا في هذا المقام أن الشاعر الغزل عبيد الله ابن قيس الرقيات ، يتصل بمصعب بن الزبير بعد كارثة الحرة سنة ثلاث وستين للهجرة ، التي ألمّت بأهله وقومه ، ويصحبه الى العراق ، ويقف شعره على مديحه وتمجيد انتصاراته ، وقد شغفته السياسة وأحداثها عن محبوبته التي تغزل فيها بكثير من المقطوعات والقصائد والتي تدعى

---

١١٢) شعر ابن قيس الرقيات : ١٦٢.

(رقية) . وكذلك ما أخذ فيه من الغزل في نساء الزبيريين ، وهن عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين زوجتا مصعب ، وأخته التي كان يسميها ابنة الحواري ، ثم بنساء الأمويين في قصائده السياسية ، ومعنى هذا أن اتصال عبيد الله ابن قيس الرقيات بالسياسة ، قلّل كثيرا في شعره من مقطوعات وقصائد الغزل الخالص ، وهذا يعني من ناحية ثانية ، أنه باتصاله بمصعب ومديحه اياه وزوجتيه وأخته ، كان لابد من العودة الى البيئة القديمة أو الهيكل القديم للقصيدة العربية المتوارثة التي كان الغزل أحد عناصرها ، وهو في الغالب المطلع الأصيل الذي يمهد به الشاعر لمديحه أو هجائه أو عتابه (١١٣) .

ويعد غزل الشاعر في نساء مصعب نوعا من المديح الدعائى ، الذي كان مقصودا به الترويج لمصعب وأهل بيته ، أما شعره الغزلي في نساء الأمويين ، فقد كان نوعا من الهجاء السياسي ، أو حرب الأعصاب التي يهدف من ورائها الى اغاظة الخليفة الأموي والنيل منه (١١٤) .

---

١١٣) نفسه ، : ١٦٩.

١١٤) نفسه ، : ١٧٢.

ويمدح ابن قيس الرقيات سكينة بنت الحسين زوج مصعب بن الزبير واصفا اياها بأنها قرشية رفيعة الحسب ، من بيت تقوى وبر وصدق بالاضافة الى حسنها وجمالها فيقول(١١٥) : -

ظَعَنَ الأميرُ بأحسنِ الخلقِ ... وغَدَا بلُبِّكَ مَطْلَعَ الشرقِ

مرّتْ على قرنٍ يقادُ بها ... جَمَلٌ أمامَ بَراوِقٍ زُرْقِ[1]

وبدتْ لنا منْ تحتِ كلّتِها ... كالشّمسِ أو كغمامةِ البرقِ

ماصبّحتْ بعلاً بروْءَيتِها ... إلّا غَدَا بكواكبِ الطّلْقِ[2]

فيْ البيتِ ذيْ الحسبِ الرفيعِ ومنْ ... أهلِ التُّقَى والبرّ والصّدْقِ

قُرَشِيّةٌ عَبَقَ العبيرُ بها ... عَبَقَ العبيرِ بعاجةِ الحُقِّ[3]

---

١١٥) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، دار بيروت للطباعة والنشر ، : ٣١ - ٣٢ .

١- قرن : موضع . البرازق : الجماعات من الناس . زرق : من الحديد .

٢- الطلق : يقال يوم طلق وليلة طلقة اذا لم يكن فيها رياح ولاغيره

٣- عبق العبير : لصق .

ويمدح عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير في قالب غزلي مشابه، وان كان يحمل نوعا من اللمز السياسي لأحقية الزبيريين في تولي الخلافة والملك فيقول(١١٦) :-

انّ الخَلِيْطَ قدْ أزْمَعُوا تَرْكِي ... فَوَقَفْتُ في عَرَصَاتِهم أبْكِي [١]

جِنِّيَّةٌ خَرَجَتْ لِتَقْتُلَنَا ... مُطْلِيَّةُ الأقْرَابِ بالمِسْكِ [٢]

قَامَتْ تُحَيِّيْنِي فقلتُ لها : ... ويْلِي عليكِ وَوَيْلَتِي مِنْكِ

لمْ أرَ مثلَكِ لايكونُ لهُ ... خرجُ العراقِ ومنبرُ الملكِ

ترمي لتقتُلَنَا بأسْهُمِهَا ... وَنَزِنُّهَا بالحلمِ والنُّسْكِ [٣]

ويتضح لنا من خلال ما أوردناه من شعره في سكينة وعائشة زوجتي

---

١١٦) نفسه ، : ١٤١.

١- عرصاتهم : جمع عرصة ، وهي الساحة أمام البيت .

٢- الأقراب : مفردها قرب ، وهو الخاصرة ، أو مابين الصدغ والخاصرة.

٣- نزنها : ننسب اليها.

مصعب بن الزبير ، أن غزله فيهما لم يكن فاحشا ، ولم يكن يقصد منه الى فضح المرأة التي يتغزل بها أو الى اسقاط كرامتها أو الاساءة اليها ، بل كان غزلا سياسيا لطيفا يحفظ للمرأة كرامتها ، ويحاول أن ينزلها منزلة تسرّها وترضيها ، ويجنح فيه لمصعب ولمذهبه ، حتى يلتف الناس حوله ويتمكن من النصر على خصومه . ولم يكن هذا الغزل يوءذي زوجتي مصعب ، بل لاشك أنه يفرحهما ، حيث يمتدحهما بالصفات الكريمة ، من أصالة النسب وحسن الخلق ، وجمال الشكل ، ولابد أن كل واحدة منهما يفرحها التغزل فيها وان كان يطري الشاعر جمالهن ، لكي تشعر بتفوقها على ضرتها في نسبها وجمالها ، بدليل قول سكينة لعائشة بنت طلحة : - " أنا أجمل منك ، وقالت عائشة : بل أنا أجمل ، فاختصمتا الى عمر بن أبي ربيعة ، فقال : لأقضين بينكما ، أما أنت ياسكينة فأملح منها ، وأما أنت ياعائشة فأجمل منها ، فقالت سكينة : قضيت لي والله "(١١٧).

---

١١٧) الأغاني ، ١٦ : ٥٩٣٢.

أما فيما يتصل بالغزل السياسى الذي كان من قبيل هجاء الأمويين ، ونعني قصائد ابن قيس الرقيات في أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوج الوليد بن عبد الملك ، وتلك التي خصصها للغزل بعاتكة بنت يزيد ابن معاوية زوج الخليفة الأموي عبد الملك ، فانه قد نحا في هذا الغزل الهجائي منحى جديدا سبق به الشعراء ، فاتحا الباب بعده للعرجي الذي تغزّل بجيداء وجبرة أم الوالي الأموي وزوجه كما مرّ بنا .

وهو من الناحية الفنية لايمس هوءلاء النساء مسّا حقيقيا كما فعل العرجي ، وانما كان يسرف في استخدام ملكة الخيال لديه ، مخترعا من أقاصيص ومغامرات اللهو والغرام ، ومسرفا في توصيلهما اسرافا كبيرا ، واللافت هنا أيضا أنه انما كان يمهد - بحرب الأعصاب هذه - لمديح مصعب والزبيريين والدعاية لهما ، وكأنه يقصد قصدا الى احداث فائدة مزدوجة من منطلق واحد .

أما من الناحية الانسانية ، فلم يكن يهدف الى ايذاء المـــرأة التي يتغزل فيها أو اسماعها لما تكره أن تسمعه وتلقاه ، وانما كـــان يسعى رغم كل ذلك الى ارضائها واثارة اعجابها بما يقوله فيها من شعر .

يقول (١١٨) ابن قيس الرقيّات في مدح عاتكة بنت يزيد ، زوج الخليفـــة الأموي ، في صدر احدى مدائحه لمصعب ، فيما يشبه اللمز السياسي الـــى يزيد أبيها بوصفه سبب تلك الخلافات القائمة .

أَعَاتِكَ بِنْتَ العَبْشَمِيّةِ عَاتِكَـــا ... أَثِيْبِي امْرَأً أَمْسَى بِحُبِّكِ هَالِكَـــا

بَدَتْ لِي فِيْ أَثْرَابِهَا فَقَتَلْتِنِـــي ... كذلِكَ يَقْتُلْنَ الرجالَ كَذِالِكَـــا

نَظَرْنَ إِلَيْنَا بالوجوهِ كأنَّمَـــا ... جلونَ لنَا فَوْقَ البِغَالِ السَّبَائِكَا[1]

اذا غَفَلَتْ عنّا العيونُ التي تَرَى ... سَلَكْنَ بِنَا حيثُ اشْتَهَيْنَ المَسَالِكَـــا

وقالتْ لو انَّا نستطيعُ لزارَكُمْ ... طبيبانِ منّا عالمانِ بِدَائِكَـــا

---

١١٨) ديوان عبيد اللّه بن قيس الرقيات ، : ١٢٨ — ١٣٢ .

١— السبائكا : سبائك الذهب .

ولكنّ قومي أحدثوا بعدَ عهدِنا ... وعهدِك أضغاناً كُلِّفْنَ بِشانِكا

تُذكرني قَتْلى بِحُرّةَ واقِمٍ ... أُصِيْبَتْ وأرحاماً قُطِعْنَ شوابِكا [١]

وقدْ كانَ قومي قَبْلَ ذاكَ وقومُها ... قَدْ أوْرَوْا بِها عوداً منَ المَجْدِ كاسِكا [٢]

همُ يَرْتَقُون الفتقَ بَعْدَ انحراقِهِ ... بِحلمٍ ويَهْدُونَ الحَجِيْجَ المَناسِكا

فقُطِّعَ أرحامٌ وفضَّتْ جماعةٌ ... وعادَتْ رَوَايا الحِلْمِ بَعْدَ رَكائِكا

فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنّي خليليَّ آيةً ... عُيَيْنَةَ أعْنِي بالعِراقِ ومالِكا

فهلْ من طبيبٍ بالعِراقِ لَعَلَّهُ ... يُداوِي كَرِيْماً هالِكاً مُتَهالِكا

فلَوْلا جيوشُ الشّامِ كانَ شفاؤهُ ... قَريباً ولكنّي أخافُ النّيازِكا [٣]

أخافُ الرّدى مِنْ دُونِها أن أرُومَها ... وأرْهَبُ كلباً دُونَها والسّكاسِكا [٤]

رجالٌ هُمُ الأقْتالُ من يَوْمِ راهِطٍ ... أجازُوا الغِوارَ بَيْنَنا والتّسافِكا [٥]

---

١ — حرة واقم: احدى حرتي المدينة وهي الشرقية ، وفيها كانت وقعة الحرة سنة ٦٣ في أيام يزيد.

٢ — العود : القديم من السوءدد.

٣ — النيازك : الرماح .

٤ — بنو السكسك بن أشرس بن كندة.

٥ — يوم راهط : اشارة الى وقعة مرج راهط بين الضحاك بن قيس ، وكان من شيعة ابن الزبير ، ومروان بن الحكم سنة ٦٤. والغوار: مصدر غاور أي جاذب في المغارة والقتال .

.....

على بَيْعَةِ الاسلامِ بَايَعْنَ مُصْعَبـــاً كراديس من خيلٍ وجمعاً ضبارِكا[1]

نفيت بنصر الله عنهم عدوّهـــم فأصبحت تحمي حوضهم برماحكا

تداركت منهم عثرة نهكت بهـــم عدوّهم والله أولاك ذالكـــا ،

وعلى الرغم من ادعاءات الرواة عن صلة الشعراء الأمويين بالنســـاء اللاتي شببوا بهن ، فان صلة ابن قيس في هذه القصيدة بعاتكة لم تكـــن سوى صلة سياسية ، أو هي نوع من الدعاية المضادة للأمويين ، فالشاعـــر كما لاحظنا يحمّل الأمويين وسياستهم الخاطئة تبعات الخلاف وتشتيت الشمـــل بين المسلمين ، ويريد أن يغضب زوجها الخليفة الأموي عبد الملك بـــن مروان ، وليخطىء سياسته التي جرّت الويلات على المسلمين ، وكانت سببـــا في تفريق وحدتهم (وأرحاما قطّعن شوابكا) . فهو يذكر أنه تعلق بحـــب العبشمية عاتكة، وقد أصابه المرض والسقام من جراء حرمانه منها، ولـــولا

١- كراديس : الجماعات . ضبارك : كثير .

الخلاف الذي قطع أوصال العلاقة بين الحيين من العرب ، أرسلت له طبيبا (أعلم بدائك) ، ولكن قومها (أحدثوا أضغانا بعدهما) ، وقد ذكرته القتلى في حرّة واقم ومرج راهط بهذه الأضغان التي لاتزال على الرغم من أن قومه وقومها كانوا قبل ذلك سباقين الى المجد (أوروا بها عودا من المجد تامكا) ، ولقد كانوا أكثر حلما وهدوءا (يرتقون الفتق قبل انخراقه بحلم) ، وهم المطعمون للحجيج في سقايتهم ورفادتهم لهم ، ويحول بينه وبين الحبيبة الآن جيوش الشام ، وكلب والسكاسك . ثم انتقل أخيرا الى مدح مصعب بن الزبير ذلك الفارس القرشي الشجاع البطل ، الذي يحسن التصرف في المعارك ، والذي يسير على مقتضى الشريعة الاسلامية ، فمثله حري أن يتبعه الناس ويبايعونه بالخلافة (على بيعة الاسلام بايعن مصعبا .... الخ) .

ومثل هذا الغزل في عاتكة ، نجده في تشبيب الشاعر

ر بأم البنين في قصيدة أخرى ، وهو يصدرها بالغزل السياسي

في أم البنين ، ويختمها بمدح مصعب ، وكأنه - كما قلنا - يحقق غرضا مزدوجا في وقت واحد . فيقول(١١٩) :-

ألا هَزِئَتْ بِنا قُرَشِيَّةٌ ... يُهْتَزُّ مَوْكِبُهَا

رَأَتْ بِيَ شَيْبَةً فِي الرأ ... سِ مِنِّي ما أُغَيِّبُهَا

فَقَالَتْ : ابنُ قيسٍ ذا ؟ ... وغيرُ الشَّيْبِ يُعْجِبُهَا

رَأَتْنِي قَدْ مَضَى مِنِّي ... وَغَضَّاتٍ صَوَاحِبُهَا

ومثلِكِ قَدْ لهوتُ بِهَا ... تمامُ الحُسْنِ أَعْيَبُهَا

لَهَا بَعْلٌ غَيُورٌ قَا ... عِدٌ بالبابِ يَحْجُبُهَا

يَرَانِي هَكَذا أَمْشِي ... فيُوعِدُها ويَضْرِبُهَا

ظَلِلْتُ على نَمَارِقِهَا ... أُفَدِّيهَا وأَخْلُبُهَا

أحدِّثُهَا فتوءمِنُ لِي ... فَأَصْدُقُهَا وأَكْذِبُهَا

فَدَعْ هذا ولكِنْ حَا ... جَةٌ قَدْ كُنْتُ أَطْلُبُهَا

الى أمِّ البنينَ مَتَى ... يَقُرُّ بِهَا مقرِّبُهَا

---

١١٩) نفسه ، : ١٢١ - ١٢٤ .

أتتني فيْ المنـــام فقـــلْـ ... ـتُ هَذا حِيـــنَ أعْقَبُهَـــا

فَلَمَّا أنْ فَرِحْتُ بِهَـــا ... وَمَالَ علـــيَّ أعْذَبُهَـــا

شَرِبْتُ بريقِهـــا حتـــى ... نهلتُ وبتُّ أشْرِبُهَـــا

وبتُّ ضجيعَهـــا جَـــذلا ... نَ تُعْجِبُنـــي وأعْجِبُهَـــا

وأضْحِكُهَـــا وأبْكِيهَـــا ... وَأُلْبِسُهَـــا وَأسْلُبُهَـــا

أعَالِجُهَا فَتَصْرَعُنِـــي ... فأُرْضِيهَـــا وأغْضِبُهَـــا

فكانتْ ليلةٌ فيْ النـــو ... مِ نَسْمُرُهَـــا وَنَلْعَبُهَـــا

فأيْقَظَنَا منـــادٍ فـــي ... صلاةِ الصُّبـــحِ يَرْقُبُهَـــا

فكانَ الطيفُ مِنْ جنّيـــ ... ـةٍ لمْ يُـــدْرَ مَذْهَبُهَـــا

يوءرِّقُنَـــا إذا نِمْنَـــا ... وَيَبْعُدُ عَنْكَ مَشْرَبُهَـــا

لَمُصْعَبٌ عِنْدَ جِـــدِّ القَـــوْ ... لِ أكثرُهَا وأطْيَبُهَـــا

وأمضَاهَا بألْويَـــةٍ ... يَسُدُّ الفجَّ مِقْنَبُهَـــا

اذا خَرَجَتْ برابيـــةٍ ... سَرَايَاها ومَوْكِبُهَـــا

بِنَصْرِ اللّهِ يَعْلُوهَـــا ... وَيَمْرِيهَا وَيَغْلِبُهَـــا

وَيُذْكِيهَـــا بِكَفّيْـــهِ ... إذا مَالاحَ كَوْكَبُهَـــا.

(١٢٠)

وتكشف لنا تلك القصيدة وسابقتها عن الفرق بين غزله الدعائي في سكينة وعائشة زوجتي مصعب بن الزبير ، وبين غزله الهجائي في عاتكة وأم البنين ، فمن يقرأ تلك القصيدة يظن عند الوهلة الأولى من قراءتها انها من الغزل الفاحش ، حيث أوضح الحب الذي يربطه بأم البنين ومايأسره من جمالها ، ثم ينتقل الى بيان مادار بينهما من لهو وعبث وماتبادلاه من أحاديث ، وكيف استمتع بها على الوجه الذي يريده الى أن قضى حاجته منها ، ولكنه احترز أن يظن بأم البنين السوء ، فتدارك ذلك ، وبين أن علاقته بأم البنين لم تتعد الحلم ، فقد أتته في المنام وحقق مأربه معها ، دون فحش في الألفاظ أو الصور ، وهو يؤكد هذا بأنها كانت ليلة في المنام ، وأنه أيقظه مناد لصلاة الصبح ، وهو أخيرا يخبرنا بأن طيف أم البنين انما كان جنّية على هيئة زوج الخليفة.

والشاعر - كما أكدنا - غير حريص على الاساءة الى من يشبب بهن من النساء . ولذا فهو يبدأ حربه النفسية على الخليفة الأموي مشببا بزوجه ، فيصفه بأنه (بعل غيور قاعد بالباب يحرسها) ، وكأنما لاعمل

---

١٢٠) انظر ، شعر ابن قيس الرقيات ، : ١٧٤.

له سوى متابعة سلوكيات زوجته ، فاذا لاح الشاعر ، أوعدها الـــــــزوج وضربها ، ولكنه - أي الشاعر - نال مأربه منها وصالا وقربا ، حديثا ومسامرة ولهوا . غير أنه يجعل مما قال مجرد أوهم . وفي نفس القصيـــدة ينتقل الشاعر في نقلة ، قد تبدو لأول وهلة فجائية الى مديح مصعـــــب ابن الزبير الموءيد بنصر الله وتوفيقه في حروبه ضد الأمويين . ولكـــن المتأمل في العلاقة بين المديح والغزل الهجائى في أم البنين والأمويين ، لابد أن يلحظ أن المصدر النفسي والروحي لكليهما واحد ، فهو لايهـــدف الا الى محاربة الأمويين نفسيا ، فهو يلجأ مرة الى التلاعب بسير نسائهم دون افحاش ، ثم الى مدح عدوهم قاصدا عامدا .

(١٢١)
لذلك يبدو أن غزله في أم البنين لم يغضبها ، بل ربما أعجبها ،

---

١٢١) انظر ، الأغاني ، ٥ : ١٧٢٠ - ١٧٢٢ .

وهذا مايفسر شفاعتها له عند عمها الخليفة عبد الملك .

وباختصار ان المرأة العربية ولاسيما الشريفة ، كان يعجبها في ذلك العصر أن يمتدحها شاعر بجمالها ، ويشيع ذكرها بين الناس ، لما تنطوي عليه نفسية المرأة من حب الظهور والتعالي بالجمال وتفوقها به على سائر النساء ، ويبدو أن المنافسة في ذلك العصر لم تكن مجرد منافسة بين الأحزاب السياسية المتعارضة فقط ، بل كانت قائمة أيضا بين سيدات تلك الأحزاب ، فالمرأة الأموية تحب أن تتفوق على الزبيرية مثلا ، بدليل أنه عندما " استاذنت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عبد الملك في الحج ، فأذن لها وقال : ارفعي حوائجك واستظهري ، فان عائشة بنت طلحة تحج ، ففعلت فجاءت بهيئة جهدت فيها : فلما كانت بين مكة والمدينة اذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها . فقالت : أرى هذه عائشة بنت طلحة ، فسألت عنها فقالوا : هذه خازنتها . ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك فقالوا :عائشة عائشة ، فضغطهم ، فسألت عنه ،

فقالوا : هذه ماشطتها . ثم جاءت مواكب على هذا الى سنتها . ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج . فقالت عاتكة : ماعند الله خير وأبقي " (١٢٢) .

لما كان العصر الأموي - كما ذكرنا - عصر تشيع وأحزاب ، ولكل حزب شعراؤه الذين ينطقون باسمه ويدافعون عن سيرته ، فقد حاول خلفاء بني أمية وولاتهم أن يستقطبوا الشعراء ويجزلوا لهم العطايا ، لكي يمدحوهم بشعرهم ، ويؤكدوا أحقيتهم في الخلافة على سائر الأحزاب السياسية المعارضة لهم ، وينقضوا خصومهم باظهار مثالبهم ، ويعتبر جرير والفرزدق والأخطل على رأس هؤلاء الشعراء المناصرين لبني أمية ، وقد اتخذ هؤلاء الشعراء من الغزل وسيلة فنية لخدمة أغراضهم السياسية ، فقد بدأوا قصائدهم بمقدمات غزلية خالصة ينفذون منها الى مديحهم .

فيقول جرير مادحا الحجاج بن يوسف الثقفي والي الخليفة (١٢٣)

---

١٢٢) نفسه ، ١١ : ٣٩٧٤ - ٣٩٧٥ .

١٢٣) ديوان جرير ، ٢٢ - ٢٣ .

عبد الملك بن مروان على العراق ، مما جعل عبد الملك يغبط الحجاج على شاعره ويتمنى أن لو صار اليه .

سَئِمتُ منَ المواصلةِ العِتَابَا ... وأَمْسَى الشَّيبُ قدْ وَرِثَ الشَّبَابَا

غدتْ هُوْجُ الرياحِ مُبَشِّراتٍ ... إلىَّ بينِ نَزَلْتَ به السَّحابَا

لقدْ أقررتِ غَيْبَتَنَا لواشٍ ... وكُنَّا لانقرُّ لكِ اغتِيَابَا

أناةٌ لا النمومُ لهاْ خَدِيْنٌ ... ولا تُهْدِي لجارتِها السِّبَابَا [١]

تَطيبُ الأرضُ إنْ نَزَلَتْ بأرضٍ ... وتُسْقَى حِينَ تنزِلُها الرِّبَابَا [٢]

كأنَّ المِسْكَ خَالَطَ طَعْمَ فِيْهَا ... بماءِ المُزْنِ يَطَّرِدُ الحَبَابَا [٣]

ألاْ تَجْزِيْنَنَى وهُمُومُ نَفْسِي ... بِذِكْرِكِ قدْ أُذِيْلَ لَهَا اكْتِئَابَا

سُقِيْتِ الغيثَ حَيْثُ نأيتِ عَنَّا ... فَمَا نَهْوَى لغَيْرِكُمْ سِقَابَا [٤]

١- أناة : حليمة . نموم : مفسد بين القوم يحاول ايقاع الخلاف بينهم .

٢- الرباب : السحاب

٣- المزن : السحاب الممطر .

٤- السقاب : القرب .

أهذا البُخلُ زادكِ نأيَ دارٍ ... فَلَيْتَ الحبَّ زادكُمُ اقتِرابا

لقدْ نامَ الخليُّ وطالَ ليلي ... بحبِّكِ ما أبيتُ لهُ انتِحابا[1]

أرى الهجرانَ يحدثُ كلَّ يومٍ ... لقلبي حينَ أهجرُكمْ عِتابا

وكائنْ بالأباطحِ منْ صديقٍ ... يَرَاني لوْ أُصِبْتُ هُوَ المُصابا

ومسرورٍ بأوْبَتِنا إليهِ ... وآخرُ لايحبُّ لنا إيابا .

فقد بدأ جرير قصيدته بالتشبيب على عادة القدماء ، فهو يعتب على صاحبته طول الهجر ، فقد أوشك أن ينقضي شبابه ، ويشيب رأسه (فأمسى الشيب قد ورث الشبابا) ، كما يزعجه صلة صاحبته بالوشاة الذين ينغصون عليه صفو حياته (أقررت غيبتنا لواش) ، ثم أخذ يتغزل في محبوبته غزلا ليس مقصورا على الناحية المادية فقط ، بل يمازجه بالمعنوية ، فيصفها بالحلم والرزانة ، وعدم محاولة الافساد بين الناس (أناة لا النموم لها خدين) ، كما أنها تحفظ حقوق

١- انتحابا : بكاء .

الجيرة فلا تزعج جارتها بالسّب أو الشّتم (ولاتهدي لجارتها السّبابـــا)، أما الجانب المادي من غزله فيركز فيه على جانب الخصوبة فيها ، فيذكر أن أي أرض تنزل بها تطيب ويصيبها المطر (تطيب الأرض ان نزلت بهـــا ....) ، ولها فم تنبعث منه رائحة زكية كرائحة المسك المخلوط بمـاء المطر الصافي (كأن المسك قد خالط فيها بماء المزن ...) ـ وتشبيه رائحة الفم بالمسك صورة كثر ذكرها في الشعر القديم ـ وهو لا يملـــك ازاء تلك الحبيبة الا الدعاء لها بالسقياء حيثما حلّت .

وهذه المقدمة الغزلية بما تحتوي عليه من جدل بين المحبيـــن والوشاة ، ومن صفات تقدم المحبوبة في صورة تتسم بالخصب والنماء ، انما هي رمز عن مواقفه السياسية مع الأمويين بعد انتصارهم على الزبيريين، الذين كان يشايعهم وكأنه يريد أن يؤكد وفاءه واخلاصه لسادته الجدد ، بنو أمية فقد كان جرير زبيريا ، وكان عبد الملك يكرهه لذلك ، وظـــل يرفض أن يستمع الى مديحه حتى شفع له الحجاج فيه .

.. .. ..

الباب الثاني

(ثنائية الحب والحرمان)

الفصل الأول : قصص الحب العفيف : أصولها ونشأتها.

الفصل الثاني : الغزل العفيف : دعوته وقضاياه.

الفصل الأول

(قصص الحب العفيف : أصولها ونشأتها)

مازلنا نتحدث في هذا الفصل عن القصيدة الغزلية المستقلة بذاتها ، بعد أن انفصلت عن القصيدة القديمة . وقد تكلمنا فى الفصل الماضي عن تلك القصيدة الممثلة في الغزل الصريح . أما في هذا الفصل فسنتناولها في صورة الغزل العفيف ، ويحتاج منا الأمر الى تحديد مانقصد بهذا المصطلح ، فمن المعروف أن الدارسين يخلطون بين الغزل العفيف و الغزل العذري ، ونبدأ بهذا التحديد فنقول ان الغزل العذري و الغزل العفيف يشتركان في أنهما تعبير عف عن مواقف عاطفية ، ويختلفان في أمور أخرى تتصل أكثر ماتتصل بالشعراء من الفريقين :

فشعراء الغزل العفيف (١٢٤) ، هم أولئك الشعراء الذين ثبت وجودهم التاريخي ، معروفون بتجاربهم العاطفية ، بالاضافة الى أنهم يمارسون الحياة في صورتها الطبيعية ، وينظمون الشعر في أغراض الحياة المختلفة من مديح وهجاء ، وفي اختصار ان هؤلاء الشعراء لهم سيرة حياة عادية مثل غيرهم من الشعراء ، وينظم تحت لواء هذا الشعر جميل بثينة وكثير عزة .

فكل واحد من هذين الشاعرين له وجوده التاريخي - كما قلنا - ولم يختلف الرواة حول وجوده أو نسبه ، كما حدث بالنسبة للمجنون

---

١٢٤) انظر،د.ابراهيمعبد الرحمن محمد ، الأدب المقارن ، بين النظرية والتطبيق - مكتبه الشباب ، ١٩٨٤ ، : ٢٥٨-٢٥٩

مثلا وغيره من شعراء الغزل العذري الآخرين ، وان كان هناك شبه بين هؤلاء وهؤلاء في حبهم ، فكل منهم قد تعلق بفتاة أحبها وعشقها منذ الصغر ، تعرّف عليها بحكم القرابة التي تحيط بينهما ، أو تعرف عليها في حيّها أو في أثناء نزوله في بعض أحياء العرب ، وبادلته العشق ، وتمنى أن يكلل ذلك العشق برباط الزوجية ، غير أنه لم ينل مراده ، والسبب غالبا مايكون رفض أهلها لأنه نسب بها في شعره ، وشهر ذلك بين الناس واذا كان شعراء الغزل العفيف المعروفون ، يحاولون لقاء من يحبونهم من النساء ، فان شعراء الغزل العفيف المجهولين، يحرصون على عدم اتمام هذا اللقاء ، وهذا نمط من السلوك يخالف بين الفريقين ، على الرغم أنهما يشتركان في صفة واحدة هي العفة في الحب ، وما أن يعلم أهل الحبيبة بأن الشاعر يحاول أن يلقى ابنتهم أو أنه مازال يذكرها في شعره ، حتى يرفعوا شكواهم الى الوالي أو السلطان الذي يهدر دمه ان هو ألم ببيتها ، فيزداد الشاعر المحب حرقة ووجدا وشوقا الى حبيبته ، ويزداد ينبوع الشعر تدفقا لديه ، ويتحفنا بمثل ذلك الشعر الذي ينطوي على كثير من الآهات والحرقات والأنات ، حتى يعجز الأطباء عن وجود سبيل في شفائه ، وتسلمه حالته

تلك الى الموت الذي غالبا مايتزامن فيه موت صاحبته ، فأما أن يسبقها اليه أو أنها تسبقه اليه بوقت وجيز .

- ١ -

أما شعراء الغزل العذري ، فهم طائفة مجهولة من شعراء الغزل العفيف ، الذين لم يخلطوا غزلهم بأغراض شعرية أخرى ، وانما عايشوا تجربة واحدة معايشة عنيفة ، أفنوا فيها حياتهم ، هي تجربة الحب الخالص القائم على الحرمان ، وهذه الطائفة من الشعراء ليس لها سيرة حياة معروفة ، وفي اختصار لانعرف من حياة أصحابها شيئا خارج هذه التجربة العاطفية العنيفة ، فلم يحك الرواة عن حيواتهم العامة شيئا مكتفين بتفصيل عناصر هذه التجربة التى يقترن فيها الحب بالموت ، والتي تنتهى بموت المحب في قصة درامية محزنة . ويمكن اعتبار هذا الغزل غزلا عاما ، بمعنى أنه على عكس ماتذهب اليه الروايات المختلفة ، التي توءكد صحة القصص الشعبية التي تدور حوله ، بمعنى أنه يتناول الرمز الى قضايا عامة ، تهم المجتمع الاسلامى على أيامهم ، أى أنه ظل وسيلة فنية يستغلها الشعراء للتعبير عن مواقف وقضايا فيالبيئة الأموية . وخير من يمثل هذه الطائفة من الشعراء قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى .

وقد تضاربت آراء الباحثين حول الأسباب التي أدت الى نشوء الغزل العذري ، فمنهم من يرده الى أسباب سياسية ، ومنهم من ينسبه الى أسباب اجتماعية أو خلقية أو دينية ومنهم من يجمع بين أكثر من سبب ، وسنحاول أن نعرض تلك الآراء ، فيرده د.طه حسين الى سبب سياسي يتلخص في أنه بعد انتقال الحكم الى الشام ، واستئثار الأمويين به ، شعر أهل الحجاز بضياع الملك من أيديهم ، وفشلهم في استرداده ، شعروا باليأس الى جانب الفقر ، فاتجهوا الى الغزل العذري فيقول: " كان أهل البادية الحجازية يائسين ، ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالاسلام ، وبالقرآن خاصة ، فنشأ في نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص ، وليس بالبدوي الخالص ، ولكن فيه سذاجة بدوية ، وفيه رقة اسلامية ، وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلي ، كما انصرفوا عن الحياة العملية في الاسلام الى أنفسهم ، فانكبوا عليها واستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن ، ولكنها نغمة زهد وتصوف ، فقل انهم انصرفوا الى شيء من المثل الأعلى "(١٢٥) .

---

١٢٥) حديث الأربعاء ، ١ : ١٩٠.

أما (١٢٦) د. شكري فيصل فيرجع نشوء الغزل العذري الى أسباب دينية بدافع التقوى الاسلامية ، والطهارة التى أضفاها الحب على الاسلام ، فالغزل العذري تعبير عن طائفة من المسلمين كانت تتحرج وتذهب مذهب التقى ، وتوءثر السلامة والعافية على المغامرة والمخاطرة ، وترى ان النفس أمارة بالسوء .

ويرى (١٢٧) د. شوقي ضيف ان غزل البادية كان عفيفا ، لأن العرب لم يعرفوا الترف ولا أفسدتهم الحضارة ، وقد رقق الاسلام نفوسهم وصفاها ، فكان طبيعيا ألا يكون غزلهم اباحيا صريحا ، بل يكون غزلا متساميا فيه نبل وفيه حرمان وفيه طهارة وارتفاع عن الحس والمادة ، وقد تميز غزلهم تميزا واضحا عن غزل مكة والمدينة ، فقد كان الناس فيهما مترفين ، وعرفوا فنونا من الحضارة المادية التي دخلت عندهم من فارس والروم ، فكان في شعرهم لذلك شيء من الحرية والاباحية ، على عكس أهل نجد الذين لم يعرفوا الترف ولا أفسدتهم الحضارة ، وقد كانوا يعيشون كما كان يعيش آباوءهم في الجاهلية ، معيشة فيها شظف وحرمان.

---

١٢٦) انظر ، تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام : ٢٨٠.

١٢٧) انظر التطور والتجديد ، ١٠٦- ١٠٧.

أما د. عبد القادر القط فيضيف تفسيرين آخرين لنشوء الغزل العذري بالاضافة الى التفسيرات السابقة ، هما التفسير الاجتماعي والحضاري ، فالتفسير الاجتماعى ، يرجعه الى ضيق الشاعر العاشق بتقاليد المجتمع التي تحرمه من لقاء محبوبته ، وتحرم زواجه منها ان ذكرها في شعره وذيع بين الناس ، رغم أنه لايوجد في الدين مايحرم زواج المحب من محبوبته .(١٢٨)

" أما التفسير الحضاري ، فيرجعه الى تلك النقلة الحضارية التي طرأت على العرب بعد مجيء الاسلام ، وغيّرت حياتهم ، ولنا أن نتصور الانسان العربي الذي عاش حياته التقليدية في الجزيرة العربية متصلا بأسباب قوية أو ضعيفة بما جاورها من بلاد ، وقد وجد نفسه فجأة محاربا في سبيل عقيدة دينية جديدة غيرت كثيرا من قيمه الروحية والخلقية والاجتماعية ، ثم خائضا في أحداث سياسية وفتن وحروب أهلية حول نظام الحكم والاقتصاد والعصبيات القبلية القديمة ، ثم مهاجرا ومستقرا في تلك الأقطار التي دفعته اليها الفتوح الاسلامية ومواجها لأنماط من المعيشة والسلوك الحضاري والتراث الفكري غير تلك الأنماط ،

---

١٢٨) انظر ، في الشعر الاسلامي والأموي : ٨٢.

التى ألفها في موطنه القديم ، لنا أن نتصور هذا الانسان وقد واجه ذلك الانقلاب المفاجىء الشامل في حياته ، فندرك الى أي مدى كان يعيش في (أزمة نفسية عنيفة - مذبذبا بين القديم والجديد) وطبيعي أن يكون الشعور بالغربة أو الحنين أو الفقد من الرموز الصالحة للتعبير عن ذلك الصراع من خلال تجربة الحب العذري "(١٢٩) .

وسنحاول أن نقف عند حيوات شعراء الغزل العفيف المجهولين منهم كقيس بن الملوح صاحب ليلى ، وقيس بن ذريح صاحب لبنى ، وعروة ابن حزام صاحب عفراء ، وغير المجهولين منهم كجميل بن معمر صاحب بثينة ، وكثير بن عبد الرحمن صاحب عزة .

١- مجنون ليلى

يعد قيس بن الملوح في رأي كثير من الدارسين المحدثين زعيم الغزليين العذريين ، أعني هذه الطائفة من شعراء الغزل العفيف الذين لم يثبت وجودهم التاريخى ثبوتا قاطعا .

وهو شخص اختلف الرواة في وجوده بل وفي اسمه ونسبه وسبب جنونه ، فالروات الثقات ينكرون وجوده الواقعي ، ومن آمن منهم

---

١٢٩) نفسه ، : ١٠٦ - ١٠٧ .

بوجوده تشكك في موضع آخر كالأصمعي .

وبرغم حرص مؤلف الأغاني على أن يجمع في كتابه أخبارا كثيرة ومسلية ، تشغل الناس وترفه عنهم فانه - في كتابه - قد أنكر وجوده ، وعلق الأخبار التي أوردها عنه على ذمة الروات ، ومن يرجع الى كتابه يلاحظ أيضا كما من الأخبار المتضاربة حول سيرة هذا الشاعر وعشقه ونسبه . فيروى أبو الفرج أن أيوب بن عبايه قال :-

" سألت بني عامر بطنا بطنا عن مجنون بني عامر فما وجدت أحدا يعرفه" (١٣٠)

وقيل لرجل من بني عامر: " أتعرف المجنون وتروي من شعره شيئا؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين ! انهم لكثير ! فقلت : ليس هؤلاء أعني ، انما أعنى مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق ، فقال : هيهات : بنو عامر أغلظ أكبادا من ذاك ، انما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها ، الخفلة روءوسها فأما نزار فلا "(١٣١) .

---

١٣٠) الأغاني ، ٢ : ٤٢٠ .

١٣١) نفسه ، ٢ : ٤٢٠ - ٤٢١ .

ويقول ابن الكلبي : " حدثت حديثا أن المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له ، وكان يكره أن يظهر مابينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون ونسبها اليه "(١٣٢).

وقد يكون هذا الخبر أقرب الى الصواب (١٣٣) ، فلربما أراد صاحب تلك الأشعار لنفسه ولصاحبه التستر والكتمان ، وكان يتحرج من أن يقول فيها تلك الأشعار الملتهبة العاطفة ، فتشاع بين الناس ، فاخترع شخصية المجنون ونسب اليه أشعاره ، خاصة وأن الشعر المنسوب الى المجنون شعر قوي ، ينم عن عاطفة جياشة واحساس مرهف وعقلية منظمة ، تصف معاناة النفس بدقة وتتغور الأعماق ، فليس من المعقول أن يكون صاحب تلك الأشعار مجنونا أو به لوثة من جنون .

وعلى الرغم من أن الأصمعي يعد من الروات الثقات الا أنه كان متأرجحا في موقفه من قيس ، فمرة أنكر وجوده وأثبته في مرة أخرى

---

١٣٢) نفسه ، ٢ : ٤٢٢ .

١٣٣) انظر ، حديث الأربعاء ، ١ : ١٧٧.

فيقول : " رجلان ماعرفا في الدنيا قط الا باسم مجنون بني عامر ، وابن القرّيّة وانما وضعهما الرواة "(١٣٤).

وقال الأصمعي أيضا عن قيس :- " لم يكن مجنونا بل كانت به لوثة أحدثها العشق فيه ، كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلى ، واسمه قيس بن معاذ"(١٣٥).

وقال الجاحظ :- " ماترك الناس شعرا مجهول القائل قيل في ليلى الا نسبوه الى المجنون ، ولاشعرا هذه سبيله قيل في لبنى الا نسبوه الى قيس بن ذريح "(١٣٦).

ومن يرجع الى كتاب الأغاني يصادف الكثير من مثل تلك الأخبار التي تنكر وجود المجنون .

وفيما يتصل بعشقه لليلى فيروي صاحب الأغاني ثلاث روايات ، يذكر في احداهما ان المجنون كان يهوى ليلى وهما حينئذ صبيان فعلق كل

---

١٣٤) الأغاني ، ٢ : ٤٢١ .

١٣٥) نفسه ، ٢ : ٤٢٢ .

١٣٦) عبد القادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب ، ٤ : ٢٢٩ ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة .

واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلهما ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه ، ويدل على ذلك قوله :-

تَعَلَّقْتُ لَيْلَى وهيَ ذاتُ نُوءَابَةٍ ولمْ يَبْدُ للأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ

صغيرينِ نَرْعَى البَهْمَ ياليتَ أَنَّنا إلىٰ اليومِ لمْ نَكْبَرْ ولَمْ تَكْبَرِ البَهْمُ (١٣٧)

وفي رواية ثانية يقول : - "كان سبب عشق المجنون ليلى ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة كريمة وعليه حلّتان من حلل الملوك ، فمر بامرأة من قومه ، يقال لها كريمة ، وعندها جماعة نسوة يتحدثن فيهن ليلى ، فأعجبهن جماله وكماله ، فدعونه الى النزول والحديث ، فنزل وجعل يحدثهن وأمر عبدا له كان معه فعقر لهن ناقته ، وظل يحدثهن بقية يومه ، فبينا هو كذلك ، اذ طلع عليهن فتى عليه بردة من برد الأعراب يقال له : " منازل " يسوق معزى له ، فلما رأينه أقبلن عليه وتركن المجنون ، فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :- (١٣٨)

أَأَعْقِرُ مِنْ جَرَّا كَرِيمةَ نَاقَتِي وَوَصْلِي مفروشٌ لِوَصْلِ مُنَازِلِ

---

١٣٧) الأغاني ، ٢ : ٤٢٩.

١٣٨) نفسه ، ٢ : ٤٣٠ - ٤٣١.

اذا جاء قعقعن الحلي ولم أكن اذا جئت أرضى موت تلك الخلاخل

متى ما انتضلنا بالسهام نضلته وان نرم رشقا عنكدها فهو ناضلي

قال : فلما أصبح ليس حلّته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضا لهن ، فألفى ليلى قاعدة بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبها وهويته ، وعندها جويريات يتحدثن معها ، فوقف بهن وسلم ، فدعونه الى النزول وقلن له : هل لك في محادثة من لايشغله عنك منازل ولاغيره ؟ فقال : اى لعمري ، فنزل وفعل مثل مافعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم ، هل لها عنده مثل ماله عندها ، فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره ، وقد كان علق بقلبه مثل حبها ايّاه وشغفته واستملحها ، فبينما هي تحدثه ، اذ أقبل فتى من الحي فدعته وسارته سرارا طويلا ثم قالت له : انصرف ، ونظرت الى وجه المجنون قد تغير وانتقع لونه وشقّ عليه فعلها فأنشأت تقول :-

كلانا مظهرٌ للناس بغضا وكلٌ عند صاحبه مكينُ

تبلّغنا العيونُ بما أردنا وفي القلبين ثمّ هوًى دفينُ

---

١٣٩) نفسه ، ٢ : ٤٣١ - ٤٣٢ .

فلما سمع البيتين شهق شهقة وأغمي عليه ، فمكث على ذلك ساعة ، ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ .

وفي رواية ثالثة للأصبهاني يقول :ـ " كانت ليلى من أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن جسما وعقلا وأفضلهن أدبا وأملحهن شكلا ، وكان المجنون كلفا بمحادثة النساء صبّا بهن ، فبلغه خبرها ونعتت له ، فصبا اليها وعزم على زيارتها ، فتأهب لذلك ولبس أفضل ثيابه ورجّل جمّته ومسّ طيبا كان عنده ، وارتحل ناقة له كريمة برحل حسن وتقلد سيفه وأتاها ، فسلم فردت عليه السلام وتحفّت في المسئلة ، وجلس اليها فحادثته وحادثها فأكثرا ، وكل واحد منهما مقبل على صاحبه معجب به ، فانصرف الى أهله فبات بأطول ليلة شوقا اليها ، حتى اذا أصبح عاد اليها فلم يزل عندها حتى أمسى ، ثم انصرف الى أهله فبات بأطول من ليلته الأولى واجتهد أن يغمض فلم يقدر على ذلك فأنشأ يقول :ـ (١٤٠)

نَهاري نهارُ الناسِ حتى اذا بَدا ... لِيَ الليلُ هزّتْني اليكِ المضاجِعُ

أُقَضّي نهاريْ بالحديثِ وبالمُنَى ... ويجمعُني والهمّ بالليلِ جامِعُ

لقدْ ثبتتْ في القلبِ منكِ محبّةٌ ... كَمَا ثَبَتَتْ فيْ الراحتينِ الأصابعُ .

---

١٤٠) نفسه ، ٢ : ٤٦٢ — ٤٦٣ .

وتتطور أحداث الحب العذري سائرة في المسار الطبيعي الـــــذي رسم للمحبين العذريين ، فيلجأ الفتى الى خطبة فتاته من أبيها ، ولكن على عادة العذريين يرفض أن يزوجها لمن شهر بها في شعره ، رغم انها ليست بأحسن منه نسبا أو شرفا ، وليس لأبيها مثل مال أبيه ، فعنـــد ذلك تبدأ مأساة قيس ، ويمرض مرضا شديدا يزداد مع الأيام حتى اختلـط عليه عقله ، وتصدر عنه أفعال بعيدة عن سلوك الأسوياء من النـــــاس . وعلى عادة العذريين يشكونه قوم ليلى عند السلطان ويهدر دمه ان ألـم بابياتهم . ـ وعلى عادة العذريين أيضا ـ لابد من تدخل الوسطـــــاء من الأهل وأشراف القوم ووجهاء بنى هاشم ،فنرى " أبا المجنون وأمـه ورجال عشيرته اجتمعوا الى أبى ليلى فوعظوه وناشدوه الله والرحـــم، وقالوا له : ان هذا الرجل لهالك ، وقبل ذلك ففي أقبح من الهـــلاك بذهاب عقله ، وانك فاجع به أباه وأهله ، فنشدناك الله والرحـــم أن تفعل ذلك ، فو الله ماهى أشرف منه ، ولا لك مثل مال أبيه ، وقد حكمك في المهر ، وان شئت أن يخلع نفسه اليك من ماله فعل ، فأبى وحلـف بالله وبطلاق أمها انه لايزوجها اياها أبدا ، وقال : أفضح نفســـــي وعشيرتـي وآتي مالم يأته أحد من العرب ، و أسم ابنتي بميسم ففيحـة !

فانصرفوا عنه ... الخ "(١٤١).

وتكثر مثل تلك الوساطات التي يصعب عليها ما آل اليه حال المجنون ، من سقم وذهاب بالعقل واعتزال الناس والف الوحوش وحالات الاغماء الدائمة التي تلم به ، وهيامه على وجهه ، فيعطفون عليه ويحاولون أن يردوا اليه مافاته من عقله ، الا أن أهل ليلى لايزالون يصرون على موقفهم ويرفضون أن يزوجوا فتاتهم قيسا .

ومن يريد (١٤٢) أن يعرف عن تلك الوساطات الفاشلة يستطيع أن يرجع اليها في كتاب الأغاني في (أخبار المجنون) ، فنجد وساطة عمر بن عبد الرحمن بن عوف ووساطة نوفل بن مساحق ... الخ .

وتبلغ العقدة ذروتها بزواج ليلى - على عادة العذريين- أيضا من رجل آخر من قومها ، فيقول الأصبهاني :- " لما شهر أمر المجنون وليلى وتناشد الناس شعره فيها ، خطبها وبذل لها خمسين ناقة حمراء ، وخطبها ورد بن محمد العقيلي وبذل لها عشرا من الابل وراعيها ، فقال أهلها : نحن مخيّروها بينكما ، فمن اختارت تزوجته ، ودخلوا اليها

---

١٤١) نفسه ، ٢ : ٤٣٩.

١٤٢) انظر ، الأغاني ، ٢ : ٤٣٤ - ٤٣٦.

فقالوا : والله لئن لم تختاري وردا لنمثلن بك .. فاختارت وردا فتزوجته على كره منها "(١٤٣).

وتبدو تلك الرواية موضوعة وغير صحيحة ، فأحداث القصة تنم عن أن قيسا قد خطب ليلى من أهلها ورفضوه بشدة ، وحلف أبوها بطلاق أمها لو زوّجها لقيس ، كما انه تعلل في ذلك بأنه لايريد أن يسم ابنته ونفسه وقومه بميسم عار وفضيحة الى الأبد ، فليس من المعقول أن يتكلف أهل ليلى بعد ذلك عناء كذبة لخاطبيها - أعني قيسا ووردا بقولهم نحن مخيّروها بينكما فأيهما اختارت تزوجته ، ثم يجبرونها بزواجها من ورد ، فليست هناك حجة تجبرهم أن يجاملوا قيسا بتلك الكذبة.

ولعل واضع قصة مجنون ليلى قد أراد أن يجعلها ذات طراز متفرد ، فجعل الحب شاقا على قيس أنهك قواه ، فكثيرا مايخر على وجهه مغشيا عليه لمجرد ذكر ليلى ، ولم يكتف بذلك بل صيّره فاقد العقل ، لايلبس ثوبا الا خرّقه ، ولايمشي الا عاريا ، ويلعب بالتراب ، ويعتزل الآدميين ، ويعيش في البراري مع الوعول والظباء فقد الفها والفته ، ولايأكل

---

١٤٣) نفسه ، ٢ : ٤٣٢ - ٤٣٣.

الا مما تأكل ، واذا كلمه أحد لايعي كلامـــــه أحـــد ولايرد عليه ، واذا ذكر له محدثه ليلى أو سأله خبرها سرعان مايرد عليه عقلـــــه ، ويحدث حديث العقلاء وينشدهم أشعاره التي قالها فيها . وكان يـــــدرك ما آل عليه حب ليلى فعندما قال له نوفل بن مساحق وقد أعجب ما آلـــــت عليه حالته ، فقال له : " الحب صيّرك الى ما أرى ؟ قال : نعـــــم ، وسينتهي بي الى ماهو أشد مما ترى " انظر الى قوله (١٤٤) :-

- أَيَاوَيْحَ مَنْ أمسى تخلّسَ عقلُـــهُ فأصبحَ مذهوباً بهِ كلَّ مذهَـــــبِ

خلياً منْ الخلّانِ إلّا معـــذراً يُضاحِكُني منْ كانَ يهوَى تَجَنُّبـــــي

وقوله (١٤٥) :

- اذا ذكرتْ لَيْلَى عقلتُ وراجعتْ روائعَ عقلِي منْ هوًى متشعّـــــبِ

وقالُوا صحيحٌ مابهِ طيفُ جِنّـــةٍ ولا الهمُّ الا بافتراءِ التكـــــذُّبِ

وشاهدُ وَجْدِي دمع عيني وحبها برى اللحم عن احناء عظمي ومنكبي

وقوله (١٤٦) :

- ألا إنّما غادرْتِ يا أمَّ مالـكٍ صَدًى أيْنَمَا تذهبْ بهِ الريحُ يذهَـــبُ

ويحاول أهله - على عادة العذريين أيضا - " أن يعزونه عـــــن ليلى ، ويقترحون عليه أن يزوجوه أحسن بنات عشيرته ، فيأبى الا ليلى ،

---

١٤٤) نفسه ، ٢ : ٤٣٦ - ٤٣٧ .

١٤٥) نفسه ، ٢ : ٤٣٧ .

١٤٦) نفسه ، ٢ : ٤٣٧ .

ويهذي بها ويذكرها ، فكان ربما استراح الى أمانيهم ، وكان ربما هاج عليه الحزن والهم ، فلا يملك مما هو فيه الا أن يهيم على وجهه ويلومه قومه ويعزلونه ، وقد أكثروا عليه يوما من الملامة فقال : (١٤٧)

يالِلرِّجالِ لهمْ باتَ يعرُوْنِي ... مُستَطْرَفٍ وقديمٍ كانَ يَعْنِيْنِي

على غَرِيمٍ مَلِيء غيرِ ذِي عُدَمٍ ... يَأْبَى فيمْطُلُنِي دَيْنِي ويَلوِيْنِي

لايذكُرُ البعضَ من دَيْنِي فيُنْكِرهُ ... ولايُحَدِّثُنِي أنْ سوفَ يَقْضِيْنِي

وما كَشُكْرِي شكرٌ لوْ يوافِقُنِي ... ولا مُنَى كَمُنَاهُ إذْ يُمَنِّيْنِي

أطعتُهُ وعصيتُ الناسَ كلَّهمُ ... فيْ أمرِه ثم يأبَى فهوَ يَعصِينِي

خَيْرِي لِمَن يَبْتَغِي خَيْرِي ويَأْمُلُه ... مِنْ دُونِ شَرِّي وشَرِّ غيرُ مَأْمُون

وما أُشارِكُ فيْ رأيِي أخاً ضَعُفٍ ... ولاْ أقولُ أخِي مَنْ لايُوَاتِيْنِي .

وهكذا بعد أن فشلت المساعي الحميدة في الجمع بين الحبيبين ، وفشلت اقتراحات أهل قيس في أن يسلوها ، ويتزوج بغيرها من فتيات عشيرته وبعد أن زوّجت بغيره ، وازدادت حالته سوءا واختلط عقله وخامره

---

١٤٧) نفسه ، ٢ / ٤٦٠ - ٤٦١.

الجنون و كثرت حالات الاغماء التي تلم به ، يخترع واضع القصة حدثا يضمه الى أحداث قصته ، ليحملنا على تصديق قصته بكل أبعادها التخيلية ، فضمن حبكته القصصية يقدم لنا اقتراح الحي لأبيه أن يحج به الى مكة ، ويسأل الله له العافية ويخلصه من حبها ويبغضه فيها ، فلعل الله أن يخلصه مما ألم به من البلاء . " فحج به أبوه ، فلما صاروا بمنى سمع صائحا في الليل يصيح : ياليلى ، فصرخ صرخة ظنوا أن نفسه قد تلفت وسقط مغشيا عليه ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ثم أفاق حائل اللون ذاهلا فانشأ يقول (١٤٨) :

عَرَضتُ علىْ قلبي العزاءَ فقالَ لي ... منْ الآنَ فاياسْ لاأعَزّكَ مِنْ صَبْرِ

اذا بانَ مَنْ تَهْوَى وأصبحَ نائياً ... فَلاَ شيءَ أجْدَى منْ حُلُوْلِكَ في القَبْرِ

وداعٍ دَعَا إذْ نَحْنُ بالخَيْفِ مِنْ منىً ... فهيّجَ أطرابَ الفؤادِ ومَايَدْري

دعَا باسمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فكأنّمَا ... أطارَ بليلى طائراً كانَ فيْ صَدْري

دعَا باسمِ ليْلَى ضَلّلَ اللهُ سعيَهُ ... ولَيلَىْ بأرْضٍ عَنْهُ نازحةٍ قَفْرِ .

ثم قال أبوه : تعلق بأستار الكعبة واسأل الله أن يعافيك من حب ليلى ، فتعلق باستار الكعبة فقال : اللهم زدني حبا وبها كلفا

---

١٤٨) نفسه ، ٢ : ٤٣٩ - ٤٤٠ .

ولاتنسني ذكرها أبدا ، فهام حينئذ واختلط فلم يضبط "(١٤٩).

ثم زال عقله جملة، وأخذت رجلاه تسيران به سيرا بطيئا الى الموت منذ حيل بينه وبين حبيبته ، وأصبح في حال يرثى لها ، فكان يهيم على وجهه في البراري والصحاري حتى يأتي نواحي الشام ، فاذا ثاب اليه عقله رأى بلدا لايعرفه فيسأل الناس عن جبل التوباد ، فيقولون له : أنت بالشام عليك بالنجم كذا وكذا .. ثم يجد نفسه في بلد غريب منه فيسأل عن التوباد ، ويقول له الناس وأين أنت من التوباد أنت باليمن .. الخ ومازال على هيامه وتوحشه في الصحراء حتى وجده أهله في واد كثير الحجارة خشن ، وهو ميت بين تلك الحجارة ، فاحتمله أهله فغسّلوه وكفنوه ودفنوه (١٥٠) ، وحضر حي ليلى معزين وأبوها معهم فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه ، وجعل يقول ماعلمنا أن الأمر يبلغ كل هذا ولكني كنت أمرأ عربيا أخاف من العار وقبح الأحدوثة مايخافه مثلي ، فزوجتها وخرجت عن يدي ولو علمت أن أمره يجرى على هذا ما أخرجتها عن يده ولاحتملت ماكان عليّ في ذلك .

---

١٤٩) نفسه ، ٢ : ٤٤٠.

١٥٠) نفسه ، ٢ : ٥٠٨ - ٥٠٩.

على أن دراسة قصة هذا الشاعر كما يرويها صاحب الأغاني ،تـــوءدي بنا الى ملاحظة مايلي :-

أولا : أن هناك اختلافا مبينا بين الرواة حول اسم الشاعر ونسبه - كما ذكرنا آنفا - فاختلف أولا حول اسمه قيل قيس وقيل مهدي ، واختلف كذلك في اسم أبيه ، واختلف في سبب تسميته بالمجنون فمنهم من يقـــول (١٥٢) انه لقب قد عرف به لأنه وصف نفسه في شعره بالجنون في قوله :

- مابالُ قَلْبِكَ يامجنونُ قدْ خُلِعَـــا ... فيْ حبِّ مَنْ لاتَرَى فِيْ نَيْلِه طَمَعَـــا .

وقوله :(١٥٣)

- وانّي لمجنونٌ بِلَيْلَى مُوَكَّـــلٌ ... ولستُ عزوفاً عن هواهَا ولا جَلْدَا .

وقوله :(١٥٤)

- يسمُّونَنِي المجنونَ حينَ يَرَوْنَنِـــي ... نَعَمْ بيْ مِنْ لَيْلَى الغداةَ جُنُـوْنُ .

ومنهم من يقول ان الحب أودى به الى الجنون فعلا ، ومنهم من يثبت انه كان مجنونا ذهب الحب بعقله ، ومنهم من ينكر ذلك ، ومنهم من ينكر ذهاب عقله جملة ، ولكن يصفه بأنه كانت به لوثة من جنون . فأبو الفرج الأصبهاني ، وهو أقدم من روى قصة المجنون كاملة ، يسجل أخبـــــارا

---

١٥١) حديث الأربعاء ، ١ : ١٧٧.

١٥٢) الأغاني ، ٢ : ٤٥٥.

١٥٣) نفســه ، ٢ : ٤٥٥.

١٥٤) ديوان مجنون ليلى ، جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج - مكتبة مصر ، : ٢٠٦.

متناقضة عن الشاعر يعزوها الى نفس الرواة ، مما يحملنا على الشك في صحة مايروي عنه - وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل آنفا - *.

ثانيا : ان قصة هذا الشاعر تروى في صورة أسطورية ، تباعد بين هذه القصة وواقع الحياة ، سواء فيما يتصل بسلوك الشاعر نفسه أو بما يروى من تقاليد البيئة في أيامه ، وهي شكوك تجعل من الصعب قبول هذه القصة. فمما يرويه أبو الفرج عن قيس بعد أن حجبت عنه ليلى وزوجت بآخر ، وصيّره الحب الى ماصار اليه من ضعف ويأس واختلاط في العقل ، يهيم على وجهه في القفار حتى يصل الى مشارف الشام ويجد بلدا وأناسا لايعرفهم ، فيسألهم عن جبل التوباد ويخبرونه انه بالشام ويدلونه الطريق الى نجد ، فيتابع سيره ، ولكنه يجد نفسه في أرض اليمن وهكذا الى أن يصل الى التوباد فلما رآه قال (١٥٥) :

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَادِ حِيْنَ رَأَيْتُهُ ... وكَبَّرَ لِلرحمنِ حينَ رآنِي

وأذريتُ دَمْعَ العَيْنِ لمّا عَرَفْتُهُ ... ونادَى بِأَعْلَى صوتِهِ فَدَعَانِي

فقلتُ لهُ قدْ كانَ حولَكَ جيرةٌ ... وعهدِيْ بِذَاكَ الصرمِ منذُ زَمَانِ

---

*) راجع أخبار أبي الفرج الأصبهاني عن المجنون ص ١٧٠-١٧٢.

١٥٥) الأغاني ، ٢ : ٤٧١ .

فَقَالَ مَضُوا واستودَعُوني بلادَهم وَمَنْ ذَا الذي يَبْقَى على الحدَثَان

واني لأَبْكي اليومَ من حَذَرِي غَداً فِراقَكَ والحيَّانِ مُجْتَمِعَان

سِجَالاً وتَهْنَاناً وَوَبْلاً وَديمَةً وَسحّاً وتَسْجَاماً إلى هَمَلَان .

فلا يعقل أن يجوب رجل سقيم مختلط العقل كل تلك البلاد لوحده ، فقد أضناه الحب وأسقمه ، فلم يعد يقوى ذلك وكان بالامكان أن نصدق هذا الخبر لو كان قيس سليم الجسم والعقل لاسقيم الجسم مختل العقل .

ولم يكتف أبو الفرج في رواياته بأن يصيره الى الجنون فحسب ، بل جعل انسانا دائم الغشيان ، فحالات الاغماء كثيرا ماتنتابه لمجرد ذكر ليلى أمامه ، بل صيّره الى التوحش واعتزال الناس والف الحيوان ، فكان لايأكل الا مما ينبت في البرية من بقل ولايشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها ، وطال شعر جسده ورأسه وألفته الظباء والوحوش فكانت لاتنفر منه .. وهو في حالته الغريبة المريبة تلك لايعقل شيئا الا اذا جاء ذكر ليلى أمامه وسأل عنها يتحدث عن خبره معها بأحسن الحديث حديث العقلاء . فأين لنا أن نصدق هذا ؟

ثالثا : بالنسبة لقضية عشق قيس لليلى ، يقدم لنا أبو الفرج ثلاث روايات مختلفة ، فاحدى تلك الروايات تقول انه قد تعرف على ليلاه

عندما كانا صبيين صغيرين يرعيان البهم لأهلهما ، فنشأت بينهما مودة صارت الى العشق يقول المجنون (١٥٦) :-

- تعلّقتُ ليلى وهيَ ذاتُ ذُوَابةٍ ولمْ يَبْدُ للأترابِ من ثَدْيِها حَجْمُ

صَغِيْرَينِ نَرْعَى البَهْمَ يَالَيْتَ أَنَّنَا إلى اليومِ لمْ نَكْبَرْ ولَمْ تَكْبَرِ البَهْمُ

وفي رواية ثانية يبين لنا أن سبب التعارف والعشق ، أن قيسا قد لقيها وهو شاب وهي فتاة شابة ، تجلس مع صاحباتها ، فنزل عندهن قيس وجالسهن متحدثا اليهن ، فوقعت في قلب كل منهما مودة الآخر وعشقه .

وفي رواية ثالثة يقدم لنا أسبابا أخرى ، جعلت قيسا يهوى ليلى ومن ثم تهواه وهي اعجابه بأدبها وحديثها وجمالها ، وهي تجلس بين صاحباتها فملك كل ذلك عليه قلبه وعقله وجعله يقع أسير حبها ، ومن ثم بادلته الحب .

٢- قيس بن ذريح :-

وقيس شاعر آخر من شعراء الغزل العذري ، تجري قصته على نفس النمط الذي رأيناه في قصة المجنون ، وقد عرف بلبنى ، مثل ماعرف قيس بن الملوح بليلى ، وقصته مع لبنى عبارة عن وصف قوى للحب العذري ، وكان

---

١٥٦) ديوان مجنون ليلى ، : ١٨٦.

تعرفه على لبناه ، شبيها بأقرانه من الشعراء العذريين فقد " مر قيس لبعض حاجته بخيام بني كعب بن خزاعة ، فوقف على خيمة منها والحي ظوف ، والخيمة خيمة لبنى بنت الحباب الكعبية ، فاستسقى ماء ، فسقته اليه به ، وكانت امرأة مديدة القامة شهلاء حلوة المنظر والكلام : فلما رآها وقعت فى نفسه ، وشرب الماء فقالت له : أتنزل فتبترد عندنا ؟ قال نعم ، فنزل بهم ، وجاء أبوها فنحر له وأكرمه ، فانصرف قيس وفي قلبه من لبنى حر لايطفأ ، فجعل ينطق بالشعر فيها حتى شاع وروي ثم أتاها يوما آخر وقد اشتد وجده بها ، فسلم فظهرت له وردت سلامه وتحفت به ، فشكا اليها مايجد بها ومايلقى من حبها ، وشكت اليه مثل ذلك فأطالت ، وعرف كل واحد منهما ماله عند صاحبه ... الخ "(١٥٧)

ويمكننا القول بأن ماسبق أن أوردناه يعتبر شيئا مألوفا عندشعراء الغزل العفيف ، فأغلبهم - حسب ماتقص الروايات - قد تعرفوا على محبوباتهم بصورة قريبة أو مشابهة لما وقع لقيس بن ذريح فالمجنون أحب ليلاه - حسب الروايات - عندما كانا صغيرين يرعيان البهم لأهلهما ،

---

١٥٧) نفسه ، ٩ : ٣٣٠١ - ٠٣٣٠٢

أو لأنه نظر اليها بين النساء فأعجب بجمالها أو بحديثها ... ،وجميل قد أحب بثينة عندما كان يسوق ابلا له ، فقابلها مصادفة ، وهذا قيس ابن ذريح تعرّف على لبناه مصادفة عندما استسقاها ماء فسقته وأعجب بجمالها ووقع فى قلبه منها مثل ماوقع في قلبها منه . اذن فبداية قصته مع لبناه تعتبر نمطا مألوفا عند نظرائه من الشعراء ولكن سرعان ماتتطور أحداث قصته متخذة مسارات مغايرة لقصص نظرائه من شعراء الغزل العفيف ، فنراه يصارح والده بحبه لتلك الفتاة ويطلب منه أن يزوجه ايّاها ، فنفاجأ في تلك القصة برفض والده - على غير العادة- فوالده رجل موسر وليس له ولد غير قيس ، فيخشى أن تنتقل ثروته الى قوم لبنى ، لذلك يريد أن يزوجه بفتاة من قومه حتى يظل ماله محصورا متوارثا في القوم . ولقد تعودنا في قصص شعراء الغزل العفيف الغرامية أن يسعى والد الشاعر الى زواج ابنه من محبوبته ، باذلا ماله في سبيل ارضاء قومها ، مثلما حدث مع والد قيس بن الملوح ووالد جميل بثينة ، ويكون الرفض والتشدد من قبل والد الفتاة وقومها ، وكأن واضع تلك القصة أو موءلفها أراد أن تكون قصته أكثر واقعيةواحتمالا للصدق .

وتستمر الأحداث مخالفة مذهب سير العذريين ، ويلجأ واضع القصة الى حل لتلك العقدة التي صنعها والد قيس ، بأن يلجأ قيس الى شفاعة الحسين ابن على ـ رضي الله عنه ـ أخيه من الرضاعة ، لكي يخطب له لبنى من أبيها . وقد يقول البعض بأن الشفاعة أو الوساطة أمر مألوف في مثل تلك القصص الغرامية ، ولكننا نرى المخالفة فيها من حيث أنها وساطة أو شفاعة مجدية أفلحت في جمع الشمل بين المحبين ، بينما غيرها من الوساطات التي تحدثنا عنها مسبقا كانت تبوء بالفشل . ولكن ينبغي علينا ألا نفهم أن تلك الشفاعة قد أفلحت منذ أن ذهب قيس فى معيّة الحسين بن على ـ رضي الله عنه ـ خاطبا لبنى من أبيها ، فقد أكرم الأب وفود الحسين لما بصره واعظمه ووثب اليه وقال له : " يابن رسول الله ، ماجاء بك ؟ ألا بعثت الى فأتيتك ! قال : ان الذي جئت فيه يوجب قصدك وقد جئتك خاطبا ابنتك لبنى لقيس بن ذريح . فقال : يابن رسول الله ، ماكنا لنعصي لك أمرا ومابنا عن الفتى رغبة ، ولكن أحب الأمر الينا أن يخطبها ذريح أبوه علينا وأن يكون ذلك عن أمره ، فانا نخاف ان لم يسع أبوه في هذا أن يكون عارا وسبة علينا "(١٥٨).

---

١٥٨) نفسه ، ٩ : ٣٣٠٢.

اذن فقد اعتذر والد لبنى في بادىء الأمر للحسين بن علي - رضي الله عنه - عن أن يزوج ابنته لقيس بن ذريح ملتزما بعادات العرب ، وهي أن يأتي أبوه خاطبا ابنتهم لابنه وخوفا من أن يقول العرب زوجوا ابنتهم لرجل لم يأت أبوه خاطبا ، وليس خوفا من الفضيحة والعار التي ستلحق به وبقومه ان زوج ابنته لرجل قد شيب بها في شعره . وهذا أيضا وجه من وجوه الخلاف في تلك القصة عن بقية قصص شعراء الغزل العفيف .

ولكن تلك الشفاعة سرعان ماتكلّلت بالنجاح عندما ذهب الحسين بن علي - رضي الله عنه - الى ذريح وقومه مجتمعين معه فعظموه وأكرموه وقال له : " أقسمت عليك الا خطبت لبنى لابنك قيس . قال السمع والطاعة لأمرك ، فخرج معه في وجوه من قومه حتى أتوا لبنى فخطبها ذريح على ابنه الى أبيها فزوجه ايّاها ، وزفّت اليه بعد ذلك "(١٥٩).

وقد استطاع واضع القصة عن طريق زواج قيس من لبنى أن يحقق أول انتصار من نوعه للحب العفيف الطاهر ، ذلك الانتصار الذي لم يظفر به أي شاعر غزل عفيف من قبله فكلهم دون استثناء قد حرم الزواج من

---

١٥٩) نفسه ، ٩ : ٣٣٠٢ - ٣٣٠٣.

حبيبته وحيل بينه وبينها . أما قيس بن ذريح فقد تزوج حبيبته وسعد بهذا الزواج مدة من الزمن ، ولكن واضع القصة يدرك أنه لو استمر ذلك الزواج السعيد ، لما تفجرت ينابيع الشعر العذري عند قيس بن ذريح أو عند من وضع ذلك الشعر على لسان قيس بن ذريح ، لذلك لابد لواضع القصة من أن ينهي تلك (السعادة) التي تربط بين قيس ولبناه فلجأ الى حيلة للتفريق بينهما تكون غيرة أم الزوج هي المحرك لها وقد كان قيس حسب ماتقص الروايات " أبر الناس بأمه ، فألهاته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك ، فوجدت أمه في نفسها وقالت: لقد شغلت هذه المرأة ابني عن بري ، ولم تر للكلام في ذلك موضعا حتى مرض مرضا شديدا ، فلما برأ من علته قالت أمه لأبيه : لقد خشيت أن يموت قيس ومايترك خلفا وقد حرم الولد من هذه المرأة ، وأنت ذو مال فيصير مالك الى الكلالة ، فزوجه بغيرها لعل الله أن يرزقه ولدا ، وألحت عليه في ذلك .. الخ" .(١٦٠)

فموقف أم قيس بن ذريح يختلف عن موقف أمهات شعراء الغزل العذري فهي تسعى للتفريق بينهما ، بينما أم قيس بن الملوح نراها

---

١٦٠) نفسه ، ٩ : ٣٢٠٣.

تذهب بنفسها الى ليلى وتشتكي اليها ما آلت اليه حالة قيس ، وتطلب منها أن تصله عسى وصلها أن يشفيه .

وبالرغم من أن موقف أم قيس يبدو مخالفا لأمهات أقرانه أبطال تلك القصص الغرامية التي نحن بازائها ، فانه أمر مألوف في الحياة الواقعية وقد عبر عنه د. طه حسين بقوله :-

" وأي شيء غريب أو محال في أن تنشأ العداوة بين امرأة وزوج ابنها واي شيء غريب أو محال في أن تغضب الأم أشد الغضب لأن ابنها قد شغل عنها بامرأته ! ثم أي شيء غريب أو محال في أن تفتن هذه الأم المحزونة المخنقة وتلتمس الوسائل المختلفة لتفسد الصلة بين ابنها وزوجه ، وتنغص الحياة على هذه المرأة الغريبة التي أقبلت فاحتكرت الابن احتكارا أو صرفته عن أمه وأبيه واختصت نفسها بوقته وصفوه وعنايته ، ثم أي شيء غريب أو محال في أن يشتد حقد الأم وحنقها كلما أحست ضعفها و قصورها عن الافساد بين الزوجين ؟ فيبعثها ذلك على أن تحتال في قطع الصلة بينهما ، تسلك الى ذلك ما استطاعت من سبيل رفيقة حينا آخر، ناصحة مرة وغاشة مرة أخرى ، ليس في ذلك شيء من الغرابة ولا الاحالة ، وانما هو أمر مألوف يسير الفهم والتفسير "[١٦١] .

وهكذا تقنع الأم الأب برأيها ، ويقترح الأب على ابنه امام[١٦٢]

---

١٦١) حديث الأربعاء ، ١ : ٢٠٥.

١٦٢) انظر ، الأغاني ، ٩ : ٣٣٠٣ - ٣٣٠٤.

وجوه القوم أن يتزوج باحدى بنات عمه ، حتى يرزق منها ولدا يرثه متعللا في ذلك بمرض قيس الذي أشرف فيه على الموت ، ولو مات لما كان له عقب يرث أموال أبيه ، ولكن قيسا يرفض أن يتزوج غيرها أبدا ، فقال له أبوه ان في مالي سعة فتسر بالاماء قال: ولا أسوءها بشيء أبدا والله ، قال أبوه فاني أقسم عليك الا طلقتها فأبى وقال : الموت والله علي أسهل من ذلك ، ثم خيّر والده بين ثلاثة أمور : أن يتزوج الأب لعل الله يرزقه ولدا يرثه ، فرفض الأب معتذرا بقوله فما فيّ فضلة . أو أن يرحل قيس مع زوجه بعيدا عن أهله كما لوكان مات في علته ، ورفض الأب أيضا هذا الرأي . أو أن يرحل قيس ويدع لبنى عند أهله لعله أن يسلاها ورفض والده أيضا هذا الخيار الأخير وقال : لا أرضى أو تطلقها ، وحلف لايكنه سقف بيت أبدا حتى يطلق لبنى، فكان يخرج فيقف في حر الشمس، ويجيء قيس فيقف الى جانبه فيظله برداءه ويصلى هو بحر الشمس حتى يفيء فينصرف عنه ، ويدخل الى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكى وتبكي معه وتقول له : ياقيس ، لاتطع أباك فتهلك وتهلكنى فيقول : ماكنت لأطيع أحدا فيك أبدا . فيقال مكث كذلك أربعين يوما أو سنة ، والبعض يقول عشر سنين ثم طلقها .

وطلاقه من لبنى يعني الانفصال بينه وبين المحبوبة ، والانفصال معناه المعاناة التي تولد الشعر ، وبذلك تعود قصته الى الالتحام بقصص العذريين الآخرين ، كما تشخصها قصة المجنون ، فيشاركهن آلام وأسى البعد والفراق من الحبيبة ، وتتحمل نفسه مالاتطيق . وكلذلك يفجر ينبوع شعره ، وماكان أن يقول ذلك الشعر الذي تتدفق فيه حرارةالعاطفة وزفرات المحب ، لولا انفصاله عن لبنى .

وقد كان وقع الطلاق شديدا قاسيا على قيس ماكان له أن يحتمله " حتى استطير عقله وذهب به ولحقه مثل الجنون وتذكر لبنى وحالها معه فأسف وجعل يبكى وينشج أحر نشيجوبلغها الخبر فأرسلت الى أبيها ليحتملها ، وقيل : بل أقامت حتى انقضت عدتها وقيس يدخل عليها . فأقبل أبوها بهودج على ناقة وبإبل تحمل أثاثها ، فلما رأى ذلك ذلك أقبل على جاريتها فقال : ويحك ! مادهاني فيكم ؟ فقالت : لاتسألنى وسل لبنى ، فذهب بخبائها فيسألها ، فمنعه قومها ، فأقبلت عليه امرأة من قومه فقالت له : مالك ويحك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل ! هذه لبنى ترتحل الليلة أو غدا ، فسقط مغشيا عليه لايعقل ثم أفاق وهو يقول :-(١٦٥)

---

١٦٥) نفسه ، ٩ : ٣٣٠٤ - ٣٣٠٥.

وانّي لمُفْنٍ دَمْعَ عَيْنِي بالبُكَا حِذارَ الذيْ كانَ أوْ هُوَ كائِنُ

وقالُوا غداً أوْ بَعْدَ ذاكَ بِلَيْلَةٍ فراقُ حَبِيْبٍ لمْ يَبِنْ وهُوَ بائِنُ

وماكُنْتُ أخْشَى أنْ تكونَ مَنِيّتِي بكفّيْكِ إلّا أنّ مَاحَانَ حَائِنُ

وبرحيل لبنى تتضافر عليه أحزانه . وماذا يفعل ونفسه مشدودة اليها لاتستطيع أن تنفك من أسرها ، ولا حيلة له في الرجوع اليها ، فقد خرج الأمر من بين يديه ، فلا حول ولاقوة لديه الا أن يذهب يتلمس آثارها ، ويقبل موضع أثر خف بعيرها ، وموضع مجلسها وأثر قدمها ، وكأنه يجد في تلك الآثار بعض التعويض النفسي لما فقده ، ولكنه قد ليم على فعله وعنفه قومه على تقبيل التراب فقال[١٦٦] :-

وما أحْبَبْتُ ارضَكُمُ ولكنْ أُقَبِّلُ إثْرَ مَنْ وطِئَ التُّرابَا

لقدْ لاقَيْتُ مِنْ كَلَفِي بلُبْنَى بلاءً مَا أُسِيْغُ بِهِ الشَّرَابَا

إذا نَادَى المنادِي باسمِ لُبْنَى عَيِيْتُ فَمَا أُطيقُ له جَوابَا .

فالبيت الأول يذكرنا بقول المجنون[١٦٧] :-

أمُرُّ على الديارِ ديارِ لَيْلَى أُقَبِّلُ ذا الجِدَارِ وذا الجِدَارا

وماحبُّ الديارِ شَغَفْنَ قَلْبِي ولكنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِيَارا .

---

١٦٦) نفسه ، ٩ : ٠٣٣٠٦

١٦٧) ديوان مجنون ليلى ، : ٠١٣١

كما أن قصة قيس بعد رحيل لبناه عنه واختلاط عقله ، فيها بعض الشبه مع قصة المجنون بعد أن حرم ليلاه وحجبت عنه ، مع اختلاف في الدرجة ، فقصة المجنون تنطوي على الكثير من المبالغة والخرافة الأسطورية ، فواضع قصة قيس بن ذريح اكتفى بان يجعل حرمانه من حبيبته موءديا الى اختلاط عقله بعض الوقت ، أثناء رحيلها عن قومه وذهابها الى حيّها ، وماتلى ذلك بفترة من الزمن ، ثم عاد الى عقله رغم انه كان يتحمل أصنافا من العذاب النفسي الذي لايطاق . أما واضع قصة المجنون - كما ذكرنا - جعل حرمانه من ليلاه موءديا الى اختلاط عقله في بداية الأمر ، ثم سقوط عقله جملة ، وتوحشه ونفوره واعتزاله الناس والفه الوحوش والظباء ، يعيش معها ويأكل مما تأكل ، وتنتابه حالات من الاغماء شبه دائمة .

ويحاول قيس أن يسلا حبيبته ، ولكن لاطائل له من وراء ذلك ، ويحاول معه أهله فيعرضون عليه الزواج من امرأة جميلة من بنات العشيرة ، كما حاول أهل المجنون وأهل جميل ذلك ، ولكنه يرفض .

وتزداد آلامه وحسراته بالليل خاصة ، فهو مثير الأحزان والأشجان وباعث كوامن النفس الحزينة ، ففي النهار قد ينشغل الانسان بعمل

أو بمقابلة أحد بمصادفة الناس على الأقل في ذهابهم و ايابهم. ولكن الليل حيث يخيم فيه الهدوء ، ويظل الناس بظلامه ، ويأوى الناس الى مضاجعهم ، وينفرد العاشق الجريح في مضجعه لايطاوعه النوم وتحوطه ذكرياته مع من يحب فتتضافر عليه همومه وتكبس على أنفاسه ، فيبعثها زفرات حارة محرقة ، وهذا هو ماحدث بعينة لقيس بن ذريح حينما انفرد وأوى الى مضجعه لم يأخذه القرار وجعل يتململ فيه تململ السليم ، ثم وثب حتى أتى موضع خبائها ، فجعل يتمرغ فيه ويبكى ويقول :- (١٦٨)

بِتُّ و الهمُّ يالُبَيْنَى ضَجِيْعِي ... وَجَرَتْ مُذْ نَأَيْتِ عَنِّي دُمُوعِي

وَتَنَفَّسْتُ إِذْ ذَكَرْتُكِ حتى ... زُلْتُ اليومَ عنْ فوءادِى ضُلُوعِى

أَتَنَاسَاكِ كَيْ يُرِيْغَ فُوءَادى ... ثمَّ يشتدُ عِنْدَ ذَاكَ وُلُوعِي

يالُبَيْنَى فَدَتْكِ نَفْسِي وَأَهْلِي ... هلْ لِدَهْرٍ مَضَى لَنَا منْ رُجُوعِ

وكما تعودنا في قصص هوءلاء العشاق من شعراء البادية ، الذين يحاولون وصل المحبوبة والتعرض لها بالشعر ، رغم رفض أهلها له ، مما يضطر الأهل الى أن يشكوه عند السلطان أو الخليفة ، ويهدر دمه

---

١٦٨) نفسه ، ٩ : ٣٣٠٧ - ٣٣٠٨.

ان تعرض لها مرة أخرى بالشعر أو ان ألم بديارهم . يحدث الأمر نفسه لدى قيس ، فيهدر الخليفة الأموي معاوية دمه ، عندما شكوه قومها لتعرضه ديارهم بعد طلاقه لابنتهم.

ويحاول قيس أن يسلى لبناه جادا ، فيلتمس ذلك بأن يطوف بين أحياء العرب ، ويقابل (١٦٩) صدفة في حي بنى فزارة فتاة جميلة ، فيها شبه من لبنى ، فتحدث اليها وسأل عن اسمها ، فاذا اسمها لبنى ، وربما كان ذلك سببا فى قبول الزواج منها ، نزولا عند رغبة أخيها الذي عرض عليه ذلك ، وتحقيقا لرغبة أبيه ذريح الذي أسعده ذلك الخبر ، وساق الصداق لتلك المرأة.

ولاغرابة (١٧٠) في الحيلة البديعة التي اخترعها واضع القصة ، في زواج قيس من لبنى الفزارية ، فان هذا الاختراع كثيرا مانجده في القصص الغرامي الحديث ، وكثيرا ماتجد في الفن الحديث عشّاقا حيل بينهم وبين عشيقاتهم ، فأخذوا يلتمسونه في نساء أخر يشبهنهن شبها قليلا أو كثيرا .

---

١٦٩) انظر ، نفسه ، ٩ : ٣٣١٧.

١٧٠) انظر ، حديث الأربعاء ، ١ : ٢١٣.

الا أن زواجه من لبنى الفزارية لم يقدر له النجاح ، فلما أدخلت عليه زوجته لم يهش اليها ، ولم ينظر اليها ، ولم يكلمها بحرف ، وأقام عندها أياما كثيرة ، ثم رحل على أمل العودة اليهم لكنه لم يعد ، فقد كانت زوجته القديمة تقف حاجزا وحائلا بينه وبين زوجه الجديدة . والأدهى من ذلك كانت لبناه القديمة فيما مضى قبل زواجه الثاني ، ترفض الزواج من غيره على غير عادة فتيات العذريين اللاتي أجبرن من قبل أهلهن على الزواج من أشخاص لايحبونهن ، بل اضطررن الى هذا الزواج كارهات ، وقلوبهن معلقة بالحبيب الأول . ولكن على الرغم من اصرار لبنى قيس على رفض الزواج فانها قد انصاعت للزواج من رجل آخر رحل بها الى المدينة ، عندما علمت بزواج قيس من أخرى فتحركت لديها مشاعر الغيرة .

وقد ظل(١٧١) قيس يحتال الحيل عله يقابل لبنى فمرة يذهب مع أبناء عمه الى حيها متعللا بالصيد ، ولكنه لم يستطع رؤيتها في تلك المرة ، ومرة يقتطع بعض ابل أبيه لكي يبيعها في المدينة ، ويفهم والده

---

١٧١) انظر، الأغاني ، ٩ : ٣٣٠٩ ، ٣٣٢٤ - ٣٣٢٥ ، ٣٣٢٩ - ٣٣٣٠.

انه انما يريد الذهاب الى المدينة لكي يرى لبنى ويغضب عليه والده ، واستطاع بهذه الحيلة أن يقابلها مصادفة ، ومرة أخرى قصد المدينة بعد أن زادت علته ، واقترح عليه والده الذهاب الى المدينة حتى يشفى بقربه من لبنى . فنزل في المدينة على امرأة من أظرف النساء واكرمها تدعى " بريكة " ، كان لها زوج من قريش له دار ضيافة فسألها أن تمكنه من رؤية لبنى ولو بنظرة واحدة ، واجتهدت بريكة في أن تزوره لبنى في دارها وتتحدث معه .

وتطالعنا قصة قيس مع لبنى بفيض من الحب ، الذي ينطوي على قدر هائل من الاخلاص والوفاء المتبادل بين الطرفين ، وبعد عن الاسراف في المبالغة فهي بحق قصة انسانية كما وصفها د. طه حسين " فالخيال لم يخترعها وانما الفها تأليفا ، وتنطوي تلك القصة على كم من الأحداث المستمدة من واقع تجارب الناس في حياتهم اليومية "(١٧٢) .

ولاتخلو أيضا من الأحداث الخيالية المألوفة في قصص هؤلاء الشعراء الذين يسمون بشعراء الغزل العفيف ، فبدايتها بداية مألوفة كما ذكرنا في مثل تلك القصص الغرامية . وكذلك اهدار دمه من قبل الخليفة أيضا

---

١٧٢) حديث الأربعاء ، ١ : ٢٠٤ .

شيء متعارف عليه في مثل تلك المواقف ، ومن المألوف أيضا المبالغة في شفائه واشرافه على الموت ، واختلاط عقله بعد أن حيل بينه وبين من أحب وموته وموتها بعد أن أضناهما الحب . الا أن الأشياء الغير مألوفة ، والتي وردت في تلك القصة مخالفة طراز العذريين هي ، زواج المحب من حبيبته ، فقد قدر لهذا الحب الذي يربط بين قيس ولبنى أن يكلل بالزواج ، وسعدا به وعاشا فترة من الزمن بأسعد وأنعم حال ، وكان من الممكن أن يستمر هذا الزواج لولا غيرة الأم التي أدت الى التفريق بين الزوجين. بينما لم يتمكن قيس من أن يتزوج ليلى ، ولم يتمكن جميل من أن يتزوج بثينة ، ولم يتمكن عروة من أن يتزوج عفراء ولم ولم ... الخ .

- نجاح الوساطة التي استعان بها قيس بن ذريح في أمر زواجه ممن يحب ، وهذا شيء مخالف للعادة التي جرت على فشل مثل تلك الوساطات ، التي حاولت التقريب أو فلنقل الجمع بين المجنون وليلى ، وبين جميل وبثينة وبين كثيّر وعزة . ولكن ماكان لوساطة قيس بن ذريح أن تفشل وقد استعان فيها برضيعه الحسين بن علي - رضي الله عنه - حفيد رسول الله (ص) والعالم بأحكام سنته وأحاديثه " لايخطب أحدكم على خطبة أخيه "

يسعى في التفريق بالطلاق بين زوج وزوجه . فالرسول (ص) ينهى من أن يخطب مسلم امرأة تقدم لخطبتها رجل قبله الا اذا رفض هذا الرجل ، لأن مثل تلك الأمور تؤدي الى الكراهية و البغض بين الناس .

- واذا كان من المألوف اهدار السلطان أو الخليفة لدم الشاعر ، ان ألم بحى الحبيبة ، أو ذكرها في شعره ، فليس من المألوف أن يتخلى الخليفة عن موقفه ويأمر باسقاط حكمه باهداره دم الشاعر ، ويبيح له أن ينتقل في أي بلد شاء حتى لو كان بلد الحبيبة ، فلم يسقط السلطان أو الوالي أمره في هدر دم جميل أو المجنون .

- ومن الأمور التي تسترعي الانتباه في قصة قيس ولبنى ذلك الاخلاص و الوفاء العجيب في الحب الذي يربط بينهما ، فقد يقول قائل وأيّ اخلاص وقد تزوج كل منهما بزوج آخر ؟ فنقول لقد تزوج قيس مكرها بفتاة نستطيع أن نقول قد فرضت عليه من قبل أخيها وأبيه ، ولم يكن ليرضى بها لو لم يكن فيها شبه بلبنى في شكلها بل حتى في اسمها ، ومع ذلك فاخلاصه في الحب القديم أبى عليه أن يهش الى تلك المرأة ليلة زفّت اليه أو يكلمها أو حتى ينظر اليها . ولم تكن لبنى بأقل منه اخلاصا ووفاء بل كانت تتساوى معه ، فهي لم تتزوج بغيره مدة من الزمن - على

عكس الحبيبات الأخريات - فقد اجبرت ليلى على زواجها من غير المجنون كذلك اجبرت بثينة على زوجها من غير جميل ، وكذلك الحال بالنسبة لعزّة صاحبة كثيّر وعفراء صاحبة عروة . فكل من هؤلاء الفتيات اجبرت بالزواج من رجل آخر غير الذي أحبها وأحبته ، ولم تقبل لبنى على الزواج من غير قيس الا عندما علمت بزواجه من أخرى ، والأدهى من ذلك اعترافها أمام زوجها بأنها لم تتزوجه رغبة فيه ولارغبة فيما لديه بل خوفا على قيس من أن يهدر دمه . فأي اخلاص نحن بصدده بعد هذا الاخلاص أن تتزوج امرأة رجلا وهي كارهة له ، لكي تحفظ حياة حبيبها . وقد يقول قائل أيضا ان هذا الاخلاص والوفاء في الحب ليس بمستغرب في مثل تلك القصص ، فقد ظل المجنون ضاربا عن فكرة الزواج بغير ليلى الى أن مات ، وكذلك الحال بالنسبة لجميل وكثيّر وعروة كلمنهما ظل رافضا لأي عرض قدم اليه في الزواج ، أما بالنسبة للفتيات العاشقات أمثال ليلى صاحبة المجنون ، وبثينة صاحبة جميل ، وعفراء صاحبة عروة ، فقد اجبرن من قبل أهلهن كارهات أيضا على الزواج برجل غير الحبيب من اختيار الأهل ، فتلك ليلى - حسب ماتقص الروايات - هددها أهلها بأن يمثلوا بها اذا لم توافق على الزواج من ورد. ولكن هناك فارقا بين أن تتزوج امرأة

برجل مجبرة عليه لاحول لها ولا قوة في دفع هذا الزواج الذي تعلم ان فيه شقاءها ، وبين أن تتزوج امرأة بارادتها رجلا تكرهه وبامكانها ألا تتزوجه ولكنها تضحي بسعادتها وبهنائها في سبيل أن تنقذ حياة من تحب ، هذا الوفاء والاخلاص من جانب لبنى ، أما من جانب قيس ، فقد كان حريصا على أن يظل محبا وفيّا للبنى ، حريصا على كرامتها ، ففي الوقت الذي يسعى فيه جميل الى الغدر ببثينة انتقاما من أهلها ، فينام بجانبها عند ركبه فاذا أشرق الصباح بنوره تولى وتركها نائمة عند ركبه لاحقا بها العار والفضيحة ، ان لم يكن هذا الخبر موضوعا على أحداث القصة الأصلية . وفي الوقت نفسه يحرص قيس بن الملوح على أن يلقى ليلاه ،وتحرص والدته على أن تسعى الى ليلى وتطلب منها مقابلة ابنها ، وتأتيه في حيّه وتقضي معه الليل ، ثم ترجع الى حيها قبل أن يسفر الفجر ، دون أن يأبه لما قد يلحق بها من الضرر لو علم بذلك أهلها ، يتمثل لنا قيس بن ذريح في حرصه على كرامة لبناه ، وخوفه عليها من الفضيحة والعار ، فيرحل من بلده الى المدينة بسببها ، ويدخل بيتها لكي يقتضي من زوجها ثمن ناقة باعها له ،وهو لايعلم ان هذا هو زوج لبنى ، فلما رآها لم يكن منه الا أن بهت ساكتا ثم انفجر باكيا ، وخرج دون

أن يقبض ثمن ناقته ، لقد كان بامكانه أن يقضي مع حبيبته وقتا يتحادثان فيه ويمتع عينه بالنظر اليها ، ولكن كرامتها محفوظة عنده يأبى لها الا العزة ، فلو اتيحت مثل تلك الفرصة لجميل أو لكثير أتراهم يفعلون مثل مافعل قيس بن ذريح ؟ أعتقد انهم لم يكونوا ليضيعوا على أنفسهم فرصة كتلك . وهذا عروة اقتنص وجوده ضيفا عندزوج حبيبته عزّة ، فأمر جارية لهابأن تخبر عزّة خبره ، وأن تضرب لهما موعدا وحصل له ما أراد ، وفي مرة ثانية يرحل قيس الى المدينة لكي يكون قريبا من لبنى وينزل في دار(بريكة) وتقول له حاجتك مقضية أيّاما كانت . فيطلب منها أن تمكنه من رؤية لبنى ولو بنظرة فقط . فهو لايريد الا أن تكون كرامة لبنى موفورة بعيدة عن الشك و الريبة وليس أدل على ذلك من أن يقول له يزيد بن معاوية : " سل ماشئت ان شئت أن اكتب الى زوجها فأحتم عليه أن يطلقها فعلت ، قال : لا أريد ذلك " (١٧٣)

.. .. ..

---

١٧٣) الأغاني ، ٩ : ٣٣٣١.

عروة بن حزام :

وعروة بن حزام شاعر آخر من الشعراء العذريين المتيمين الذين قتلهم الهوى حسب ماتذكر روايته ، وكل ماقاله من شعر محصور في تشبيبه بصاحبته عفراء وهي في الوقت نفسه ابنة عمه عقال .

ويورد أبو الفرج الأصبهاني روايات مختلفة ومتناقضة ، في شأن عروة وعفراء ، وعلى أي حال فهو شاعر عذري ، وقصة حبه لعفراء نمط عذري مألوف في كل القصص العذرية مع فروق بسيطة في التفاصيل . فقد ربّي يتيما في كنف عمه عقال بن مهاصر والد عفراء ، وكانت عفراء تربا لعروة وكان عمه يمنيه دائما بالزواج من عفراء ، ولما شبّا علق كل منهما هوى الآخر ، واختار عروة في أمره وخاف أن يزوّج عمّه ابنته برجل ذي مال وعروة لايملك شيئا . وجريا على العادة العذرية يستعين عروة بالوساطة لكي تسهل عليه ما أراد فيلجأ الى عمة له ويخبرها خبره ، وماكان من تلك العمة الا أن سعت الى الخير ، فذهبت الى أخيها عقال فقالت له : - " ياأخي : قد أتيتك في حاجة أحب أن تحسن فيها الرد ، فان الله يأجرك بصلة رحمك فيما أسألك ، فقال لها قولي ، فلن تسألي حاجة الا رددتك بها ، تزوّج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء ، فقال :

ماعنه مذهب ، ولاهو دون رجل يرغب فيه ، ولابنا عنه رغبة ، ولكنه ليس بذي مال ، وليست عليه عجلة ، فطابت نفس عروة وسكن بعض السكون "(١٧٤)

ولكن وساطة العمة تبوء بالفشل وسط جشع الأم ، فأم عروة تأبى أن تزوج ابنتها رجلا فقيرا معدما كعروة ، بل يريد لها زوجا موسرا ، لذلك يضطر عروة الى أن يستعين بواسطة أخرى ، ربما يكون لها تأثير على زوجة عمه ويرضي طمعها وجشعها ، فيقصد ابن عم له موسرا في اليمن ، ويصحبه في سفره فتيان من بنى هلال بن عامر ، وقد لاحظا عليه في أثناء السفر تباريح الحب ، فكان في طول سفره ساهيا ، يكلمانه فلا يفهم فكره في عفراء ، وهو خائف من أن تزوج محبوبته برجل في غيبته ، وعندما قصد ابن عمه أكرمه وكساه وأعطاه مائة من الابل فانصرف بها الى أهله ، وفي تلك الأثناء جاء رجل من أهل الشام من بنى أمية خاطبا لعفراء ، وكان ذا مال فزوجت له عفراء نزولا عند رغبة الأم ، ثم رحل بها زوجها الى الشام . وقالت عفراء قبل أن يدخل بها(١٧٥) :-

يَاعُرْوَ انَّ الحَيَّ قدْ نَقَضُوْا عَهْدَ الإلهِ وحاولُوا الغَدْرَا.

---

١٧٤) نفسه ، ٢٨ : ٠٩٥٦٧

١٧٥) نفسه ، ٢٨ : ٠٩٥٨١

ولما عاد عروة من اليمن أخفى عمه عليه نبأ زواجها ، وادعى انها ماتت ، فمكث عروة يتردد على قبرها المزعوم ، وقد ملكه الحزن عليها . ثم أخبرته جارية من الحي بزواج عفراء ، وعلى عادة الغزليين العذريين يرحل الى بلد الحبيبة الجديد ، رغم انها تحت امرة رجل ، وعندما وصل الى الشام وقصد زوجها وانتسب اليه فى عدنان وقد أكرمه ، وأقام في ضيافته أياما ، ثم اضطر عروة أن يلجأ الى حيلة حتى يرى عفراء ، فماكان منه الا أن أخبر جاريتها بخبره ، وأمرها أن تطرح خاتمه في صبوحها ، وعندما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم ، فعرفته وشهقت وطلبت من جاريتها أن تخبرها خبره ، وبالتالي أخبرت زوجها عنه . ولايهمنا اختلاف تلك الرواية عن الرواية الأخرى التي أوردها الأصبهاني ، حتى أن كل من الروايتين تفيد أنه قصد زوجها ونزل ضيفا عليه .

وبالرغم من أن واضع قصة عروة جعله أحد أولئك الشعراء العذريين الذين أضناهم العشق وأهلكهم وأسلمهم للمرض الشديد ، وحول أنفاسهم زفرات ، وجعل قلوبهم تتحرق على حبيباتهم أسى ولوعة ، ولطالما تمنى أولئك العذريون أن ينعموا بوصل أحبتهم ، ووسطوا الوسطاء من وجوه القوم ، لكى يقنعوا أهل الحبيبة بتزويجها اياهم ، فانه عندما علم

زوج عفراء بما يكنه عروة لعفراء وماتكنه عفراء لعروة ، وبما يلاقي كل منهما من ألم الفراق دعا عروة اليه وقال له : - " اتق الله في نفسك ، فقد عرفت خبرك ، وانك ان رحلت تلفت ، ووالله لا امنعك من الاجتماع معها أبدا ، ولئن شئت لأفارقنها ولانزلن عنها لك ، فجزاه خيرا وأثنى عليه ، وقال : انما كان الطمع فيها آفتي ، والآن قد يئست ، وقد حملت نفسي على الصبر ، فان اليأس يسلي ، ... الخ "(١٧٦)

وهكذا أراد واضع القصة للبطل - عروة - أن يرفض عرض الزواج ، لأنه لو قبل هذا العرض وتزوج من عفراء بعد طلاقها من زوجها لكانت نهاية قصته ، ولما قدر لها أن تنضم الى قصص العذريين التي تنطوي على الحرمان واليأس المضني ، ولما وصل الينا ذلك الشعر المنسوب لعروة ، ويقدم لنا واضع القصة في رفض عروة هذا دليلا على استعذاب العذري للألم في تعذيب النفس . ولم يكن واضع القصة يريد لعروة أن يقبل هذا العرض السخي من زوجها ، لأنه لايريد أن ينهي قصته بتلك النهاية السعيدة - ان صحّ التعبير ، ولكنه يريد أن يشحذ عواطف الناس ، ويقطر أنفسهم حسرة الى حالة عروة التي صيّرها اليه الحب ، أراد لقصته

---

١٧٦) نفسه ، ٢٨ : ٠٩٥٧٢

أن تنطوي على الغرائب التي تشد انتباه الناس وأسماعهم اليه ، فقد أهلك العشق عروة وصيّره نضو انسان قلبه دائم الخفقان .

فيقول عروة (١٧٧) :-

إذا رامَ قلبي هجرها حالَ دونَهُ ... شفيعانِ من قلبي لها جدلانِ

إذا قلتُ لا قالا بلى ثمَّ أصبحا ... جميعاً على الرأي الذي يريانِ

تحمّلتُ من عفراءَ ما ليس لي بهِ ... ولا للجبالِ الراسياتِ يدانِ

فيا ربَّ أنتَ المستعانُ على الذي ... تحمّلتُ من عفراءَ منذُ زمانِ

كأنَّ قطاةً عُلّقتْ بجناحِها ... على كبدي من شدّةِ الخفقانِ .

وبفراق عروة لحبيبته وعودته الى بلاده ، يبدأ رحلة الشقاء والألم واليأس شأن العذريين ، ولاتخلو قصته من عنصر المبالغة والخرافة التي تشيع في قصص العذريين عامة ، فتكثر حالات الاغماء لديه ، ولابد من دواء يفيقه ، فكان كلما أغمي عليه ألقي على وجهه خمار لعفراء زودته اياه فيفيق . ولايختلف عروة عن العذريين أيضا في قصد أماكن

---

١٧٧) نفسه ، ٢٨ : ٩٥٧٥ .

الأحبة القديمة والتمرغ في موضع آثارها ، " فكان يأتي حياض الماء التي كانت ابل عفراء تردها ، فيلصق صدره بها ، فيقال له : مهلا فانك قاتل نفسك ، فاتق الله ! فلا يقبل ، حتى أشرف على التلف ، وأحس بالموت ، فجعل يقول (١٧٨) :-

بيَ اليأسُ والداءُ الهيامُ سُقيتُه فإيَّاكَ عنيْ لايَكُنْ بكَ ماليَا

وتتقدم حالته سوءا حتى يصبح كأنه نضو انسان ، ولم يبق منه الا خياله ، وترد (١٧٩) ، وترد بعض روايات الأصبهاني انه كانت تحمله امرأة ، وكأنه غلام جزل ليس يحمل مثله ، ويعجز العرّافون عن مداواته ويعتذرون عن شفاء علته .

يقول عروة (١٨٠) :-

جعلتُ لعرّافِ اليمامةِ حُكْمَهُ وعرّافِ حَجْرٍ انْ هُمَا شَفَيَانِي

فمَا تَرَكَا مِنْ حِيْلَةٍ يَعْرِفَانِهَا ولاشَرْبَةٍ إلّا وقدْ سَقَيَانِي

ورشّا علىْ وجهِي منْ الماءِ ساعةً وقَامَا مَعَ العوّادِ يَبْتَدِرَانِ

---

١٧٨) نفسه ، ٢٨ : ٠٩٥٧٧

١٧٩) نفسه ، ٢٨ : ٠٩٥٧٨

١٨٠) نفسه ، ٢٨ : ٠٩٥٧٥

وقالاْ شَفَاكَ اللّهُ مَالَنَـــا بِمَا ضُمّنَتْ مِنْكَ الضُلوعُ يَـــدَان.

وقد كانت نهاية عروة لاتختلف عن نهاية العذريين ، فهو صريـــع الحب والجوى ، وقد اعترفت عفراء بذلك أمام زوجها قائلة :-

" لقد مات فيّ وبسببي ، ولابد لي من أن أندبه وأقيم مأتما عليه ، قال : افعلي ، فما زالت تندبه ثلاثا حتى توفيت في اليوم الرابع "(١٨١).

وهذه القصة بصورتها التي لخصناها ، لاتعدو أن تكون احدى القصص التي أوردناها عن العذريين ، ووجه الشبه بينها وبين مثيلاتها من قصص الغرام العذري بين واضح ، ففيها عشق الفتى للفتاة منذ الصغر وتمنيه أن يتزوج منها الا أنه لابد من وجود عراقيل تمنع هذا الزواج ، ولـــم يكن في هذه القصة الممانعة من الأهل لأن الشاعر قد ذكر ابنهم في شعره ، بل بسبب جشع الأم ورفضها أن تزوج ابنتها من رجل فقير مثل عروة ، وفي تلك القصة أيضا الوسطاء الذين يحاولون أن يسعون في الجمع بين المحبين وقد بدا هذا العنصر متمثلا في العمة أولا التي طلبت من أخيها أن يزوج ابنته عفراء لابن أخيه عروة ، ولما فشلت تلك الوساطة تجلت وساطـــة

---

١٨١) نفسه ، ٢٨ : ٩٥٨٠ .

أخرى ، في ابن العم الموسر الذي كان يقيم باليمن ، ويساعده عروة ماديا ، ولكن تتزوج الحبيبة برجل آخر من الشام قبل عودة عروة من اليمن ، ولا عجب فأغلب الوساطات العذرية تفشل في مهمتها . كما تتفق قصة عروة مع مثيلاتها في عنصر المبالغة في حالات الاغماء والمرض الذي صيّره نضو انسان شبيه بالغلام الذي يحمل ... الخ ، وفشل الأطباء في شفائه واشرافه على الموت ، ثم هلاكه بسبب الحب الفاشل القائم على الحرمان . وفي تلك الرواية أيضا محاولة العاشق أن يصل حبيبته حتى بعد أن زوجت بغيره ، فيرحل من البادية الى الشام محتالا ليراها ويتحقق له ذلك .

وفي القصة أشياء مخالفة لقصص العذريين ، فعروة مثلا لم يتعرض لاهدار دمه من قبل السلطان ، فأهل عفراء لم يشكوه لتعرضه لفتاتهم وقد زوّجت ، ولا لذكرها في شعره ، وربما السبب يعود الى رابطة القرابة القوية ، التي تربط بينهما فهي ابنة عمه ، وقد ربّي في بيت والدها .

كما أن زوج عفراء لمّا عرف خبرهما ، عرض عليه أن ينزل عنها له ، الا أن عروة رفض ، ولانصادف مثل هذا الحدث في قصص العذريين الأخرى ماعدى في قصة قيس بن ذريح ، الذي عرض عليه يزيد بن معاوية ، أن يفرق

بين لبنى وزوجها ، لكي يتزوجها قيس ، فرفض الآخر ـ وعللنا سبب الرفض عند الشاعرين .

ان السبب الثانس الذي يجعلنا نقطع بان تلك القصة ، مثل غيرها من القصص التي لخصناها ، موضوعة على لسان الرواة ، ماتحتويه من أخبار متضاربة ، فكل خبر يورده أبو الفرج لابد أن يأتي بعد ذلك بخبر يناقضه ، وهذا مايجعلنا نشق بأن تلك القصص ، قد وضعها الرواة واجتهدوا فيها ،لكي تصبح أسمارا يسمعها الناس ويتسلون بها ، ومن ثم حرص أبي الفرج على أن يضمنها كتابه ، وهذه طريقته في اختيار وجمع الأخبار الطريفة والمسلية على حد قوله . فمن وجوه الخلاف والتناقض في الروايات التي ذكرها أبو الفرج الأصبهاني ، ان السبب في حرمان عروة من عفراء هو جشع أمها وطمعها في أن تزوجها من رجل غني ، مما جعل عروة يستعين أولا بعمته لاقناع عمه ، ثم بابن عمه حتى يعينه ماديا لكي يرضي أمها . وفي موضع آخر يجعل السبب في منع زواج عروة من عفراء عمه وعمها فيقول :ـ " ان عفراء كانت يتيمة في حجر عمها عمه ، فعرضها عليه فأباها ثم طال المدى ، وانصرف عروة في يوم عيد ، بعد أن صلى صلاة العيد فرآها وقد زينت ، فرأى جمالا بارعا ، وقد قدمت له تحفة ، فنال منها وهو ينظر اليها ، ثم خطبها الى عمه

فمنعه ذلك ، لما كان من كراهته لها لما عرضها عليه ، وزوّجها رجلا غيره ، فخرج الى الشام ، وتمادى في حبها حتى قتله "(١٨٢) وان كنا نرى أن واضع القصة الأصلي ربما اتجه الى الرأي الأول ، لأنه أكثر اقناعا من الثاني ، وأقرب الى الواقع.

ويورد الأصبهاني أيضا روايتين مختلفتين ، عن الكيفية التي عرف بها عروة خبر زواج عفراء ، ففي الوقت الذي أورد فيه خبرا، يتضمن ان بعد عودته مع ابن عمه من اليمن ، اختلق له عمه موتها ونعاها ، وذهب به الى قبر قديم كان قد جدده قبل عودته ، وأخبره بأن هذا هو قبرها ، ومكث أياما يتردد عليه عروة ، الى أن أخبرته ذات يوم جارية من قومه بخبر زواجها ، يورد الأصبهاني في موضع آخر " أنه لم يعلم بتزويجها حتى لقى الرفقة التي هي فيها ، وأنه كان توجه الى ابن عم له بالشام لا باليمن ، فلما رآها وقف دهشا ثم قال :-(١٨٣)

فَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً ... فَأُبْهِتُ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ

وَأَصْدِفُ عَنْ رَأْيِ الذِي كُنْتُ أَرْتَئِي ... وَأَنْسَى الذِي أَزْمَعْتُ حِيْنَ تَغِيبُ

---

١٨٢) نفسه ، ٢٨ : ٩٥٨١.

١٨٣) نفسه ، ٢٨ : ٩٥٨١.

وَيُظْهِرُ قَلْبِي عُذْرَهَا وَيُعِينُهَا عليَّ فَمَا لِي فِيَّ الفؤادِ نَصِيبُ

وقدْ عَلِمَتْ نَفْسِي مَكَانَ شِفَائِهَا قَرِيباً وهلْ مَالايَنَالُ قَرِيبُ

حَلَفْتُ بِرَبِّ السَّاجِدِيْنَ لِرَبِّهِم خُشوعاً وفوقَ السَّاجدينَ رَقِيبُ

لِئَنْ كانَ بردُ الماءِ حرَّانَ صادِياً الَيَّ حَبِيْباً إنَّها لحبيبُ .

ومن أخبار أبي الفرج الأصبهاني المتناقضة ، في خبر عروة على سبيل المثال لا سبيل الحصر ، انه (١٨٤) لما ارتحل عروة الى الشام ونزل ضيفا على زوج عفراء ، وقد أخفى نسبه ، ثم لما علمت به عفراء ورأته أخبرت زوجها ، بأن هذا الرجل هو عروة ابن حزام ابن عمي ، وقد كتمك نفسه حياء منك ، ثم يذكر بعد ذلك خبرا مناقضا لذلك ، مفاده أن من أعلم الزوج بخبر عروة ليست عفراء بل ابن عم لزوجها ، الذى قال : " أتركتم هذا الكلب الذي قد نزل بكم هكذا في داركم يفضحكم ؟ فقال له : ومن تعني ؟ قال : عروة بن حزام العذري ضيفك هذا ، قال أو انه لعروة ! بل أنت والله الكلب وهو الكريم القريب "(١٨٥).

---

١٨٤) انظر، الأغاني ، ٢٨ : ٩٥٧١.

١٨٥) نفسه ، ٢٨ : ٩٥٧١.

ومن يريد أن يعرف عن تلك الأخبار المتضاربة ، يرجع الى أخبار عروة بن حزام في كتاب الأغاني ، ليجد كما هائلا منها ، سواء ماتعلق بموته أو بمرضه ... الخ .

- ٢ -

أما شعراء الغزل العفيف الآخرون ، الذين ثبت وجودهم التاريخي ثبوتا قاطعا ، فتشخص قصصهم قصة جميل وكثير ، وهما شاعران أمويان عفيفان في الغزل ، اختلطت قصتهما بسبب هذه القصة بقصص العذريين الآخرين ، على الرغم من احتواء هذه القصة على أحداث ومواقف ، تتعارض مع مانجده في قصص العذريين ، وهو مايجعل من قصة جميل بثينة ، وقصة كثيّر عزّة ، نمط بعينه من قصص الحب العفيف ، يحتاج الى وقفة نتبين فيها طبيعة هذا النمط من الغزل .

١- جميل بن معمر :

وقد بدأت قصة جميل بثينة عندما " أقبل يوما بابله ، حتى أوردها واديا يقال له بغيض ، فاضطجع وأرسل ابله مصعدة ، وأهل بثينة بذنب الوادى ، فأقبلت بثينة وجارة لها واردتين الماء ، فمرتا على فصال بروك فعرفتهن - نفرتهن - بثينة ، وهى اذ ذاك جويرية صغيرة ، فسبها جميل ، فافترت عليه ، فملح اليه سبابها فقال :-(١٨٦)

---

١٨٦) نفسه ، ٨ : ٢٨٤٣.

وأوّلُ مَاقَادَ المودةَ بَيْنَنَا بِوَادِي بَغِيْضٍ يَابُثَيْنَ سَبَابُ

وقُلْنَا لهاْ قولاً فَجَاءَتْ بِمِثْلِهِ لكلّ كَلامٍ يَابُثَيْنَ جَوَابُ.

فقصته مع بثينة لاتختلف عن قصص العذريين ، فقد لقيها مصادفة ، واستعذب كلامها أو بالأحرى - سبابها - فاعجب بها وأعجبت به ، فبدأت مشاعر الحب تنمو بينهما مضطرمة ، وتذكي معها وحي غزل جميل الشعري، ودعاه حبه الى أن يطلب الارتباط بها شرعا ، وهنا يتدخل المجتمع بتقاليده الصارمة ، فيمنع ذلك الزواج والعلة في ذلك - حسب ماتقص الروايات - الفضيحة والعار الذي سيلحق بأهلها ، ان زوّجوها رجلا قد شبب بها في شعره . فتضعف بارقة أمله في زواجه من محبوبته ، ويعتصره اليأس ، ويكابد حرقة الأشواق والحرمان ، فتزداد حالته سوءا ، مما يزعج أقرب الناس اليه أبوه وأمه وقومه كافة .

يقول(١٨٧) :-

لقدْ لامَني فيهاْ أخٌ ذُوْ قَرَابَةٍ حبيبٌ إليهِ فيْ مَلاَمَتِهِ رُشْدِي.

ويجتهد الأهل في أن ينسوه بثينة ، ويحاولوا أن يعرضوا عليه

---

١٨٧) ديوان جميل بثينة ،حققه وقدّم له فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، ١١٨.

الزواج باحدى فتيات القوم الأخر ، ويصطنعوا له الحيل في ذلك ، ويقول له أبوه : - " وفي النساء عوض " . لكنه لايريد الا بثينة ، ولايستطيع سلواها وأنّى له ذلك وقد هويها وهويته منذ الصغر ، حيث كان لم يزل غلاما ، وهي لم تزل جارية صغيرة ، يقول(١٨٨) :-

- عَلِقْتُ الهَوَى مِنْهَا وَلِيْداً فَلَمْ يَزَلْ

إِلىٰ اليَوْمِ حُبُّهَا يَنْمِي وَيَزِيْدُ ،

فقد كان حب جميل لبثينة عفا طاهرا ، لم ينل منها سوى اللقيا في غفلة من أهلها يسعد بقربها ، ويتبادلا رشفات من الحب الطاهر العف ، وليس أدل على ذلك أنه في احدى خلواته به " سعت أمة لبثينة الى أبيها وأخيها وقالت لهما : ان جميلا عندها الليلة ، فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالسا حجرة منها يحدثها ويشكو اليها بثه ، ثم قال لها : يابثينة ، أرأيت ودي اياك وشغفي بك ألا تجزينيه ؟ قالت : بماذا ؟ قال : بما يكون بين المتحابين : فقالت له ياجميل أهذا تبغي : والله لقد كنت عندي بعدا منه ، ولئن عاودت تعريضا بريبة

---

١٨٨) نفسه ، : ٢٧.

لارأيت وجهي أبدا . فضحك وقال : والله ماقلت لك هذا الا لأعلم ماعندك فيه ولو علمت انك تجيبيني اليه لعلمت أنك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ما استمسك في يدي ، ولو طاوعتني نفسي لهجرتك هجرة الأبد ، أو ما سمعتي قولي :-

وانّي لأَرْضَى منْ بُثينةَ بالذيْ ... لوْ أَبْصَرَهُ الواشِي لقَرَّتْ بَلابِلُهْ

بِلاْ وبَأَلاّ اسْتَطِيْعُ وبِالمُنَى ... وبالأملِ المَرْجُوِ قَدْ خَابَ آمِلُهْ

وبالنظرةِ العُجْلَى وبالحَوْلِ تَنْقَضِي

أَوَاخِرُهُ لانَلْتَقِي وأَوَائِلُهْ .

فقال أبوها لأخيها : قم بنا ، فما ينبغي لنا بعد اليوم أن تمنع هذا الرجل من لقائها ، فانصرفا وتركاهما "(١٨٩) .

وسواء أكانت تلك القصة حقيقية أو موضوعة ، فهي لاتدل على شيء بمقدار ماتدل على الحب العف الطاهر ، الذي يجمع بينهما .

وتزداد الأمور سوءا وتعقيدا بزواج بثينة من رجل آخر ، الا أن الشاعر المحب لايكف عن حبه ولايرعوي بزواج محبوبته ، وكأنه يحس بأن بثينة قدره لايحيد عنه ، ويزداد تعلقه بها يوما بعد يوم ، فليس شيء

---

١٨٩) الأغاني ، ٨ : ٢٨٥١ .

أحب الى قلبه ، من أن يلقاها ساعة من الزمن بعيدا عن الوشاة ولو كلفه ذلك حياته .

يقول(١٩٠) :-

مضْ لِيْ زَمَانٌ لَوْ أُخَيَّرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَيَاتِي خَالداً آخِرَ الدَّهْرِ

لقلتُ ذرونِي ساعةً وبثينةَ علىْ غفلةِ الواشينَ ثمَّ اقطعُوا عُمْرِي .

وتستمر محاولات جميل في أن يلقي بثينة ، في غيبة زوجها وأبيها عن الحي ، ليشكي كل منهما للآخر مايعانيه من تباريح الحب وحرقة الأشواق وضنى البعد . ويضيق(١٩١) قوم بثينة ذرعا بجميل وتردده على أحيائهم فيشكونه الى السلطان فتقدم اليه ألا يلم بأبياتها وأهدر دمه لهم ان عاود زيارتها ، فاحتبس حينئذ " فحذرهم مرة ثم وجدوه عندها ، فأعذروا اليه وتوعدوه وكرهوا أن ينشب بينهم وبين قومه حرب في دمه ، وكان قومه أعز من قومها ، فأعادوا شكواه الى السلطان ، فطلبه طلبا شديدا ، فهرب الى اليمن فأقام بها مدة "(١٩٢) .

---

١٩٠) ديوان جميل بثينة ، : ٣٨.

١٩١) انظر ، الأغاني ، ٨ : ٢٨٥٤.

١٩٢) نفسه ، ٨ : ٢٨٧٠.

وهكذا تجري الأحداث في غير صالحة ، ويتبدد صبره ، ولايقوىعلى ضبط زمام نفسه ، فكان يمعد بالليل على قور رمل يتنسم الريح من نحو حي بثينة (١٩٣) ويقول :-

أَيَّا رِيْحَ الشَّمالِ أَمَا تَرَيْنِي ... أَهِيْمُ وأَنَّنِي بادِيْ النُّحُولِ

هَبِيْ لِي نَسْمَةً مِنْ رِيحِ بَثْنٍ ... وَمُنِّي بالهبوبِ إلى جميلِ

وقولِي يابثينةُ حَسْبُ نَفْسِي ... قَلِيْلُكِ أَوْ أَقَلَّ مِنَ القَلِيْلِ.

فاذا بدا وضح الصبح انصرف ، وكانت بثينة تقول لجوار من الحي عندها : ويحكن اني لأسمع أنين جميل من بعض القيران : فيقلن لها : اتقي الله فهذا شيء يخيله لك الشيطان لاحقيقة له (١٩٤).

وعلى الرغم من طهر وعفة الحب الذي يكنّه جميل لبثينة ، الا أنه أحيانا عندما يضيق ذرعه بالحرمان ، ينهج نهجا مخالفا لعادات العرب وأخلاقهم ، فهو (١٩٥) يلم بها في بيتها وبين قومها في غيبة زوجها

---

١٩٣) نفسه ، ٨ : ٢٨٥٥.

١٩٤) نفسه ، ٨ : ٢٨٥٥.

١٩٥) انظر ، الأغاني ، ٨ : ٢٨٦١ ، ٢٨٦٢.

ويسامرها الليل ثم ينام بجانب منها الى أن وضح النهار ، ويأتي خادم زوجها اليه بصبوح من اللبن ، فيرى جميلا عندها ، ويرجع مسرعا لكي يخبر زوجها بهذا الأمر الشنيع الا أن جارتها تفطن لذلك ، وتحاول أن تعترض الغلام وتوءخره عن مسعاه في حين تبعث جارية لبثينة تخبرها الخبر ، وتحذرها مما هي فيه ، فتجزع بثينة ، وتأمر جميلا أن ينجو بنفسه ، قبل أن يلم بها زوجها وهو معها ، ولكنه لايأبه ولايكترث ويرد عليها قائلا (١٩٦) :-

لَعَمْرُكِ ماخَوَّفْتِنِي مِنْ مَخَافَةٍ بُثَيْنُ ولاحَذَّرْتِنِي مَوْضِعَ الحَذَرِ

فأُقْسِمُ لايُلْفَى لِيَ اليومَ غِرَّةٌ وفيْ الكفِّ مِنّي صارمٌ قاطعٌ ذَكَرْ ،

ولكن بثينة أقسمت عليه أن يختفي عن أعين قومها ، خوفا عليها من الفضيحة والعار ، لاخوفا عليه فعند ذلك يمتثل لأمرها ، وتنام أم الجسير الى جنبها ، ثم يأتي زوجها مصطحبا معه أباها وأخاها ليشهدهما على فعلة ابنتهم الا أنه يفاجأ بأم الجسير تنام الى جانبها ، فيخجل الزوج ويسب الخادم ، ويعاتبه الأب والأخ بل ويسبانه .

---

١٩٦) نفسه ، ٨ : ٢٨٦١ .

ولم يكن أهل بثينة يريدون أن يقتلوا جميلا ، حتى بعد أن شكوه الى السلطان وأهدر دمه ، فقد كانت منازلهم مجاورة لقوم جميل لذلك ذهب مشيخة من قومها الى أبيه . وكان ذا مال وفضل وقدر في أهله فشكوه وناشدوه الله والرحم ، أن يكف ابنه عنفضح ابنتهم بشعره وعن الالمام ببيوتهم ، فوعدهم أبوه بمنعه ، فلما انصرفوا دعا بجميل ولامه ونصحه بتركها حيث انها امرأة متزوجة وتكن لزوجها ماتكنه الحرة لمن ملكها ، ولاسبيل اليها ، رغم انها تظهر لجميل الصفاء والمودة ، واقترح عليه أبوه أن يتزوج بأخرى ، فوافق جميل الأب على كل ماقال ، الا أنه اعتذر عن الوفاء بما لايقدر ومالايملك بقوله :- " والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لاسبيل الى ذلك،وانما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي،وأنا أمتنع عن طروق هذا الحي والالمام بهم ولو متّ كمدا ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه ، وهو يبكي فبكى أبوه ومن حضر جزعا لما رأوا منه فذلك حين يقول :-

(١٩٧)

أَلَا مَنْ لِقَلْبٍ لَا يَمَلُّ فَيَذْهَلُ ... أَفِقْ فَالتَّعَزِّي عَنْ بُثَيْنَةَ أَجْمَلُ

سَلَا كُلُّ ذِي وُدٍّ علمتُ مكانَه ... وأنتَ بِهَا حتَّى المماتِ مُوَكَّلُ

---

١٩٧) الأغاني ، ٨ : ٢٨٧٥ - ٢٨٧٦.

فمْ هَكَذاْ أحببتُ منْ كانَ قَبْلَهاْ ولاهَكَذاْ فِيْمَا مَضى كُنْتَ تَفْعَلُ

وقد حاول جميل أن يسلا بثينة عن طريق تنقله في البلدان ، فرحل الى اليمن ثم الى مصر ومات بها ، الا أنه كان يموت موتا بطيئا ، منذ أن حيل بينه وبين حبيبته ، ورفض أهلها تزويجها له ، ثم أهدر السلطان دمه ان هو غشي منازلهم ، ودنا من الموت أكثر عندما زوّجت حبيبته برجل غيره . وعندما عنّفه السلطان مرة أخرى ، عند ذلك شعر بدنو منيته ، وعزم السفر الى الشام ومنها الى مصر ، التي حانت بها وفاته ، وقبل سفره هم بان يودع بثينة ويقول لها : ما أرانا نلتقى بعد هذا وبكيا طويلا .

٢- كثيّر :-

أما كثيّر فقد أحب عزّة وعشقها ، ويقال انه قد سمي (كثيّر) ، لكثرة تشببه بها في شعره ، وعرف بها فقيل كثيّر عزة ، مثل ما عرف جميل بن معمر ببثينة ، وقيس بن الملوح بليلى ، وقيس بن ذريح بلبنى ... الخ .

وقد علق كثير حب عزة وهي لاتزال جويرية صغيرة ، ويروي صاحب الأغاني روايتين عن الطريقة التي تعرف بها عليها فيقول : - "كان أول عشق كثيّر عزة أن كثيرا مرّ بنسوة من بني ضمرة ، ومعه جلب غنم ، فأرسلن اليه عزة وهي صغيرة ، فقالت: يقلن لك النسوة بعنا كبشا من هذه الغنم ، وأنسئنا بثمنه الى أن ترجع ، فأعطاها كبشا وأعجبته ، فلما رجع جاءته امرأة منهن بدراهمه ، فقال : واين الصبيّة التي أخذت مني الكبش ؟ قالت : وماتصنع بها ! هذه دراهمك قال : لا آخذ دراهمي الا ممن دفعت الكبش اليها ، وخرج وهو يقول :-(١٩٨)

قضىٰ كلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيْمَهُ وعَزَّةُ مَمْطُوْلٌ مُعَنًّى غَرِيْمُهَا .

ويقول فى موضع آخر : " ان أول علاقته بعزّة أنه خرج من منزله يسوق خلف غنم الى الجار ، فلما كان بالخبت وقف على نسوة من بني ضمرة فسألهن عن الماء ، فقلن لعزة وهي جارية حين كعب ثدياها ، أرشديه الى الماء ، فأرشدته وأعجبته . فبينا هو يسقى غنمه اذ جاءته عزّة بدراهم ، فقالت : يقلن لك النسوة : بعنا بهذه الدراهم كبشا من ضأنك فأمر الغلام فدفع اليها كبشا ، وقال : ردى الدراهم وقولي لهن : اذا

---

١٩٨) نفسه ، ٩ : ٣١٤٤ ، ٣١٤٥.

رحت بكن اقتضيت حقي الا منها . فمزحن معه وقلن : ويحك ! عزة جارية صغيرة وليس فيها وفاء لحقك فأحله على احدانا فانها أملأه به منها وأسرع له أداء ، فقال : ما أنا بمحيل حقى عنها ومضى لوجهه ، ثم رجع اليهن حين فرغ من بيع جلبه فأنشدهن فيها :-

نظرتُ إليها نظرةً وهيَ عاتِقٌ ... على حِيْنَ أنْ شَبَّتْ وبانَ نُهُوْدُهَا

وقدْ دَرَّعُوهاْ وهيَ ذاتُ مُؤَصَّدٍ ... مَجُوْبٍ ولَمَّا يَلْبَسْ الدِّرْعَ رِيْدُهَا

مِنْ الخُفِرَاتِ البيضِ وَدَّجَلِيْسُهَا ... اذاْ مَا انْقَضَتْ أحْدُوْثَةٌ لوْتُعِيْدُهَا .

وأنشدهن أيضا :-

قضىْ كلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيْمَهُ ... وعَزَّةَ مَمْطُوْلٌ مُعَنًّى غَرِيْمُهَا .

فَقُلْنَ لَهُ أَبَّيْتَ إلاّ عَزَّةَ ! وأبرزنها اليه وهي كارهة ، ثم أحبته عزّة بعد ذلك أشد من حبه اياها(١٩٩) .

ولايهمنا أكانت أي من الروايتين حقيقة أو موضوعة ، فكلتا الروايتين تنمان عن عشقه لعزّة ، وهي ماتزال جارية صغيرة ، عندما

---

١٩٩) نفسه ، ٩ : ٣١٤٥ - ٣١٤٦ .

كان يسوق غنما له ، ولاتختلف عن قصص تعارف شعراء الغزل العفيف على محبوباتهم عندما كانوا صغارا يرعون الغنم والابل لأهلهم ، كقيس وليلى وجميل وبثينة - كما ذكرنا - الذي استعذب سبابها عندما بدأ بسبابها حينما نفرت ابلا له .

ولاتختلف أحداث قصة حبه لعزّة ، عن أحداث نظرائه الغزليين ، فتتزوج المحبوبة بغيره ، ويعاني كل منهما مايعانيه من الألم والحسرة والجوى ، ويصلها ان أسعفه الوصل ، أو تهيأت له الفرص . ولقد سنحت الفرصة لكثيّر أن تدخل عليه حبيبته خيمته بعد زواجها ، لكي تبتاع منه سمنا ، لتصلح به طعاما بناء على طلب زوجها . ولم تكن تعلم عزّة انها دخلت خيمة كثيّر وكان يبري أسهما له ، فلما رآها جعل ينظر اليها وهو يبري حتى برى عظامه وسالت دماؤه ، وجعلت عزّة تبكي وهي تمسحها بثوبها . ثم أخذت السمن وعادت الى زوجها ، وأصر عليها أن تخبره بهذا الدم وعندما أخبرته خبره ضربها ، وحلف عليها أن تشتمه في وجهه ، وهو معها ، فقالت له وهي باكية : يابن الزانية ، ثم انصرفا وقال كثيّر (٢٠٠) :-

يُكَلِّفُهَا الخنزيرُ شَتْمِي وَمَابِهَا هَوَانِي ولكنْ لِلْمَلِيْكِ اسْتَذَلَّتِ .

---

٢٠٠) نفسه ، ٩ : ٣١٤٩.

ويبدو عنصر الخيال في تلك الرواية ، فكيف يبري يده وعظامه ، ولايحس بالألم والدم ينزف منها لمجرد رؤيته عزة . وقد يقول قائل حدثت مثل تلك القصة مع امرأة العزيز التي جمعت النسوة عندها وأعطت كل واحدة منهن سكينا وأدخلت عليهن سيدنا يوسف - عليه السلام - فأخذن ينظرن اليه وقد سلبهن حسنه وجماله ، حتى انهن قطّعن أيديهن بالسكاكين دون أن يشعرن بذلك ، فنرد على هذا القول بأن قصة سيدنا يوسف مع أولئك النسوة أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون لها حكمة معينة . وقصة كثيّر مع عزة تلك تذكرنا أيضا بحدث مشابه قد وقع للمجنون ، عندما أرسله والده ليلة الى والد ليلى يطلب سمنا ، فأخذت ليلى تصب له السمن - وهما يتحدثان - الى أن امتلأ قعبه وسال السمن بين أرجلهما. وأرسله في ليلة أخرى لكي يطلب منه نارا ، فأعطته ليلى عطبة من النار وظلا يتحدثان حتى حرقت العطبة برده كله ، الا ماظل منه يواري عورته . ويبدو كذلك في هذه القصة الأخيرة عنصر المبالغة الخيالية ، التي حرص الراوي على روايتها ، ليبين مايكنّه العاشق العذري بين ضلوعه ، من حب يكابد لوعته ، ويأسره ويملك عليه نفسه وحواسه . فقد كان هؤلاء العشّاق يكابدون حبا عظيما ، تدب حرقته بين ضلوعهم ، ولاينعمون بوصل

الأحبه ، وقد كان حبهم حبا عفيفا طاهرا . ومما يدل على طهارة الحب الذي كان يكنه كثيّر لعزّة أنه أرسل اليها رسولا الى منزلها، وأعطاه خاتمه ليريه اياها ، ولكي يضرب له موعدا معها ليلا ، ثم خرج مع صاحبه الى مكان الموعد ، فلما جاءت اليه عزة وتحدثا طويلا ، ذهب صاحبه ليخلي بينهما ، فقال له كثيّر : الى أين تذهب ؟ فقال : أخليكما ساعة تتحدثان ببعض ماتكتمان . فقال له : اجلس فوالله ماكان بيننا شيء قط ، فجلس وظلا يتحدثان ، وكانت بينهما ثمامه عظيمة ، من ورائها تجلس عزّة . (٢٠١)

ولاتنبيء - في رأينا - تلك القصة عن شيء ، أكثر مما تنبيء عن الطهر والعفة التي تجمع بينهما ، فلم يكن بينهما من الأحاديث مايتحرجان من أن يسمعه أحد غيرهما . بل وكانت تجلس بمنأى عنه ، تفصل بينهما ثمامة عظيمة فكأنها تتحجب عنه بتلك الثمامة . وربما كانت عفته تلك سببا الى جانب أسباب أخرى ، جعلت النقاد القدماء

---

٢٠١) نفسه ، ٩ : ٣١٥١.

والدارسين المحدثين ، يتهمونه بأنه لم يكن صادق الحب بل كان كاذبا في حبه . وقد قال عنه ابن سلام :- " كان كثيّر مدعيا ، ولم يكن عاشقا، وكان جميل صادق الصبابة والعشق(٢٠٢).

ويرى د. طه حسين الرأي نفسه في كثيّر فيقول : - " كان كاذبا في حبه ، كما أنه كان كاذبا في نسبه ، وكما أنه كان كاذبافي موقفه السياسي . وأنا أعتقد أن كثيّرا رأى شعر الغزلين وكلف الناس به ، فتعاطى هذا الفن كما تعاطاه الغزلون ، تمرينا لقوته الشعرية ، وقد رأى البدع في أيامه عند أهل الحجاز أن تكون لكل شاعر خليله يذكرها ويهيم بحبها ، فأراد أن تكون له كغيره من الشعراء خليله ، فذكر عزّة وأكثر من الهيام بها . والرواة أنفسهم يقولون : ان كثيّرا كان مدعيا للعشق لاعاشقا ... الخ "(٢٠٣).

كما أننا نجد في أخباره ميله لمغازلة نساء أخريات غير عزة ، " فقد نظر كثيّر الى عزّة ذات يوم وهي منتقبة تميس في مشيتها ، فلم

---

٢٠٢) نفسه ، ٩ : ٣١٥١.

٢٠٣) نفسه ، ١ : ٢٩١.

يعرفها كثيّر ، فاتبعها وقال : ياسيدتي قفي حتى أكلّمك فانى لم أر مثلك قط ، فمن أنت ويحك ! قالت : ويحك ! وهل تركت عزّة فيك بقية لأحد ؟ قال بأبي أنت ! والله لو أن عزة أمة لي لوهبتها لك، قالت : فهل لك في المخالله ؟قال : وكيف لي بذلك ؟ قالت : أنى وكيف بما قلت في عزّة ؟ قال : أقلبه فأحوّله اليك . فسفرت عن وجهها ثم قالت : أغدرا يافاسق وانك لهكذا ؟ فأبلس ولم ينطق وبهت . فلما مضت أنشأ يقول :- (٢٠٤)

أَلاَ لَيْتَنِي قَبْلَ الذِي قُلْتُ شِيْبَ لِي

مِنَ السُّمِّ جَدْحَاتٌ بماءِ الذَّرَارِحِ

فمتُّ ولمْ تَعْلَمْ عليَّ خِيَانَةً

وكمْ طَالِبٍ لِلرِّبْحِ لَيْسَ بِرَابِحِ

أَبُوءُ بِذَنْبِي انّنِي قَدْ ظَلَمْتُهَا

وإنّي بِبَاقِي سِرِّهَا غيرُ بَائِحِ .

وتحاول عزّة في مرة أخرى أن تختبر حب كثيّر اياها ، ومدى اخلاصه لها فقالت لبثينة : " تصدي لكثيّر وأطمعيه في نفسك حتى أسمع مايجيبك به . فأقبلت اليه وعزّة تمشي وراءها مختفية ، فعرضت عليه الوصل ،

---

٢٠٤) الأغاني ، ٩ : ٣١٥٢.

فقاربها ثم قال :-

رَمَتْنِي علىٰ عَمْدٍ بَعْدَمَا تَوَلَّى شَبَابِي وَارْجَحَنَّ شَبَابُهَا .

فكشفت عزّة عن وجهها ، فبادرها الكلام ثم قال :-

ولكنَّمَا تَرْمِيْنَ نَفساً مَرِيْضَةً لعزَّةَ منهاً صَفْوُهَا وُلَبَابُهَا .

فضحكت ثم قالت : أولى لك بها قد نجوت ، وانصرفتا تتضاحكان (٢٠٥) .

هذه هي قصص الغزل العفيف بنوعيها ، يظهر فيها التناقض والمبالغة مما حملت الدارسين على الشك في هذا النوع من القصص ، ولاينبغي في الحقيقة أن تشغلنا صحة هذه القصص أو عدم صحتها ، ولكن الذي ينبغي أن نشغل أنفسنا به ، هو أن هذا الشعر الذي ينسب الى هؤلاء الشعراء مثل غيره من أغراض الشعر الأخرى ، لايقصد به تصوير الواقع في حقيقته ، ولكن الشعراء يستخدمونه لايقصد به تصوير الواقع في حقيقته ، ولكن الشعراء يستخدمونه للتعبير عن مواقف وقضايا اجتماعية وسياسية وانسانية ، مما يجعل منه صنيعة فنية ، تحتاج الى الدرس والتحليل، وهو ماسوف نتابعه في الفصل التالي .

.. .. ..

---

٢٠٥) الأغاني ، ٩ : ٣١٥٧.

الفصل الثاني

(الغزل العفيف : دعوذه وقضاياه)

على الرغم من اختلاف الرواة حول الوجود الحقيقي لبعض شعراء الغزل العذري مثل مجون بني عامر كما رأينا ، فان اللافت في الأمر أن هذا الشعر ، سواء ثبت وجود قائليه حقيقة أم لم يثبت يتخذ اتجاها موضوعيا وفنيا بعينه ، ذلك أن شعراء الغزل العذري ، وعلى العكس من شعراء الغزل الصريح ، خلقوا من الشعر تجارب عاطفية تميزت باستعذاب الألم والحرمان والرغبة الشعورية أو اللاشعورية في عدم استكمال التجربة العاطفية بالزواج ممن يحبون ويتشببون بها ، أو حتى باللقاء والاستمتاع كما فعل شعراء الغزل الصريح ، ذلك أن الشاعر العذري كان يبالغ في محاصرة نفسه بالحرمان والألم ، واتخذ من الوسائل الفنية والموضوعية مايجعل حصاره لنفسه ، حصارا أليما لافكاك منه ، تارة باللغة وتارة أخرى بالتشكيل الفني للتصوير ، أو توظيف الموروث الشعبي ، وأخيرا عن طريق التصريح باستعذاب تلك الآلام والأوجاع التي عاشها أو توهمها الشاعر من تجربته العاطفية ، وأيّا ماكان الرمز وراء تلك التجارب ، هل هو رمز سياسي أو صوفي حضاري أم اجتماعي .

(١)

ان المتأمل في صورة المرأة في شعر الغزل العذري سوف يلاحظ

مجموعة من الظواهر التي تستوقف الباحث ، والتي لاتخلو من دلالة. وأول هذه الظواهر أن الشاعر حرص على احاطة صورة محبوبته بالغموض والهلامية ، فنحن لانعرف صفاتها ، أو اسمها الحقيقي ، ولاندري كذلك ، ما اذا كانت الأسماء الواردة في شعر بعض العذريين حقيقية أم مجرد رموز واشارات ، والأمر ليس غريبا ، فهو تقليد عربي قديم حرص عليه الشاعر منذ العصر الجاهلي ، حين راح يتحدث عن محبوبة مقدسة أو الهة ، في تجربة تختلف روحيا وفنيا عن تجربة الحب الحقيقية ، وقد مرّ بنا شيء من هذا في الفصل الخاص بالغزل الصريح .

فاذا أضفنا الى هذا أن الشاعر العذري نفسه قد يكون مشكوكا في وجوده التاريخي هو نفسه ، فليس من المستبعد أن تكون محبوبته هي الأخرى مجرد رمز أو اشارة تخرج فى نطاق التجربة الخاصة ، الى الكلي والمجرد العام ، ثم ان الشاعر العذري راح يبث خلال شعره صفات اذا تجمعت كوّنت صورة تنأى بالمرأة عن تلك الصور الأرضية المبتذلة ، فهي أقرب الى النورانية والتقديس ، يضن بها الشاعر على نفسه ، ويسمو بها على تجاربه الحسّية الموءقتة والعابرة وتحمل الى جانب ذلك من صفات الالهة مثل الخصب والتجدد والبعد والسمو ، شيئا كثيرا

فالشاعر العذري اذا ينتزع المرأة التي يشبب بها انتزاعا من الواقع ، ينقّيها ويصفي صورتها وصفاتها تماما ، ثم يجعلها لاتستجيب لتشبيبه بها ، فيصفها بالبخل في اظهار عواطفها واستجابتها ، والنأي عن أي لقاء تم أو يمكن أن يتم بينها وبينه .

فالمحبوبة أولا كائن نوراني طاهر مقدس ، فضلها اللّه على الناس كما فضّلت ليلة القدر على ألف شهر يقول قيس بن ذريح[٢٠٦] :-

اذا عبتها شبهتها البدر طالعا وحسبك من عيب لها شبه البدر

لقد فضّلت لبنى على الناس مثلما على ألف شهر فضّلت ليلة القدر .

يقول جميل[٢٠٧] :-

فما مُزنةٌ بينَ السّماكين أَوْمَضَتْ مِنْ النورِ ثمّ استَعْرَضتها جنوبها

بأحسن منها يوم قالت وعندنا من الناسِ أوباشٌ يُخافُ شُغُوبُها .

ويقول المجنون[٢٠٨] :-

أقولُ لأَصْحَابِي هيَ الشمسُ ضوؤُها قَرِيْبٌ ولكنْ في تَنَاوِلِها بُعْدُ .

وهي كائن جميل مكتمل من الرأس الى القدم :-

---

٢٠٦) الأغاني ، ٩ : ٣٣١٥.

٢٠٧) ديوان جميل بثينة ، : ١٧.

٢٠٨) ديوان مجنون ليلى ، : ٧٩.

(٢٠٩)

يقول قيس لبنى :-

يَا أَكْمَلَ النَّاسِ من قَرْنٍ إِلَىٰ قَدَمٍ وَأَحْسَنَ النَّاسِ ذَا ثَوْبٍ وَعُرْيَانَا .

وتزداد كثافة العاطفة والشعور في نفس الشاعر ، فيجعل من محبوبته كائنا علويا متفردا ، يحمل الكثير من صفات الآلهة . انها أشبه شيء بكعبة يطوف حولها العبّاد ، أو هي البيت يتمسح به الحجيج فيمحو اللّه بها ذنوبهم ، بل ان الأمر قد يبلغ أحيانا أن من يتلفظ باسمها ، يمحو الله ذنوبه دون حاجة الى التمسح أو لمس مكانا حلّت به ، ولعل المتأمل في هذه الصور المتكررة لدى شعراء الغزل العذري ، سوف يلمح مسحة صوفية لاتتكرر وهي مسحة - كما ذكرنا - تحيل المحبوبة الى الهة أو شبيهة بالآلهة .

يقول كثيّر عزّة (٢١٠) :

خليليَّ هذا رَبْعُ عزّةَ فاعْقِلا قِلُوصَيْكُما ثمَّ ابْكِيَا حيثُ حَلَّتِ

ومسّا تُرَابًا كَانَ قَدْ مَسَّ جِلْدَهَا وبِيْتًا وظِلًّا حيثُ باتَتْ وَظَلَّتِ

ولا بَتَّيَاسَا أنْ يَمْحُوَ اللّهُ عَنْكُمَا ذنوباً اذا صَلَّيْتُمَا حيثُ صَلَّتِ .

---

٢٠٩) الأغاني ، ٩ : ٣٣١٩.

٢١٠) ديوان كثير ، عبد القدوس احسان ، دار الثقافة ، بيروت ، : ٩٥.

ويقول المجنون (٢١١) :-

ولوْ أنّني استغفرُ اللّهَ كلّما ذكرتُكِ لمْ تُكتَبْ عليَّ ذُنُوبُ .

واذا كانت أرجاء مكة والمشاعر المقدسة تفيض بعطر سماوي مقدس ، فان المحبوبة لدى هذا الشاعر ، تخلع من عطرها وشذاها مايجعل أجواء المعشر الحرام أكثر عطرا ، وأشد أريجا .

يقول المجنون(٢١٢) :-

طَرَقْتُكِ بينَ مسبّحٍ ومُكبّرٍ بِخَطِيْمِ مكّةَ حيثُ كانَ الأبطحُ

فَحسِبْتُ مَكّةَ والمشاعِرَ كلّهَا وَجِبَالَها بانَتْ بِمِسْكٍ تَنْفَحُ .

واذا كانت المحبوبة تقترب من الآلهة ، ان لم تكن هي نفسها منزلة المعبود في نفس الشاعر ، فليس من المستبعد أن يصل الأمر به الى أن يجعل لها القدرة على البعث ونشر الموتى ورد الحياة اليهم ، فريقها يشبه ماء الحياة ، وهي صورة قديمة مستمدة من الموروث الشعبي من ناحية ، ومن الشعر الجاهلي - كما مرّ بنا - من ناحية أخرى ، وحديثها العذب له نفس التأثير في بعث واحياء الموتى فوجودها حياة ، وغيابها عدم .

---

٢١١) ديوان مجنون ليلي ، : ٤٦.

٢١٢) نفسه ، : ٧٥.

يقول جميل(٢١٣) :-

اذا كانَ جِلْدٌ غَيْرَ جِلْدِكِ مَسَّنِي وباشَرَني دُونَ الشِّعَارِ شَرِيتُ

ولوْ أنَّ داعٍ مِنْكِ يَدْعُو جَنَازَتِي وكُنْتُ عَلَى أيْدِي الرِّجَالِ حَيِيتُ .

ويقول المجنون(٢١٤) :-

- مُفَلَّجَةِ الأنْيَابِ لَوْ أنَّ رِيقَهَا يُدَاوَى بِهِ المَوْتَى لَقَامُوا مِنَ القَبْرِ

ويقول(٢١٥) :-

- ولوْ شَهِدَتْنِي حِيْنَ تَحْضُرُ مِيْتَتِي جَلَا سَكَرَاتِ الموتِ عنيْ كَلَامُهَا .

ولأن المحبوبة لدى الشاعر ، تحمل بعض صفات الآلهة ، فانها تنفتح على عوالم أرحب من عالم الانسان ، انها تكلم الطير فيسمعها ويجيبها ، ويمثل الحمام - بصفة خاصة - ركنا مهما في الشعر العذري ، والمحبوبة تحادث الحمام فيجيبها ، والحمام في الموروث الشعبي رمز البشارة السّارة ، منذ بشرت نوحا عليه السلام بقرب الوصول الى الأرض وانحسار الطوفان فطوقها غصن الزيتون ، ودعا لها بالألفة والمودة

---

٢١٣) ديوان جميل ، : ٠٢٠

٢١٤) ديوان مجنون ليلى ، : ٠١٢٢

٢١٥) نفسه ، : ٠١٩٣

آبد الدهر مع الانسان ، ثم هي في النهاية خصبة وخالصة الخصب والخضرة .

يقول المجنون(٢١٦) :-

فلوْ أنّها تدعُو الحمامَ أجَابَهَا ولوْ كلّمتْ مَيْتاً إذاً لتكلّمَا .

ويقول(٢١٧) :-

تكادُ يَدِي تَنْدِي اذاْ مَاْلَمَسْتُها وَيَنْبُتُ فيْ أطْرَافِهَا الْوَرْقُ الخُضْرُ .

والى جانب النورانية والتقديس ، فان المحبوبة تحوز من صفات الجمال الجسدي ، مايجعلها تفوق عداها من النساء في كل شيء فهي بيضاء خالصة البياض جميلة المبسم عذبة الريق ، ليس فيها مايعيب .

يقول جميل بثينة(٢١٨) :-

مِنَ الخَفِرَاتِ البِيْضِ أخْلَصَ لَوْنُها تُلاحِيْ عَدُوّاً لمْ يَجِدْ مَايَعِيْبُها .

ويقول(٢١٩) :-

بِثَغْرٍ قَدْ سُقِيْنَ المِسْكَ مِنْهُ مَسَاوِيْكَ البِشَامِ ومِنْ غُرُوْبِ
ومِنْ مَجْرَى غَوَارِبِ أقْحُوَانٍ شَتِيْتِ النّبْتِ فيْ عَامٍ خَصِيْبِ .

---

٢١٦) ديوان مجنون ليلى ، : ٢٠٢.

٢١٧) نفسه ، : ١٠٢.

٢١٨) ديوان جميل بثينة ، : ١٧.

٢١٩) نفسه ، ١٨.

ويقول قيس لبنى(٢٢٠):-

نِعْمَ الضَّجِيْع بُعَيْدَ النومِ تَجْلِبُهُ اليكَ مُمْتَلِئاً نَوْماً وَيَقْظَانَا

ويقول جميل(٢٢١):-

- خليليَّ عُوْجَا اليومَ حَتّى تُسَلِّمَا علىْ عَذْبَةِ الأَنْيَابِ طَيِّبَةِ النَشْرِ.

ويقول (٢٢٢):-

- بِذِي أُشْرٍ كالأُقْحُوَانِ يزينُهُ نَدى الطَّلِ إلاّ أَنَّهُ هُوَ أَمْلَحُ.

ويقول المجنون(٢٢٣):-

أَلَمْ تَعْرِفُوا وَجْهاً لِلَيْلَى شَعَاعُهُ إذا بَرَزَتْ يُغْنِي عَنْ الشَّمْسِ والبدرِ

منعّمة لَوْ قَابَلَ البدرُ وَجْهَهَا لَكَانَ لَهُ فَضْلٌ مبينٌ علىْ البَدْرِ

ولكن جمال المحبوبة ورقتها - كما أوضحنا - جمال متفرد، فهي بالغة الرقة والرهافة، يؤودها مجرد التفكير فيها، ويجرحها استحضارها في الخيال يقول المجنون(٢٢٤):-

يَمُرُّ بِوَهْمِي خاطرٌ فَيؤُدُّهَا وَيَجْرَحُهَا دُوْنَ العَيَانِ لَهَا فِكْرِي.

---

٢٢٠) الأغاني، ٩ : ٣٣١٩.

٢٢١) ديوان جميل بثينة، : ٣٦.

٢٢٢) نفسه، : ٢١.

٢٢٣) ديوان مجنون ليلى، : ١١٨.

٢٢٤) نفسه، : ١١٨.

فاذا اجتمعت كل هذه الصفات النفسية والجسدية في امرأة واحدة، حق للمرء أن يقتل نفسه من أجلها ، اذا ضن بها أهلها ، أو حال بينه وبينها حائل.

يقول المجنون (٢٢٥) :-

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ المرءُ نَفْسَهُ وانْ كُنْتُ مِنْ لَيْلَى علَى اليَأْسِ طَاوِيًا

خليليَّ ان ضنُّوا بِلَيْلَى فقرِّبَا لَيَّ النَعْشَ والأكفانَ واستغفِرَا لِيَا .

على أن المتأمل بعد ذلك في موقف الشاعر من هذه الحبيبة التي لم يحدثنا عن لقاء بها تم في الماضي أو سوف يتم يلاحظ أنه رغم تعلقه الشديد بها ، واعترافه لها بكل هذه الصفات ، فان هناك شعورا خفيا ، ينتابنا بأن الشاعر لايرغب في استكمال تجربته العاطفية باللقاء والمتعة أو بالزواج . وهو يدفع الينا صراحة بتلك الحوائل ، متمثلة تارة في الوشاة ، وتارة أخرى في بخل وتمنع الحبيبة وضنها باللقيا ، ولكنها حوائل كما سوف نرى مصطنعة لاتمثل الحقيقة النفسية التي يعاني منها الشاعر ، فالأمر مرتبط بعواطفه نفسها ، وكيفية التعبير عنها

---

٢٢٥) نفسه ، : ٢٢٩.

ذلك أن الوشاة يمثلون حائلا بين المحب والحبيبة ، سواء في ذلك الغزل العذري ، أو الصريح ، وهم حائل دائم سواء في الشعر القديم الجاهلي ، أو في الفترات التالية ، وحتى الآن . والشاعر هنا يعاني بشدة من الحيلولة بينه وبين حبيبته ، ولكنها معاناة تدخل في بال التقليد الفني أكثر منها معاناة حقيقية ، فالشاعر يرفض اللقيا ليس حفاظا على الحبيبة كما يدعي ، وانما استعذابا بالألم وكأنما هو يقصد الحزن للحزن ان حبه يشبه حبا من طرف واحد لايشقى به الا من يحب .

يقول المجنون(٢٢٦) :-

- وَمَابَرِحَ الوَاشُونَ حَتّى بَدَتْ لَنَا بُطُونَ الهَوَى مَقْلُوبَةً لِظُهُورِ .

ويقول(٢٢٧) :-

- فلوْ أنّ قَوْلاً يُكْلِمُ الجِسْمَ قَدْ بَدَا بِجِسْمِي مِنْ قَوْلِ الوِشَاةِ كُلُومُ .

ويقول جميل(٢٢٨) :-

وربَّ جِبَالٍ كُنْتُ أحْكَمْتُ عَقْدَهَا أُتِيْحَ لَهَا وَاشٍ رَفِيْقٍ فَحَلَّهَا

---

٢٢٦) ديوان مجنون ليلى ، : ١٣١.

٢٢٧) نفسه ، : ١٩٣.

٢٢٨) ديوان جميل بثينة ، : ١٠٤ .

فَعُدْنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا هَوًى ... وصَارَ الذي حلَّ الحبالَ هَوًى لها

وقالُوا نَرَاهَا ياجميلُ تَبَدَّلَتْ ... وغيَّرَهَا الواشِي فَقُلْتُ لَعَلَّهَا .

ويقول المجنون (٢٢٩) :-

أَحَقّاً عبادَ اللهِ أَنْ لَسْتُ وَارِداً ... وَلا صَادِراً إِلَّا عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلا زَائِراً فَرْداً ولا فِي جَمَاعَةٍ ... مِنَ النَّاسِ إِلَّا قِيلَ أَنْتَ مُرِيبُ .

ويقول (٢٣٠) :-

- وَمَنْ يُطِعِ الوَاشِينَ لَايَتْرُكُوا لَهُ ... صَدِيقاً وإِنْ كَانَ الحبيبُ المُقَرَّبَا .

ويقول قيس لبنى (٢٣١) :-

أَصُونُكِ عَنْ بَعْضِ الأمورِ مَظَنَّةً ... وأَخْشَى عَلَيْكِ الكَاشِحِينَ الأَعَادِيَا .

وأخيرا يقول جميل بثينة (٢٣٢) :-

سَأَمْنَحُ طَرْفِي حَيْثُ أَلْقَاكِ غَيْرَكُمْ ... لِكَيْمَا يَرَوا أَنَّ الهَوَى حَيْثُ أَنْظُرُ

أُقَلِّبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ لَعَلَّهُ ... يُوَافِقُ طَرْفِي طَرْفَكُمْ حِينَ يَنْظُرُ

وأَكْنِي بِأَسْمَاءِ سِوَاكِ وأَتَّقِي ... زِيَارَتُكُم والحبُّ لايَتَغَيَّرُ

فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا وَاحِداً بِحَبِيبَةٍ ... إِذَا خَافَ يُبْدِي بُغْضَهُ حِينَ يَظْهَرُ .

---

٢٢٩) ديوان مجنون ليلي ، : ٠٤٥

٢٣٠) نفسه ، : ٠٦٦

٢٣١) الأغاني ، ٩ : ٠٣٣٢٧

٢٣٢) ديوان جميل بثينة ، : ٤٣ - ٠٤٤

فاذا تأملنا الحائل الثاني الذي يقف كسد منيع ضد لقاء الشاعر العذري بمحبوبته ، لوجدناه متمثلا في تمنع الحبيبة ، ذلك التمنع الذي أسماه الشاعر بخلا ، فعلى الرغم من قناعة الشاعر ورضاه بأقل القليل ، الذي يناله من المحبوبة ، فان هذا القليل لايصل كذلك الى يديه . والنتيجة الحتمية هي الحرمان والعذاب الدائم والمستمر . فالوشاة له بالمرصاد ، والرقباء في كل صوب وناحية ، والحبيبة تتمنع وتنأى هي الأخرى .

يقول المجنون (٢٣٣) :-

- فلا تَقْتُلِيْنِي بالصُدودِ وبِالقِلَى ... ومِثْلُكِ يَالَيْلَى يَرِقُّ ويَرْحَمُ .

ويقول (٢٣٤) :-

- لعمرِ أَبِيْهَا إِنَّها لَبَخِيْلَةٌ ... ومِنْ قَوْلِ وَاشٍ إِنَّها لَغَضُوبُ .

ويقول (٢٣٥) :-

- ومنيتِنِي حتّى إذا ماَرَأَيْتِنِي ... على شَرَفٍ لِلنّاظِرِينَ يُرِيبُ

صَدَدْتِ وَأَشْمَتِّ العدوَ بِهَجْرِنَا ... أَثَابَكِ فِيمَا تَصْنَعِيْنَ مُثِيبُ .

ويقول جميل (٢٣٦) :-

وإِنّي لأَرْضَى مِنْ بُثَيْنَةَ بالذي ... لو أَبْصَرَهُ الواشِي لَقَرَّتْ بَلَابِلُهْ

بِلَا وُبِأَلَّا أَسْتَطِيْعُ وبِالمُنَى ... وبالوعدِ حَتّى يَسْأَمَ الوعدَ آمِلُهْ

---

٢٣٣) ديوان مجنون ليلى ، : ١٨٨ .

٢٣٤) نفسه ، : ٥٠ .

٢٣٥) نفسه ، : ٤٣ .

٢٣٦) ديوان جميل بثينة ، : ٨٢ .

وبالنظرة العُجْلى وبالحَوْلِ تَنْقَضِي أَوَاخِرُهُ لا نلتقي وأوائلُهُ

ويقول كثيّر عزة (٢٣٧):

وكانت لِقَطْعِ الحَبْلِ بَيْنِي وَبَيْنَها كَنَاذِرَةٍ نَذْراً وَفَّتْ فَأَحَلَّتِ

وَمَا أَنْصَفَتْ أَمَّا النِّسَاءُ فَبُغِّضَتْ إِلَيْنَا وَأَمَّا بِالنَّوَالِ فَضَنَّتِ

صَفُوحٌ فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بَخِيلَةً فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتِ

وَاللَّهِ مَا قَارَبْتُ إِلَّا تَبَاعَدَتْ بِصَرْمٍ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلَّتِ.

وأخيرا يقول جميل (٢٣٨):-

إِنِّي إِلَيْكِ بِمَا وَعَدْتِ لَنَاظِرٌ نَظَرَ الفَقِيرِ إِلَى الغَنِيِّ المُكْثِرِ

تَقْضِي الديونَ وَلَيْسَ يَنْجِزُ مَوْعِداً هذا الغَرِيمُ لَنَا وَلَيْسَ بِمُعْسِرِ

ما أنتِ وَالْوَعْدُ الذي تَعِدِينَنِي إِلَّا كَبَرْقِ سَحَابَةٍ لَمْ تُمْطِرِ.

فاذا ما أحكم الشاعر حول نفسه حصار الحرمان من الوشاة تارة ومن المحبوبة تارة أخرى ، أفرغ جهده تماما في البكاء على حب ضائع لم ينل منه شيئا سوى العذاب ، فيحدثنا عن المرارة والوجد التي يعاني منها ، وعن هزال جسمه ونحوله وشحوبه من جرّاء هذا الحرمان ،

---

٢٣٧) ديوان كثيّر ، ٩٥ - ١٠٠.

٢٣٨) ديوان جميل ، : ٤٠.

فعلى الرغم من قدم حب الشاعر وامتداده لزمن الطفولة ، بل انه حب نشأ في قلبه من قبل أن يخلقه الله ، ومنذ أن أصبح نطفة فطفلا فرجلا ، على الرغم من أزليّة هذا التعلق والوجد ان صح هذا التعبير ، فان الشاعر لم يغفر له هذا عند المجتمع أو المحبوبة ، فراح يحول بكل الوسائل دون اللقيا أو حتى مجرد الوعد بها ، يتأرجح بين اليأس والرجاء ، بين الحياة والموت اذا شطّت واذا دنت ، وهو راضي النفس صابر على مايجد ، يستعذب هذا الألم وذلك الحرمان في المحبوب .

يقول المجنون (٢٣٩) :-

وإنْ أكُ عَنْ لَيْلَى سَلَوْتُ فإنّمَا ... تَسَلّيْتُ عَنْ يَأْسٍ وَلَمْ أسْلُ عَنْ صَبْرِ

وإنْ يكُ عَنْ لَيْلَى غِنَى وَتَجَلُّدٌ ... فَرُبَّ غِنَى نَفْسٍ قَرِيبٌ مِن الفَقْرِ .

ويقول كثيّر عزّة (٢٤٠) :-

وكنتُ وإيّاهَا سَحَابَةُ مُمْحِلٍ ... رَجَاهَا فَلَمّا جَاوَزَتْهُ اسْتَهَلّتِ

وإنّي وتَهْيَامِي بعزّةَ بَعْدَمَا ... تَخَلّيْتُ عَمّا بَيْنَنَا وَتَخَلّتِ

لكَا لمُرْتَجِي ظِلَّ الغَمَامَةِ كلّمَا ... تَبَوّأَ مِنْهَا لِلمَقِيْلِ اضْمَحَلّتِ ،

ويتأرجح الشاعر بين اليأس والرجاء ، فتارة توهمه الحبيبة

---

٢٣٩) ديوان مجنون ليلى ، : ١٢٧.

٢٤٠) ديوان كثير ، : ١٠٢ - ١٠٣.

بالرجاء ، فاذا هو صدود وهجر بعد ذلك .

يقول المجنون(٢٤١) :-

اذا نظرتْ نَحْوي تَكَلَّمَ طَرْفُهَا وَجاوَبَهَا طَرْفِي وَنَحْنُ سُكُوتُ

فَوَاحِدَةٌ مِنْهَا تُبَشِّرُ بِاللِّقَا وأُخْرَى لهاْ نَفْسِي تَكَادُ تَمُوتُ

اذا مِتُّ خَوْفَ اليَأْسِ أَحْيَانِي الرَّجَا

فَكَمْ مَرَّةٍ قَدْ مِتُّ ثُمَّ حَيِيتُ .

ويقول(٢٤٢) :-

أَلْقَى من اليَأْسِ تَارَاتٍ فَتَقْتُلُنِي وللرجاءِ بَشَاشَاتٌ فَتُحْيِينِي

ولكن الشاعر يفاجئنا أنه قد غلّب اليأس والاستسلام لاستحالة اللقاء مع الحبيبة ، ذلك ان الفراق أمر حتمي ، كما أن استسلامه للعذاب في حبها ، أشبه شيء بأوامر القضاء والقدر التي لاراد لها ، فهو لايستطيع الفكاك منها أو الانتصار عليها ، والمتأمل في هذا الشعر سوف يجد أنه اذا كان حب الشاعر العذري أزليّا كتب عليه من قبل أن يخلق الكون أو الوجود ، فان عذابه أبدي كذلك فلا الموت يفرج كربه ، ولا القضاء يشفيه مما به من وجد .

---

٢٤١) ديوان مجنون ليلي ، : ٠٦٨

٢٤٢) نفسه ، : ٠٢١٧

يقول المجنون أو غيره (٢٤٣) :-

- تَعَلَّقَ رُوْحِي رُوْحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَـــا وَمِنْ بَعْدِ أَنْ كُنَّا نِطَافاً وفِيْ المَهْدِ

فَعَاشَ كَمَا عِشْنَا فَأَصْبَحَ نَامِيـــاً وَلَيْسَ إِذَا مِتْنَا بِمُنْقَصِفِ الْعَهْـــدِ .

ويقول(٢٤٤) :-

- تَعَلَّقْتُ لَيْلَى وَهْيَ غِرٌّ صغيـــرة ولَمْ يَبْدُ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ

صَغِيْرَيْنِ نَرْعَى الْبَهْمَ يَالَيْتَ أَنَّنَـا إِلَى اليَوْمِ لَمْ نَكْبُرْ وَلَمْ تَكْبُرِ البَهْمُ .

وعلى الرغم من هذا الحب القديم ، فاليأس من اللقاء هو النصيب المحتوم .

(٢٤٥)
ويقول المجنون :-

- خَرَجْتُ فَلَمْ أَظْفَرْ وَعُدْتُ فَلَمْ أَفُـزْ بِنَيْلِ كِلَا الْيَوْمَيْنِ يَوْمٌ بَـــلَاءُ

فَيَاحَسْرَتِيْ مَنْ أَشْبَهَ الْيَأْسَ بِالْغِنَى وإِنْ لَمْ يَكُونَا عَنْدَنَا بِسَـــوَاءِ .

ويقول(٢٤٦) :-

- وإِنِّي أَبُكُ عَنْ لَيْلَى سَلَوْتُ فَإِنَّمَـا تَسَلَّيْتُ عَنْ يَأْسٍ وَلَمْ أَسْلُ عَنْ صَبْرِ

وإِنْ يَكُ عَنْ لَيْلَى غِنًى وتَجَلُّـــدٌ فَرُبَّ غِنَى نَفْسٍ قَرِيْبٍ مِنَ الفَقْـــرِ .

---

٢٤٣) نفسه ، : ٠٩١

٢٤٤) نفسه ، : ٠١٨٦

٢٤٥) نفسه ، : ٠٣٧

٢٤٦) نفسه ، : ٠١٢٧

ولقد كان التأرجح بين اليأس والرجاء ، ثم الاستسلام الحتمي لليأس سببا في تلك التساؤلات المستنكرة من الشاعر ، التي تحمل قدرا كبيرا من الجزع والحسرة لما يلاقيه حتى أضناه الوجد وأصابه المرض والهزال .

يقول المجنون(٢٤٧) :-

أَأَقْطَعُ حَبْلَ الوَصْلِ فَالمَوْتُ دُونَهُ ... أَمْ أَشْرَبُ كَأْسًا مِنْكُمُ لَيْسَ يُشْرَبُ .

ولكن الموت والمرض لم يخلّصا الشاعر من آلامه التي يلاقيها والتي يستعذبها بل ويحرص عليها .

يقول المجنون(٢٤٨) :-

وَأَحْبِسُ عَنْكِ النَّفْسَ والنَّفْسُ صَبَّةٌ ... بِذِكْرَاكِ وَالمَمْشَى إِلَيْكِ قَرِيبُ .

ويقول(٢٤٩) :-

- رَضِيتُ بِقَتْلِي فِيْ هَوَاهَا لأَنَّنِي ... أَرَىٰ حُبَّهَا حَتْمًا وَطَاعَتَهَا فَرْضَا .

ويقول قيس بن ذريح(٢٥٠) :-

- فَإِنَّكَ لاَتُطِيقُ رُجُوعَ لُبْنَى ... إِذَا رَحَلَتْ وَإِنْ كَثُرَ العَوِيلُ

---

٢٤٧) نفسه ، : ٠٣٩

٢٤٨) الأغاني ، ٢٠ : ٠٤٧٥

٢٤٩) ديوان مجنون ليلى ، : ٠١٣٩

٢٥٠) الأغاني ، ٩ : ٠٣٣٠٧

وَكَمْ قَدْ عِشْتَ كَمْ بِالقُرْبِ مِنْهـــــا ولكنَّ الفراقَ هوَ السبيـــــلُ

فصبراً كلُّ مُؤْتَلِفَيْنِ دَوْمـــــاً مِن الأيَامِ عَيْشُهُما يَـــــزُولُ.

والموت لايحل المشكلة فهي كما أوضحنا أزلية أبدية لدى الشاعر العذري ، فالشوق والحرمان يلاحقان الشاعر حتى بعد موته ، وهو لايسلو عن الحب في قبره ، مما يجعلنا نتشكك بشدة في حيلولة الوشاة ، وبخـــــل الحبيبة وتمنعها ، ونتساءل هل حقيقة لعب الوشاة دورا في ذلك الحرمان الذي يعاني منه الشاعر ؟ واذا كان تمنع الحبيبة يشقى الحبيب ، فان الشاعر العذري ظل يبحث عن هذا الحرمان دون توقف ، الى الحد الـــذي يدفعنا الى القول بأن الشاعر كان يرى أنه مسوق سوقا قدريا نحـــــو مايلاقيه فلا فكاك منه ولابرء لابالمرض ولابالموت ، رغم فناء الأجســـــاد . فالأرواح تظل في حالة هيام دائم ، وحنين مستمر ، واذا جفت دموع العين استعاض عنها الشاعر بدموع روحه .

يقول المجنون(٢٥١) :-

لَوْ سِئِلَ أَهْلُ الهَوَى منْ بعدِ مَوْتِهِمُ هَلْ فُرِّجَتْ عَنْكُمُ مُذْ مُتُّمُ الكُـــرَبُ

لَقَالَ صَادِقُهُمْ أَنْ قَدْ بَلَى جَسَدِي لكنَّ نارَ الهَوَى فيْ القلبِ تَلْتَهِبُ .

---

٢٥١) ديوان مجنون ليلى ، :٤١.

جفت مدامع عين الجسم حين بكى وانّ بالدمع عين الرّوح تنسكب .

ويقول قيس بن ذريح (٢٥٢) :-

وقال الأقربون تعزّ عنها فقلتُ لهم إذا حانتْ وفاتي .

ويقول عروة بن حزام (٢٥٣) :-

- إذا رامَ قلبي هجرَها حالَ دونَهُ شفيعانِ من قلبي لها جدلانِ

إذا قلتُ لا قالا بلى ثمّ أصبحا جميعاً على الرأي الذي يريانِ.

ويقول (٢٥٤) :-

- فما هيَ إلا أنْ أراها فجاءةً فأُبهتُ حتى ما أكادُ أجيبُ

وأصدفُ عن رأيي الذي كنتُ ارتئي وأنسى الذي أزمعتُ حينَ تغيبُ

ويظهرُ قلبي عذرَها ويعينُها عليّ فما لي في الفؤادِ نصيبُ

واذا كان الموت لايصرف الشاعر العذري عن آلامه الناشئة عن الوجد والحب ، فان المرض الذي أعيا العرّافين والحكماء ، من باب أولى ، لن يصرفه حتى ولو أوشكت روحه على الازهاق .

---

٢٥٢) الأغاني ، ٩ : ٢٣٢٧.

٣٥٣) نفسه ، ٢٨ : ٩٥٧٥ .

٢٥٤) نفسه ، ٢٨ : ٩٥٧٦ .

يقول عروة بن حزام(٢٥٥) :-

مَتىٰ تَكْشِفَا عَنِّي القَمِيْصَ تَبَيَّنَا ... بِيَ الضُّرُّ مِنْ عَفْرَاءَ يَافَتَيَانِ

إِذاً تَرَيَا لَحْماً قَلِيْلاً وَأَعْظُماً ... تَلِيْنُ وَقَلْباً دَائِمَ الخَفَقَانِ

وَقَدْ تَرَكَتْنِي لَا أَعِي لِمُحَدِّثٍ ... حَدِيْثاً وَإِنْ نَاجَيْتُهُ وَنَجَانِي

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ اليَمَامَةِ حُكْمَهُ ... وَعَرَّافِ حَجْرٍ إِنْ هُمَا شَفَيَانِي

فَمَا تَرَكَا مِنْ حِيْلَةٍ يَعْرِفَانِهَا ... وَلَا شَرْبَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقَيَانِي

وَرَشَّا عَلَىٰ وَجْهِي مِنَ المَاءِ سَاعَةً ... وَقَامَا مَعَ العُوَّادِ يَبْتَدِرَانِ

وَقَالَا شَفَاكَ اللَّهُ مَا لَنَا ... بِمَا ضَمَّنَتْ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ .

ويقول المجنون(٢٥٦) :-

بَرَىٰ حُبُّهَا جِسْمِي وَقَلْبِي وَمُهْجَتِي ... فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَعْظُمٌ وَعُرُوْقُ .

وإذا كان الشاعر يلقى بنفسه القاء واعيا ومقصودا في أحضان العذاب والحرمان من لقاء المحبوبة ، مهما كانت تفسيرات النقاد لذلك ، فانه لم يكن غريبا أن ترى أن الشاعر كان يحاول الالتحام بعالم الطبيعة وبخاصة عالم الطير والحيوان ، هروبا من أزمته النفسية

---

٢٥٥) نفسه ، : ٢٨ : ٩٥٧.

٢٥٦) ديوان مجنون ليلى ، : ١٦٤.

التى صنعها صنعا، وتوهم انعدام الخلاص منها ، ذلك أن الشاعر كان يتمنى في شعره الخلاص من عالم الانسان ، ولكنه عندما تمنى هذا الخلاص آثر أن يلتحم بعوالم أخرى ، تخلو كما صور لنا الشعراء في صور متعددة أخذت تتكاثف حتى أشبهت تقليدا فنيا هروبا من المسئولية والقيود ، ولكنه لم يتوقف عند هذا الحد ، فقد تصور أن التحامه بهذه العوالم الحيّة الأخرى لن يكون تامّا الا اذا أصابه شر يرجف منه الناس ، وليس هذا الشر سوى مرض يخشى الجميع على حياتهم ومايملكون منه ، فاذا ارتدّ الشاعر وحبيبته بعيرين ارتدّا بعيرين أصابهما مرض الجرب ، وليس خافيا مايمكن أن يصيب الناس على نفوسهم وماتملك من هلع اذا تجاوروا مع بعير مريض واذا ارتدّا زوجا من الحمام ، فليكونا[٢٥٧] زوجا من الحمام الذي يعيش في البرية ليس له صاحب ، ولايحمل من هم الدنيا سوى اطعام نفسه والطيران والتحليق بلا قيود ، واذا لم يكونا بعيرين أصابهما الجرب، فليكونا بعيرين يملكهما رجل غني لايؤثر غيابهما فيما يملك بالنقصان ، أو غزالين شاردين يرعيان بلدا قفرا ،فان لم يكونا كل هذا فليكونا

---

٢٥٧) انظر، د. محمد حسن عبدالله ، صورة المرأة في الشعر الأموي ،الطبعة الأولى ، ذات السلاسل : ٢٥١ - ٢٥٣.

حوتين في لج البحر تحول أهواله دون من يطلبهما ، فاذا أصرّ على طلبهما ابتلعه البحر ، واذا لم تسعف الشاعر تلك الأماني التى تبدو غريبة بعض الشيء ، ولكن المتأمل في رؤية الشاعر العذري للحب كفكرة مجردة سوف يرى أن الحب لديه هو الحياة ، والفراق هو الموت ، فهو يحيا اذا دنت ويهلك اذا شطّت ، فالحب والحبيبة أصبحا شيئا واحدا ، فهما ملتحمان ، لاينفصلان فاذا ضاع الحب فليضع الحبيب كذلك ، ولا أتى اليوم الذي يحل فيه آخر محله .

يقول عروة بن حزام (٢٥٨) :-

وَيَالَيْتَ أَنَّا الدهرُ فِيْ غَيْرِ رِيْبَةٍ بَعِيْرَانِ نَرْعَى القَفْرَ مُؤْتَلِفَانِ

إِذَا مَاوَرَدْنَا مِنْهَلاً صَاحَ أَهْلُهُ وَقَالُوا بَعِيْرَا عُزَّةٍ جَرِبَانِ .

ويقول كثيّر عزّة (٢٥٩) :-

أَلَا لَيْتَنَا يَاعَزُّ كُنَّا إِذِيْ غِنَى بَعِيْرَيْنِ نَرْعَى فِيْ الخَلَاءِ وَنَعْزِبُ

كِلَانَا بِهِ عِزّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ عَلَى حُسْنِهَا جَرْبَاءُ تُعْدِى وَأَجْرَبُ

إِذَا مَاوَرَدْنَا مِنْهَلاً صَاحَ أَهْلُهُ عَلَيْنَا فَمَا نَنْفَكُ نَرْمِى وَنُضْرَبُ .

---

٢٥٨) بين القديم والجديد ، : ٢١.

٢٥٩) ديوان كثيّر ، : ١٦١.

ويقول المجنون (٢٦٠) :-

- أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا غُزَالَيْنِ نَرْتَعِي ... رِيَاضاً مِنَ الحَوْذَانِ فِي بَلَدٍ قَفْرِ

أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا حَمَامَيْ مَفَازَةٍ ... نَطِيرُ وَنَأْوِي بِالعَشِيِّ إِلَى وَكْرِ

أَلَا لَيْتَنَا حُوتَانِ فِي البَحْرِ نَرْتَمِي ... إِذَا نَحْنُ أَمْسَيْنَا نُلَجِّجُ فِي البَحْرِ .

فاذا ماطاف في خاطر الشاعر - ولو لبرهة قصيرة - أن حبيبته قد تنعم مع غيره ، فاجئنا بالدعاء عليها ، دعاء المحب الأناني الذي لايتصور ضياع مايهوى ليس حبا في الاساءة اليها ، ولكن ضنا بما يحب ويهوى .

يقول المجنون (٢٦١) :-

فَلَا نَعِمَتْ بَعْدِي وَلَاعِشْتُ بَعْدَهَا ... وَدَامَتْ لَنَا الدُّنْيَا إِلَى مُلْتَقَى الحَشْرِ .

وهكذا يبدو لنا الشاعر - كما أوضحنا من قبل - مسوقا سوقا اختياريا واعيا نحو الحب والموت ، يستعذب الألم والحرمان ، ولايسعى للقاء بحبيبته ، مما أثر في اختيار وسائله الفنية ، التي استخدمها في التعبير الشعري ، عن عواطفه المتأججة دوما ، بلا انطفاء.

.. .. ..

---

٢٦٠) ديوان المجنون ، : ١٢٦.

٢٦١) نفسه ، : ١٢١ .

الخاتمة

حاولت في فصول الرسالة المختلفة أن أرصد دور الغزل في الشعر الأموي باعتباره وسيلة رمزية ، استغلها الشعراء في التعبير عن القضايا والمواقف المختلفة التي صاحبت تطور الحياة بعد ظهور الاسلام، وقد اقتضى ذلك مني أن أبدأ ظواهر الغزل في الشعر الجاهلي ، لتتضح أمامنا الصورة الجديدة التي تحول اليها الغزل في العصر الأموي .

وقد انتهيت في رصد ظواهر الغزل الجاهلي ، الى ملاحظة الصورة الثابتة للمرأة ، وهي صورة فرضت نفسها على الشعر القديم ، بحيث جاء حديث الشاعر الجاهلي عن المرأة اما وصفا لجمال مثالي ، لايخص امرأة بعينها ، أو رواية لأحداث وقصص عاطفية ، وقعت بينه وبينها أو وقوفا على الأطلال .

وقد رأينا أن الغزل في العصر الأموي قد تطور ، وتمثل هذا التطور في انفصال الغزل عن القصيدة القديمة ، ليصبح قصيدة أو مقطوعة خاصة بالغزل ، كما لاحظنا انه يجيء في شكلين : غزل صريح ، تقوم فيه حرية واسعة بين الرجل والمرأة ، وكان أبرز شعراء هذا النوع عمر بن أبي ربيعة ، وكان يكثر من قول الغزل في المناسبات الدينية كالحج والطّواف، وقد نجح هذا الشاعر في أن يعبر عن جدليات مختلفة سياسية ودينية واجتماعية ... الخ .

أما النوع الثاني ، فهو الغزل العفيف ، الذي يقترن بالحرمان الذي يؤدى الى الموت ، وهو يناقض تماما الغزل الصريح ، فاذا كان الأول تجربة عاطفية ناجحة ، فان الآخر تجربة عاطفية فاشلة .

وقد لاحظت أن طائفة من شعراء الغزل العفيف مشكوك في وجودهم، وأشعارهم يختلط بعضها ببعض وانها تعبر عن معنى واحد ، وهو الفشل في الحب والموت بسببه ، وقد جعل ذلك لغة هذا الغزل وصوره تتشابه وتتكرر.

وقد حاولت في ثنايا الدراسة ، أن أرصد الخصائص الفنية لشعر الغزل ، بعد أن قمت برصد الخصائص الموضوعية ، وبذلك اكتملت صورة ووظيفة الغزل في هذه المرحلة المتطورة من حياته الجديدة بعد الاسلام ، وظهر دوره الذي كان يستخدمه الشعراء من أجله في التعبير عن البيئة الجديدة بطريقة رمزية .

* * *

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- الأغاني ، لأبى الفرج الأصبهاني ، باشراف وتحقيق ابراهيم الأبياري ، دار الشعب ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م.
- جواهر الأدب ، السيد أحمد الهاشمي ، موءسسة المعارف ، بيروت لبنان.
- خزانة الأدب ، عبد القادر بن عمر البغدادي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.
- شعر الأحوص الأنصاري ، جمعه وحققه عادل سليمان جمال ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م.
- ديوان الأخطل ، شرحه وقدم له ، مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
- ديوان الأعشى ، شرح وتعليق د. م محمد حسين ، مكتبة الآداب بالجماميزت.
- شرح ديوان جرير ، مهدي محمد ناصر ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
- ديوان جميل بثينة ، حققه وقدم له د. فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت.
- ديوان عبيد بن الأبرص ، شرح وتحقيق د. حسين نصار ، مطبعة البابي الحلبي / القاهرة ، ١٩٥٧م.
- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

- شرح ديوان عنترة ، دار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٦م .
- ديوان عمر بن أبي ربيعة ، حققه وقدم له د. فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م .
- شرح ديوان الفرزدق ، ايليا الحاوي ، دار الكتاب اللبناني .
- ديوان كثيّر ، عبد القدوس احسان ، دار الثقافة بيروت .
- ديوان مجنون ليلى ، جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة .

ثانيا : المراجع :-

- د. ابراهيم عبد الرحمن محمد
- بين القديم والجديد ، دراسات في الأدب والنقد ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٧م .
- شعر ابن قيس الرقيات ، مكتبة الشباب .
- الأدب المقارن ، بين النظرية والتطبيق ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٤م .
- د. أحمد الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، دار القلم ، بيروت لبنان .
- د. شكرى فيصل ، تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ، من امرىء القيس الى عمر بن أبي ربيعة ، دار العلم للملايين .

- د. شوقي ضيف،
  - التطور والتجديد في الشعر الأموي ، دار المعارف .
  - الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، دار الثقافة بيروت لبنان.
- د. طه حسين ، حديث الأربعاء ، دار المعارف .
- د. عبد الحليم حفني،
  - معلقة امرىء القيس في ضوء جديد ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
  - من الأدب القديم ، ١٤٠٠ - ١٩٨١م.
- د. عبد القادر القط ، في الشعر الاسلامي والأموي ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٣م.
- د. علي البطل ، الصورة الفنية في الشعر العربي ، دار الأندلس .
- غانم جواد رضا ، الغزل السياسي في العصر الأموي ١٩٨٣م.
- د. محمد حسن عبد الله ، صورة المرأة في الشعر الأموي ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
- د. محمد عبد المطلب ، قراءة ثانية في معلقة امرىء القيس .
- د. مهجة محمد كامل درويش ، المرأة في حياة وشعر العصر الأموي ، المطبعة الفنية الحديثة .

.. .. ..

الفهـــرس

	الصفحـــة
المقدمـــــة	١ – ٥
الباب الأول ـــــ	٦ – ١٦٠
جدلية الحـــب و الحيـــــاة	
الفصل الأول : بين التقليد و التطور	٧ – ٤٣
الفصل الثانى : الغزل الصريح : رموزه وقضاياه ...	٤٤ – ١٦٠
الباب الثانـــى	١٦١–٢٥٧
ثنائية الحـــب و الحرمـــان	
الفصل الأول : قصص الحب العفيف : أصولها ونشأتها ...	١٦٢–٢٣٣
الفصل الثانى : الغزل العفيف : رموزه وقضاياه ...	٢٣٤–٢٥٧
الخاتمـــــة	٢٥٨–٢٥٩
المصادر و المراجـــع	٢٦٠–٢٦٢

* * *